المكتبة الصوفية

الرحلة المراكشية

أو

مرآة المساوئ الوقتية

ويسمى أيضًا

السيف المسلول على المعرض عن سنة الرسول صلى الله عليه وسلم

تأليف

السيد محمد بن محمد بن عبد الله المؤقت

الجزء الثالث

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الأولى
1434هـ - 2013
حقوق الطبع محفوظة للناشر
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد – القاهرة
25938411-25922620 / فاكس: 25936277
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الموقت ، السيد محمد بن محمد بن عبد الله
الرحلة المراكشية او مراة المساوى الوقتية / تاليف : السيد محمد بن محمد بن عبد الله الموقت
ط-1 القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية ،2012
ص ، 24 سم
تدمك : 978-977-341-583-1
1- التصوف الاسلامى
ا- العنوان

ديوى: 260

رقم الايداع: 2012/16298

﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

[الذاريات]

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على مولانا محمد وآله وصحبه وأمته

وعلينا معهم بمحض الفضل والكرم

مجالس الكبراء

قال مؤلفه محمد المؤقت كان الله له: ثم مررنا بعد ذلك بمجلس يجمع كثيراً من العظماء:

فسمعنا كلاماً يدور بين يدى بعض رؤساء الوقت فدنونا منهم بقصد الاطلاع، فدارت بينهم عدة فى السياسة والدين والأخلاق، وتعرضوا بطبيعة الحال لخصومهم، فسلقوهم بألسنة حداد، وخلعوا عليهم نعوتًا شديدة منها: الخانة، والإجرام، والجهل، والفظاظة واللؤم، والذلة، وما شابه ذلك، ولغوا فى دماء الأعراض ونهشوا لحوم إخوانهم، ولم تمنعهم علومهم عن هذا المنهج الفاسد والرأى الكاسد.

وكان فى هذا المجلس أمراء، وعظماء، وقضاء، وعلماء، وأساتذة ومفكرون، ورجال الصحف، وأرباب الأقلام.

ففررنا منهم لأجل العجز القائم بنا، وقمنا من بين أيديهم ساخطين، وعاهدنا نفوسنا بعد هذا التجول على العزلة وترك مخالطة الناس إلا لضرورة.

وبينما نحن فى الطريق إذ مر بنا رجل مطوق بسبحة غليظة فى عنقه فقال له بعض المارين فى الطريق: بعنى سبحتك، فقال إذا باع الصياد شبكته، فبأى شىء يصيد؟

فالتفت لنا عبد الباسط وقال: لقد صدق الدرقوى فيما ادعاه، وأفصح عن المقصود الذى ضن به عدد منهم وزور أنه ما وضعها فى عنقه إلا لكون الملائكة الكرام الواقفين بين يدى الملك العلام يفعلونها كذلك، حسبما أثبت هذا البهتان الواضح الشيخ الربطى فى تحفته وأبان فيها من جهله وتدليسه وكذبه وتلاعبه بنصوص الشريعة الإسلامية ما يستبعده المؤمن، أو يخيل صدوره من عاقل، فضلا عن عالم، فضلا عن رجل يزعم أنه قطب عصره وشيخ مصره. ولكنها الأهواء تفعل ما تشاء. والمتأمل فى هذا الأثر يجد أنه باطل. وأنه موضوع لعلل كثيرة هذا محلها.

ومن حق كل عالم أن يدفع الباطل بقدر ما سمح به القانون الشرعى وعلى قدر طاقته وقوته، لأن الباطل يفسد الحياة. ولأن انتشاره يورث الهلكة.

وبينما نحن مارون إذ سمعنا صوت غوغاء وسباب وشتم ومقاتلة سدت مسالك الطريق، فتقدمنا لنرى ما الخبر؟ فشاهدنا جماعة من الشبان المراهقين يضرب بعضهم بعضًا، ووصل أذاهم لكل مار بالطريق.

فقال الشيخ عبد الهادى لعبد الباسط: ما هذا حتى صبيانكم على هذا الحال السيء؟ قال نعم وأكثر مما رأيت. وهكذا حالهم فى كل حومة ودرب ويرتكبون مناكر يضيق عنها الصدر. وقد زاد شرهم واستفحل فى هذا الوقت.

فقال الشيخ عبد الهادى: هذا كله من إهمال الحكومة أمرهم، فإذا لم تتلاف ذلك بإقامة زواجر قهرية لدفع ذلك الطيش الفاحش، ربما سرى خطره إلى شيء يضر بالجانبين.

ولا إخالهـا إلا مسـرعة فى القـريب للقيـام بقطع هذه المفاسـد الضارة بالدين والدنيـا التى تبرز على يد صـغارنا صـباح مـساء. كمـا أننا نؤمل من جانبـها أن تجعل اللازم فى حق المسـاكين الذين يسألون بالدروب ويتـغوطون بداخلها، وكذا من يبـول فى الطريق، فلو جعلت الحكومة مراقـبة على البول فى الطريق. وكل من صدر منه ذلك يؤدب بإعطاء قدر من المال وإلا بالسجن لكان البلد نظيفًا.

ومما يجدر بها الاعتناء بالنظافة، فإن كثيرًا من أزقتها على حالة سيئة من العفـونات والأوساخ التـى تأباها النواميس الصـحيـحة، ولا تلائم الحـضارة والمدنية.

وبينما نحن كذلك، إذ سمعنا شتمًـا وسبابًا، فتقربنا لنرى الواقع، فإذا بخضرى باع لرجل كـيلو من الخضر، فلما وزنه فى محل آخر وجـده ناقصًا أكثر من خمـسين جرامًا، فالتفت الناس لطالب الحق خصـوصًا الخضار منهم وقالوا له أنت ظالم، وهذه صنعـتك مع كل أحد من البياعـين، فإنك تنقص ذلك القدر، وتدعى أن البائع هو الذى ضـيعك فيه، فالتـفت المسكين بعد ما أسكرته الحيرة إلى بعضهم. وقـال أتعرفنى؟ قال لا. قال علمت الواقع الذى أوصلنى إلى هذا؟ قال لا: قـال فكيف تشهد على وأنت وهذه الجمـاعة بأنى ظالم؟ فقال سمعتم يقـولون إنك ظالم، فقلت إنك ظالم، فلم ينفعه فى هذا إلا أنه انسلخ من بين أيديهم، وهو ظالم فيـما ادعاه، فتعـجبنا من هذا غاية التعجب، وتحقق لنا أن البلد فارغة من الحسبة الشرعية والعرفية والقانونية.

وبينما نحن كذلك، إذ عـارضتنا ريح كريهة، حتى خـشينا على أنفسنا فقلنا ما هذا؟ فـقال عبد البـاسط: هذا محل لقضاء الحاجـة، فقلنا أوليس له

موظف يقوم بإصلاحه؟ قال أما صورة فموجود مأجور، وأما فى الحقيقة، فليس بموجود، وسبب هذا عدم المراقبة على الموظفات الدينية.

وبينما نحن كذلك، إذ رأينا جمعًا كثيراً من الناس، والكل يقول: العجب العجب، انظروا لهذه الداهية الوقتية، ولمسخ الحاضر لنا، فتقدمنا لننظر ما الخبر؟ فإذا هو رجل سكران وقائل يقول: القاضى فلان، وقائل يقول بل هو المحتسب فلان، وقائل يقول بل هو الناظر فلان، وقائل يقول بل هو العالم المفتى، فطلبنا عين اليقين، فلم نجد له سبيلا لكثرة الازدحام وتركناهم ومضينا ونحن فى غاية الحيرة والإعجاب من أمر هؤلاء، إذ مقام كل منهم منزه عن هذا طبعًا وشرعًا، ولكن [فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور].

وبينما نحن فى الطريق، إذا بقائل يقول للآخر توجهت البارحة إلى دار القاضى فلان، واستصحبت معى قوالب سكر وفراريج وقدرة من سمن لأجل قضيتى التى طالت مدتها، فبش فى وجهى، وواعدنى بأن ينصرنى على خصمى فأحضره، وجلست مع الخصم، وأظهر من تأييد حججى ما سرنى، وظننت أن القضية ستتم قريبًا. ثم بعد مدة قريبة حضرنا بين يديه، وواجهنى بعكس ما تقدم، حتى أيست من نجاح القضية، فذكريه بهديتى. وقلت أيها القاضى: حجتى واضحة أقوى من طيران الفراريج وما معها، فقال لى بصوت عال: قم يا جهول عنى، فحجته أغلى من حجتك. وأضوأ من سراج على منارة.

ثم قال الرجل لصاحبه: وبعض قضاة الوقت اليوم لا يقضون إلا على الرشوة ولو بالشيء التافه، وقد اختبرت عدداً منهم فى قضيتى هذه وغيرها، وما وجدت منهم إلا من يقول:

إذا ما صب فى القناديل زيت تحولت القـضية للمقـندل

وبينما نحن كذلك، إذا رأينا بـابًا مفتوحًا مزخـرفًا، والناس تدخل إليه أفواجًا أفواجًا، فسألناه عنه، فقيل لنا هذا تياترو. قلنا وما معنى تياترو؟ فقيل كلمة معجـبة. وهى عبارة عن اسم موضع معد للفرجـة واللهو*-فقلنا: وما بداخله؟ فـقيل نسـاء يغنين ويرقصن مكـشوفات الـوجه والرأس، حـاسرات الأذرع، وبعضهن يضـربن بالمزامير، فقلنا ومن يحضر بهـذا من الناس؟ فقيل مـحل عـمومى يدخـله كل من أراد الدخـول من الناس، بل ويدخله حـتى الخاصة: من أمراء وعظماء وقضاة ونظار وعلماء وعدول.

فقال عبد الباسط: إن من أشـراط الساعة الفحش والتفحش. أليس من الفـسق، بل من العار أن يـحل هذا المحل من كان فى قلـبه مـثقـال ذرة من الإيمان فضلا عمن له مسكة من العلم، أو رتبة فى الوقت.

ثم مررنا فإذا بماء هبط علينا من بعض قواديس الأسطحة، فلم ندر أهو بول، أم غسالة. أم فضلة وضوء، وقينا حـيارى. وقلنا لو كانت غيرة لهؤلاء الناس، لأوصلوا خب هذه المظالم للحكومة علها تقطع مادتها.

ثم مررنا، فإذا بشاب مراهق يتنازع مع قرينه ويـسب دينه، فقلنا ما هذا. أليس هو من أبناء المسلمين، فقيل نعم: إلا أن أباه أدخله هذه المدارس الأولية الحادثة، فتعلم اللغة وحصل على بعض قوانينها. فلم يعرف إذن للدين مزية.

ثم مررنا، فإذا برجل واجهه الأتومبـيل، فقتله وأسرع فى السير كى لا يتمكن الناس النظر فى نمرته، فحصل الأسف للجمـيع على تصيير دم المقتول هدرًا، وأخبـرونا أن لهذه الفـتنة نظائر عديدة فى كل شـهر، بل فى كل يوم وليلة، سـيما وقـد تهيـأت شركـة تضمن الخـسارات الواقـعة من أصـحاب

الأوتومبيلات، فصار أصحاب الأوتومبيلا بعد إدخالهم إياها فى قوانين التضمين لا يبالون إذن بما صدر على أيديهم من قتل شخص، أو كسر رجله، لأن الشركة مستعدة لدفع تلك الخسارات المطرق بها أصحاب الأوتومبيلات، ولو بالباطل، فضوعف البلاء على الناس من كل جهة، والأمر لله.

وبينما نحن كذلك، إذ سمعنا بعض الناس يقول للآخر: ألم تسمع ما وقع بسوق النجارين؟ فقال وما ذاك؟ قال مر به رجل ضعيف البصر لبعض أغراضه، فإذا بمحراث ممدود من حانوت بعضهم إلى وسط الطريق، فعثر عليه وسقط على وجهه، وانكسرت رباعيته، وانهشم أنفه، ودمى وجهه وكان الأمر عظيمًا. ولما رجعت نفسه هم أن يرفع شكايته لبعض المتولين، فقيل له: هذا لا يجديك شيئًا، ولكن احتسب هذه المصيبة، وما أنت بأول من أوذى بهذا السوق. سوق الظلم والتعدى والإذابة للناس صباح مساء.

ثم مررنا. فسمعنا مشاجرة بين اثنين. فقلنا ما بالهما؟ فقيل إن هذين جيران، وبلغ أحدهما أن الآخر مشغوف بزوجته مدة أشهر وأشهد على ذلك بقية الجيران، وصارا يتقاتلان فى دياجير الظلام، حتى خشينا على أحدهما عاقبة الأمر، فتركناهما وأخذنا العجب على وجود هذه الحالة السيئة المعروفة فى أيام الجاهلية بين الناس اليوم. فقال لنا رجل ممن كان حاضرًا معنا عند هذه الحادثة لا تحسبوا أن القضية انتهت إلى هنا، أما سمعتم فى هذه الأيام قضية الرجل المتوحش مع ابنته التى صيرها كباغية يزنى بها صباحًا مساء؟ فقلنا لا علم لنا به وإنما نحن قوم غرباء فأخبرنا بالواقع، فقال: إن الرجل ماتت زوجته وخلفت له بنتًا جميلة الصورة، طويلة الأصابع، طويلة القد، صغيرة الرجلين. صغيرة الفم. صغيرة القدمين، كحلة الشعر، كحلة

الحاجبين، محمرة الشفتين محمرة الخدين صغيرة السن، ولشغفه بها ومحبته لها التزم حضانتها، وبقيت تبيت معه على فراش واحد إلى أن وصلت إبان البلوغ، وهى كذلك على تلك الحالة فزين له الشيطان فض بكارتها ففعل، وبقيت معه على ذلك مدة إلى أن ظهر عليها أثر الحمل، فلامها الجيران والأهل، وأغلظن عليها فى القول، وأقررنها إلى أن أقرت بأن ذلك من أبيها، ففشا الخبر وذاع وافتضح الأمر فلم ينفع الجبان إلا الفرار، وترك لها جميع ما كان يملك. ولقد وقع عليه البحث ولم يعثر له على خبر.

فالتفت لنا عبد الباسط وقال: لقد أذكرنى هذا الخبر قضية غريبة هى أخبث من هذه وأشنع وأفسق. وذلك أن رجلا قطع جل عمره فى الزنا بأمه التى ولدته.

فقلنا كيف يكون هذا فى الدين الإسلامى. فاتق الله يا عبد الباسط. فقال سأخبركم عن ذلك مفصلا، والكاذب ملعون، قلنا هات ما عندك. فلقد تحققنا بأن لك اليد الطولى فى الاطلاع على مساوئ أهل عصرك. ومن قبلهم بأزمان طويلة، ومثلك من تشد له الرحال فى ذلك زيادة على إرشاداتك الحقية، التى ترغب العاقل فى الإنصاف بالحزم والضبط والغيرة الإسلامية، والتمسك بسوء الظن الذى هو أعلى وجوه الكمالات اليوم.

فقال كيفية ذلك هو أن الرجل لما مات أبوه وتركه رضيعًا فى حجر أمه وبقى معها فى فراش واحد إلى أن أدرك الولد وبلغ مبلغ الرجال، فصارت نفسه تتحرك وسلطان الهوى يقوى ووقع لأمه مثل ما وقع له سيما، وهى صغيرة السن لم تبلغ الثلاثين، واستحكمت الشهوة بينهما حتى أعمت البصائر، وهم كل واحد منهما بالآخر. وبقيت موانع الحياء تتلاشى بين

الجانبين شيئًا فشيئًا، صارت الأم تتهيأ لذل بكل وجه من الطيب واللباس وغيرهما خصوصًا عند وقت الرقود إلى أن افتتن الولد وخلع العذار وابتع هواه وانهمك فى الغى ووقع الاتصال وزالت موانع الانفصال وكثر وقوعه بنا آناء الليل وأطراف النهار. مرة بشهوته الخاصة به ومرة بالقهر والإجبار وبقى معها على هذا الحال، وبئس الحال إلى أن أحست بالافتضاح فزوجته تسترًا على نفسها من الناس، وبقيت كذلك معه فى بعض الأوقات، ومن قوة سيطرتها عليه باستبدادها لمال أبيه وتصرفها فيه لم تكن له قوة على مخالفتها فى هذا المنكر الفادح واشتهرت قضيتها على لسان زوجته إلى أن افتضح الحال، واتسع المقال، وقضت نحبها، وكان مأواها النار وبئس القرار، والأمر لله الذى لا تخفى عليه خافية فى الحال والمآل.

ثم قال عبد الباسط رضى الله عنه: وأما نكاح الأخ أخته فأمر ذائع شائع كثير جدًا، ومن بحث كل البحث يجد هذا فى بيته إن كانت له بنات وأولاد سيما إن كان الأولاد من أصحاب المدارس الوقتية. فلهذا قل أن تسمع من متزوج اليوم بعذراء أنه وجدها كذلك.

وما أبعد هذه الصيانة اليوم وما أندرها، ولا مفهوم للحواضر فى هذا الأمر الشنيع، بل حتى البوادى والأمر لله. وقد سمعنا عن الثقات من مثل هذا العجب العجاب.

وبالجملة فالزمن زمن الغرائب والعجائب. وأما ما يقع من فساد النسل بسبب الأولاد المراهقين المستخدمين لأجل قضاء الحوائج المنزلية من سقى ماء أو إتيان بحاجة فلا تسأل عنه، وقلما تجد محلا سالمًا من هذا كما أنك لا تجد إلا قليلا ممن يتفطن لما ذكرنا.

ومنهم من يجعل المستخدم كـأحد أولاده بحيث يبيح له الدخول لداخل الدار بل والمبيت معه بها، والحال أنه وصل إبان البلوغ والديوث لا علم له بما سيقع، وربما رآه وغض عنه لأجل تمكن سحر عاهرته له.

وزد على هذا المنكر المستخدم الفـران الذى يأتى بالخبز للدوز، وكذا ما يقع لمؤدب الصبين فى أهله، فتراه يرسل المراهقـين فى قضاء أغراضه المنزلية، ويحدث من ذلك العجـر والبجر، وقد لوحنا لمثل هذا سابقًـا فى الجزء الثانى من هذه الرحلة.

وإنى أعرف رجـلا منهم وقد بلغ من السن نحو السـتين سنة، والناس تعتـقده وتشـير له بالخـير ويتظاهر بزى الطـائفة الدرقويـة من تلك العمـامة الخضراء والسـبحة الغليظة ووضـعها فى العنق، وكان من جـهله وحسن ظنه بأهله أن ألزم تلامـيذه أن يقومـوا بمآرب الدار من سقى مـاء أو شراء لحم أو توصل خبز للخباز وهكـذا فوجدت زوجته العاهرة بغيتهـا من الفساد وأعانها على ذلك جمـالها الباهر وتعـددت عليها الشـبان الذين لهم فى مادة الفـساد القوة والسلطـان فصاروا مـعها على هذا الحـال إلى أن اتضح الأمر وافـتضح وتفاحش ورفعت لهـذا الديوث شكايات بذلك على وجه النصيحة فلمـا كثر عليه القول قامت قـيامته واشتكى لبعض الولاة ممن أكـثر عليه فى ذلك وبقى على ذلك الحال إلى أن مات. جدد الله عليه سحائب الغضب حتى الميقات.

هذا وكـلامنا كله فى رحلتنا هـذه مع عقـلاء الوقت المتـبـعـين للسنة المحمدية. وأمـا الأراذل الذين طمست سريرتهم، وعمـيت بصرتهم، وكانوا ممن قيل فيهم (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) فلا نعتبرهم

ولا نلتفت لطعن طـاعن بطال ضال منهم، بل هم كخـفاش أعمى لا يبـصر شمس النهار، ومن كان كذلك فكيف يعتبر؟

فقال له عبـد الهادى حسبك لا تشغلنا عمـا نحن بصدده، وبينما نحن فى الطريق إذ سمـعنا رجلا ينازع زوجـته ويسبـها، فقـال عبـد الباسط: هل سمعتم ما قال الرجل لزوجته بعد السب! قلنا لا؟ قال: قال لها إن لم تكونى فى هذا الشهر حاملا أطلقك طلقة بائنة، وها أنا قد أبحث لك أن ترتكبى من الأدوية ما يعينك على ذلك، فأنا لا حاجة لى بالمرأة التى لا تلد.

ثم قال عـبد الباسط: هذا رجل أخـرق فاسد الـعقيـدة، فقلنا ومن أى وجه صار أخـرق؟ قال: لأنه تسبب لها فى ارتكاب الزنـا على أى وجه كان ولو بيهودى أو نصـرانى سيما إذا كانت لهـا علقة به تامة من جهة تمتـعها به التمـتع الحسى والمعنوى، أى من جـهة الثراء أو من جـهة قوة النكاح. فـإنها تجتهد ما أنكنها فى إيجاد الرابطة لتلك العـلاقة صباح مساء، ولم يدر الجهول الديوث أنه ربما كـان عـاقرًا. ولكن [فـإنهـا لا تعمى الأبصـار ولكن تعـمى القلوب التى فى الصدور] وهذا الصنف كثير فى وقتنا هذا، والأمر لله.

وهذا من الأسـبـاب الـتى أكـثـرت هذا النوع فى الـوقت، أعنى نوع الديوثين، ولو انكشف الغـطاء لشاهدت عـددًا منهم بقطرنا المغـربى، ومنهم فقهاء وولاة وعدول وقراء وأئمة وتجـار وأصحاب حرف وغيرهم، والأمر لله الذى لا تخفى عليه خافية.

ثم مررنا فإذا رجل يقول لآخر أسمعت ما وقع فى هذه الأيام. قال وما ذاك؟ قال إن الفقيـه الفلانى عثر على ابنه يزنى بزوجته. قال ومـا فعل معه؟ قال إنه تصرف فيه أولا بيده ثم ثانيًا ثم ثالثًا ولم ينفع معه ذلك، ثم آخرًا رفع

قضيته للوالى، واجتهد بكل وجه إلى أن سجن الولد، ثم بعد أيام قلائل أخرج من السجن بدون رضا والده بذلك، ورجع لما كان عليه مع الزوجة خفية وصار يترصد غيبوبة والده فى ذلك إلى أن افتضح الأمر بين الناس، ومع هذا لم يجد أبوه إليه سبيلا كما أنه لم يجد لفراق زوجته سبيلا، وذلك لكونه جميلة ومن ذوى اليسار، فاقتسما الزمان فى ذلك فكان النهار للولد الخائن والليل للأب الديوث.

فقال له الآخر: وأعجب من هذا أن الفقيه الفلانى ذكروا عليه أنه كان ساكنًا مع أخيه فى محل واحد، وكل واحد منهما له زوجة وأولاد فبعد بضعة أيام عثر سقيقه عليه يزنى بزوجته، فأخذه وأشبعه ضربًا وسبًا ولعنًا ولولا الجيران لكاد أن يتم عليه.

فقال تقول هذا والفقيه يظهر عليه أنه رجل تقى، ولعلك واهم فيما ادعيت وسعمت، وما هذه القضية إلا مزورة عليه. فقال له الآخر قد ثبت عندى صدق القضية.

ومعلوم أن الرجل إذا اختلى بأجنبية كان غائب الرشد فاقد الصواب سيما والزوجة المحدث عنها ممن لها نصيب وافر فى الجمال، وإياك أن تستغرب ما يقع فى هذا الحال.

فقضينا العجب ومررنا، وإذ برجل أقبل علينا وقال: أود أن أدلى إليكم بخبر غريب حدث عندنا فى هذه الأيام، فقلنا تكلم وثق بأننا خير عون لك فى كل مهمة دينية، فقال إن البقال الفلانى الذى اشتهر بالغش فى السمن والعسل والزيت اتصل خبره بالحكومة فقبضت عليه وأتلفت كل ما عنده واحتوت على جميع تلك الأملاك التى بيده وألقته فى السجن وسجلت عليه أن يخرج كل يوم لتنظيف الطرقات تحت ذل الرق فى جميع الحركات.

ثم قال لنا والعجب من تجار هذا الزمان، فنرى غالبهم قائما على ساق الجد فى الأسباب التى توصل للغش من كل جهة لأجل أن يتنعم بكل ما تشتهيه نفسه متجشمًا من أجل ذلك المشاق التى لا توصف، ويقدم فيها على المخاطر التى تفوق مخاطر الحروب الدموية، ويظن أنه بذلك يتوصل لثروة لا فقر معها.

ثم قال اعتادت الأنفس سلوك سبيل الغش فى الأعمال، وأشربت القلوب قلوب أهل الصنائع حب المشى على سنن الخديعة المعوج الذى لا يؤدى بسالكه لغية حميدة.

ومن بيع الصنائع التى أضحى الغش جزءًا من أجزائها الذاتية صنعة الخرازة وصناعة الحياكة ولو كانت المراقبة على هاتين الصنعتين وغيرهما وألزمت الغرامات الباهظة لمن وقع العثور عليه متلبسًا بجريمة الغش وتمزيق المصنوعات المغشوشة وتعليقها بالمحلات المطروقة لقلت المفاسد.

فإن بعض النفوس الشريرة من أصحاب تينك الصناعتين الهامتين لم تقلع عن غيها ولا ارعوت عن ضلالها.

وبمثل هذه الخيانات فى الصناعات كلها تقع فى الدرك الأسفل وتسقط أصحابها كذلك، وسقوطها هو الخسارة والخذلان.

ثم قال فنؤمل من جانبكم إن كنتم ممن لهم النهضة الصارمة التى ترتعد لها فرائض أهل الغش والتدليس أن تقطعوا درء هذه المفاسد التى عم ضررها وشاع شررها، وإن لم تكونوا كذلك فبأقلامكم التى تقطع أعناق ذوى الأعمال الباطلة، وأصحاب الدعاوى الكاذبة، فقلنا لك ذلك بحول الله، ثم تركناه وذهبنا، فإذا بجماعة جالسة بالطريق، وبعضهم يقول للآخر إن فلانًا

الفلانى العالم قطع أصابع صاحبه فلان. فقالوا كيف ذلك؟ قال إنه ائتمنه فى ألف ريال لأجل سفر عرض له، ولما رجع وطلبه بها أنكره وأشبعه سبًا ولعنًا مع أنه كانت بينهما مودة عظيمة، ولحسن الظن به لم يطالبه بخط يده بذلك، فقالوا كيف يكون هذا والرجل نسمع عنه أنه ممن لهم القدم فى العلم والشرف والديانة، ويدخل فى دائرة النفاق، قال ومع ما ذكرتم عنه كان ذلك. قالوا وما فعل معه بعد هذا؟. قال صار يتقرب إليه بالوسائط لعله يرجع عن نكره ولو يدفع له شيئًا من ذلك فأبى وآل الأمر إلى أن رفع به الشكاية، وهنا وصل علمى فى القضية.

فالتفت إلينا أبو زيد المراكشى وقال: عجبت من غفلة من له مسكة من العقل كيف يغتر بأهل وقته ويطمئن بهم كل الاطمئنان حتى يؤديه إلى أن يضع ماله عند بعضهم، والحال أنهم اتصفوا بأوصاف النفاق كلها، وأوصاف النفاق معروفة.

وفى صحيح الإمام البخارى عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان" زاد الإمام مسلم فى روايته لهذا الحديث "وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم".

قال أبو زيد. بعد هذا وقد خالطت الناس واختبرتهم شرقًا وغربًا فلم أجد فيهم إلا من ائتمن خان ومن وعد أخلف ومن حدث كذب، ولكن من أشراط الساعة كثرة المنافقين، فقال له الشيخ عبد الهادى حسبك.

وبينما نحن فى شوارع المدينة إذ سمعنا صوت غوغاء وسبابًا وشتمًا وشاهدنا عددًا وافرًا من الناس أمام باب دار فتقدمنا لنرى ما الخبر فشاهدنا

شابًا وطنيًا مع بائع حليب يتخاصمان، وعندما سألناه عن سبب الخصام قيل لنا إن الشاب أتى لترًا من الحليب، وقد زاد اللبان عليه فى السعر المحدود فلم يقبل ذلك وألح الشاب وترجى لأنه مضطر له بسبب وجود مريض عنده فلم يصغ البائع وقال: أنا لا أبيع إلا بالقدر الذى ترضاه نفسى ولا أتبع السعر المحدود، ولست بأول من خالف السعر المحدود فى هذه الأرض بل أصحاب الخضراوات كلها وغيرهم يبيعون بأكثر من السعر المحدود، فدار الخصام بينهم وجرى السب والشتم، ولولا دخول بعض الناس فى القضية لجرى ما لم تحمد عقباه، وقال بعض الواقفين هناك كيف يذعن هذا الأمر المخزى وهو وأهل حرفته، بل وأصحاب الخضراوات كلهم يدفعون للمحتسب كل يوم قدرًا من المال وظفه عليهم لأجل أن لا تكون عليهم تبعة ولا مسئولية فيما يصدر منهم من ارتكاب تلك الخيانات ووجوه الغش والزيادة بالأسعار وتخليط الردىء بالجيد وهكذا.

فعلمنا وتحقق لنا أن البلاد كادت أن تكون كبادية من البوادى الفوضوية التى لم تدخل تحت سيطرة مسيطر تفعل بأهوائها ما تشاء، وعلمنا أن دوام هذا الفعل يزيد الأزمنة تعقدًا على تعقدها، ثم ذهبنا فإذا برجل يتأوه تأوه الغريق، ويقول العجب العجب. فقلنا ومن أى شىء تعجب؟ قال من حادثة مكدرة. قلنا ما هى؟ قال من مزاحمة بعض تجار هذا العصر الذى هو شر العصور لتجار اليهود بقطرهم المخصوص بهم، أفلا يجدر والحالة هذه بعلماء الإسلام أن ينبهوا العامة الأغمار لما ينتج من هذه الحادثة المكدرة، فتتلافى ذلك بإقامة زواجر وإعلامات وعظية خوف سريان ذلك الخطر وسعيًا فى تخفيف ما يقع فيها من إضرار وإخطار للجانبين فلا إخالها إلا مسرعة فى

القريب للقيام بقطع ساحة هذه الداهية العظمى والبلية الكبرى كما أن من الواجب عليها أن تتلافى الأخطار الهائلة التى حلت بفريق كبير من أهل الإسلام فى هذه الأزمنة ألا وهى استخدامات المسلمات صغارًا وكبارًا لليهود واليهوديات بمحلهم المخصوص بهم وقد فسدت فطرة هؤلاء وكادت أن تتنحى عن الدين بالكلية، وهذا عار كبير على علماء الإسلام وولاته، وهذا شيء يفتت الأكباد وتتمزق منه القلوب وتقشعر منه الوجدانيات الحية وتنكمش منه النفوس الطاهرة، فعجبًا من كلامه وغيرته على أهل دينه، وقلنا لعل الله يهيء من يقوم بهذا الواجب فى هذا الزمن الحالك وانصرفنا.

فبينما نحن فى الطريق إذ واجهتنا حانوت حجام فسمعناه يقول لرجل بين يديه هل أحلق رأسك على صفة أوروبية أو أمريكية، فقال الرجل لا أدرى ما نقول؟. ولكن بين لى ما معنى أوروبية أو أمريكية، فقال الحلاق: ولعلك من بقية هذه الأثرات القديمة التى صارت مباينة لهذا الجيل فى جميع شئوناته، ولكن لابد لى أن أوسع خاطرى معك لجهلك ولسبقيتك فى الإسلام وتأخرك لهذا العصر عصر المدنية والحضارة، وإن كنت لا تدرى الفرق بينهما فأقول لك بالعربية الزمرانية هل أحلق رأسك على العمل القديم الذى أدركت عليه أسلافك المنغمسين فى تلك الهمجية أو أحلقه على العمل الجديد عمل الترقى والحضر الأوروبى، فقال الرجل: وأى شيء ظهر لك من حالى حتى تسألنى عن أى الحالات التى أريد أن أحلق عليها رأسى هل سمعت عنى أننى من متخرجى هذه المدارس المحدثة أو رأيت على رأسى أو لحيتى علامة من ذلك، ولكن صنعتك هذه أعطتك أن تكون فارغًا من العقل والكياسة. مرتكبًا فيها من المناكر التى أجمع على تحريمها علماء الدين الذين

لهم السيطرة على القلوب والرياسة وإذا كان كسبكم خبيثًا كما ورد فى الصحيح فماذا يقال فيه مع ارتكابكم لهذه المناكر التى أبعدتكم عن طريق الصواب، وصيرتكم فى حيز البهيمة الحمقاء فى الذهاب والإياب، وقديمًا أسمع عنكم مقالة تمجها الأسماع وتأباها الطباع، وهى ثلاثة أعمال لم تزل فى سفلة الناس: الحياكة والحجامة والدباغة. وقد ازددتم اليوم نذالة على نذالتكم وهمجية على همجيتكم وجركم فساد البواطن وظلامها إلى أكل أموال الناس بالباطل، وذلك بتقليد الكفرة فى زى عوائد قومها وحذرتم حذورهم فى كل حركاتكم وسكناتكم، وصرتم شر معين لعؤلاء العصريين العسرين المخذولين الذين طعت بهم المدنية الكاذبة حتى اعتقدوا أن وجود اللحية من الوساخة وأن النظافة إزالتها، وتسببتم فى مسخ صورهم وغيرتم خلق الله وخالفتم شريعة نبيكم القائل: حسبما رواه الإمام مسلم فى صحيحه عن ابن عمر (رضى الله عنهما) أنه ﷺ قال "احفوا الشوارب واعفوا اللحى" وما رواه الإمام أحمد فى مسنده أن رسول الله ﷺ قال "قصوا الشوارب واعفوا اللحى" ومثله فى صحيح البخارى.

وجركم إلى ارتكاب هذا الضلال والفساد ما تأخذون عليه من الأجرة فوق القدر المعتاد، وبهذا صارت حرفتكم اليوم أرذل الحرف وأفظعها وأجهلها وأشنعها وأمرها وأخسها وأقبحها وأمقتها وأخرقها وأحمقها وأفسقها، وإن طال الزمان لأجعلن مؤلفًا خاصًا فى مساويكم.

ثم قال الرجل وإنى لكثير الإعجاب من حمق هؤلاء العمريين كيف طغت عليهم هذه المدنية، بل محض همجية حتى أذهبت عنهم بهجة الآدمية ومسخت كمالاتهم الإنسانية وغيروا معالم دينهم بضلالات الأوروبية.

والله لو رأوهم يجعلون ذنب الكلب الميت بين أعينهم أو فوق رءوسهم أو فأرًا ميتًا لفعلوا كذلك، أو من عاداتهم أنهم يلطخون وجوههم صباح مساء بالعذرة أو بالدم المسفوح لفعلوا اقتداء بهم، ثم إنه فارقه وهو ساخط عنه وبقى الحجام باهتًا لا يدرى ما يقول، والبادئ أظلم.

فاستحسنا منه هذه العبارات الحسنة التى لا تخرج إلا من بين شفتى رجل عظيم شريف الخصال وتقدمنا إليه وصافحناه وقلنا إنا لمضطرون لحكمتك غير جاحدين لفضلك، وقد أسعدنا الزمان باللقى بك، أطال الله بقاءك نصرة للدين، وزاد فى أمثالك رحمة بالمؤمنين.

وقد علمنا أن الحجام قد غضب لهذه المخاطبة فضاق صدره من هذه المكالمة، وما كان فى حسبانه أن تكسر أسنانه بلسانه، أو تزول أضراسه ببنانه. فإن أقلع عن عادته ونزع عن شيمته، فنرجو له ولمن كان من أهل حرفته السلامة الأبدية فى سره وعلانيته، وإلا فلا سبيل لهدايته.

ثم ذهبنا فإذا بجماعة من طلبة العلم يقول بعضهم لبعض قد انطلقنا إلى المكتبة العمومية اليوسفية فدخلناها فوجدناها فارغة الأركان خالية من تلك المؤلفات الحسان، وكانت سابقًا من أشه الخزائن العظيمة بالمغرب لكونها كانت حاوية لجليل الذخائر العلمية والكتب الغريبة العربية القيمة ما بين مصاحف قرآنية عتيقة، وكتب التجويد، والتفسير، والحديث، والمصطلح، والسير، والتوحيد، والأصول، والفقه، والفرائض، والتصوف، واللغة، والنحو، والتصريف، والبلاغة، والعروض، والقوافى، والإنشاء، والأدب، والتاريخ، والطب، والرحلات، والجغرافية، والهيئة، والتوقيت، والتعديل، والحساب، والهندسة، والطبيعة، والمنطق، والوضع وغير ذلك من شتى الفنون.

ومن بين هذه الكتب ما هو غريب فى بابه من حيثيات: منها قدم الخطوط وجمالها، ومنها ما هو غريب من المؤلفات التى تشد لها الرحال ويعد من أنفس النفائس والمطبوعات على اختلاف أنواعها قديمها وحديثها فإذا هى اليوم قد انمحى أثرها وذهبت أعلامها وطويت صحفها وصارت عبرة لمن اعتبر بعد أن كانت تذكرة لمن أراد أن يتذكر، ولا ندرى السبب الذى ألحقها بهذه الحالة السيئة.

فقال ذاك البعض أما أنا فلا أكتمكم السبب الذى أنتج هذه الخسارة الفادحة التى تعد من أعظم الحوادث المحزنة فى هذه العصور.

وذاك أن المخزن المطاع لما أمر بنقل تلك الكتب العلمية من مكتبة مسجد المواسين إلى مكتبة مسجد ابن يوسف، وكانت سابقًا من أشهر الخزائن العظيمة بالمغرب لكونها احتوت على جميع ما حبسته الدولة اللمتونية من المؤلفات، وكذا الدولة الموحدية، والمرينية، والسعدية، والعلوية اختار لصيانتها الأكفاء الأتقياء أصحاب المناصب الرفيعة فى العلم والعمل به فبقيت محفوظة عدة سنين لا يكدر صفوها الحوادث والملمات، ولا تمد إليها يد الدهر بغير المسرات والمبرات.

لكن لما دار الدهر دورته وانعكست الأمور وأصبح الحال على خطر وظفر بها من استطاع أن يخدع بترهاته كثيرًا من الناس ويخرج لهم الكذب الحبريت فى صورة الواقع الذى لا ريب فيه كان من كان.

وهذه إحدى المسائل التى يجب الالتفات إليها بهذا الوطن المراكشى وأن تكون منظمة مضبوطة لا كما هى عليه الحالة الآن.

ثم مررنا بعد أن أثنينا على همة هذا الرجل الغيور الذى هزته غبرته

الوطنية أن يصدع بما فيه صلاح أبناء جلدته، وبينما نحن فى الطريق إذ سمعنا صوت غوغاء وسباب وشتم وشاهدنا عدداً وافراً من الناس أمام بيت كبير وكذا بداخله فتقدمنا لنرى الخبر فقابلنا رجل منهم وقال: ما تريدون هنا؟ وهيئتكم لا تقتضى الوقوف بهذا المحل: محل الفسوق والفجور والطيش والحمق والثبور وشرب الدخان والخمور، قلنا: ما سبب اجتماعكم بهذا المحل؟ قال: أوليس لكم خبرة به؟ قلنا: نحن غرباء، فقال هذا أحد القهاوى المشهورة بمراكش، قلنا: وما سبب هذا الدخان الكثيف الذى يظهر من بينهم؟ قال تلك لفائف بأفواههم مدخنة تعرف: بكروا، وقضبان من عود تعرف بأسبابها يشربون منها الدخان الحوزى والأوروبى وهو أخبث من الأول، وقد استكثروا منه وأكبوا عليه رجالا ونساء، بل حتى الصبيان ولم يذعنوا الفتوى مفت بتحريمه وظلوا فى غيهم يعمهون، فقلنا وهل ظهر نفع وقوة فى ذواتهم من ذلك؟. قال كلا، بل هو ضرر محض ونيكال وعذاب معجل، ولو سألتم مدمنيه عما جنوه من ثمره لأنبؤكم أنهم لم ينلهم منه إلا كل داء عياء وضر وبيل من اسوداد الأسنان وقروح الحلق وتكدير اللعاب وخمود فى الأعصاب ورعشة فى الأيدى ودوخة فى الرأس وضعف العينين وفتور فى الذاكرة فضلا عن رائحته الكريهة وضيق الصدر إذا حيل بينهم وبينه، ولا أطيل عليكم فهو شديد المضرة لمتعاطيه ولكن صار لهم عادة، وسلطان العادة لا يقهر، وحكمها لا ينقض.

فقلنا نريد أن نسمع ما يروح بينهم علنًا نستفيد منهم فائدة أو نجتنى من بينهم غلة زائدة.

فقال وأى شيء تستفيدونه من هؤلاء الأغمار فى السر والجهار وهم قوم

صحبهم الحرمان، واستحقوا الذل والهوان، قلوبهم أقسى من الحجر، ونفوسهم بينة الحسد والضجر، شأنهم الغيبة والنميمة، وأفعالهم كلها آثام وجريمة، كلامهم تصحيف وتحريف، وتغيير فى تعريف، زهدهم فى الصلاة شائع فى الجمهور، وسوء عقولهم ذائع مشهور، استحلوا الغيبة فى الأسمار، واحتقروا أولى الفضل والوقار.

سمر العامة فى مجالسهم وخرافاتهم

وبالجملة فمذاكرتهم خرافات، وترهات، وضلالات، وأى شىء تنتظرون سماعه من أناس يفضلون الجلوس على القهاوى، ويبتعدون عن المساجد ومجلس العلم، بل ويتركون منازلهم بدون رقابة، وهذا ما يسبب فساد الأهل والولد، وإن لم تصدقونى فهلموا إلى هنا كى تقفوا على ما ذكرت لكم فتسمعوا كلامًا كله ترهات، فتقدمنا إلى أن التصقنا بحائط القهوة وكانت بها كوات كثيرة يتمكن لنا بها سماع كل ما ينطقون به، فسمعنا رجلا منهم يقول للآخر: احك لنا بعض النوادر وخصوصًا فيما يتعلق بالنساء، فقال: إن ذئبًا قصد بعض القرى وعبث فيها فترصده أهلها حتى صادوه وتشاوروا فى تعذيبه وقتله، فقال بعضهم نقطع يداه ورجلاه وتدق أسنانه ويخلع لسانه، وقال بعضهم بل يصلب ويرشق بالنبال، وقال بعضهم لا، بل توقد نار عظيمة ويلقى فيها، وقال بعض الممتحنين بنسائه لا، بل يزوج وكفى بالتزويج تعذيبًا، ثم قال، وفى هذه القصة يقول الشاعر:

رب ذئب أخذوه وتماروا فى عقابه

ثم قالوا زوجوه وذروه فى عذابه

وقال آخر: جاءت امرأة إلى القاضى مع زوجها تطلب نفقتها منه، فقال

الزوج أيها القاضى هذه مغنية ومتى كانت نياحة فنواحة وليس لى كسب، فقال القاضى للمرأة التزمى نفقنه يا فاعلة، فقالت وهل فى الحكم هذا؟ قال نعم.

وقال آخر جاءت امرأة إلى قاض، وقالت إن زوجى إذا قدمت إليه المائدة قلب الخوان وأكل على ظهرها. فقال القاضى دعيه يأكل كيفما أراد، فقالت إنما عنيت أنه لا يأخذ فى الطريق السوى، فقال دعيه يمشى كيف شاء فالأرض كلها لله، فقالت إنما عنيت أنه يأتينى فى استى يا أحمق، فقال طيب، فقالت قطع الله ظهرك من بين القضاة.

وقال آخر: أراد أعمى أن يتزوج بامرأة فأحضرها مجلس القاضى، فقال كم مهرها؟ قال أربعمائة دانق، فقال للمرأة اكشفى عن وجهك فكشفت، فقال إنها تساوى أكثر من ذلك فإنها صبيحة الوجه، فقال الأعمى إن كان للقاضى زيادة فبارك الله له فيها فإنه أولى بها.

وقال آخر إن رجلا قال لأمرة خطبها والله لأملأن بيتك خيرًا وحرك . . . فتزوجته كما ظنت فلم تجد كذلك، فقالت:

قد رأيناك فما أعجبنا وبلوناك فلم نرض الخير

وقال آخر إن عجوزًا مرضت فأتاها ابنها بطبيب فرآها الطبيب متزينة بأثواب مصبوغة رفيعة فعرف ما بها، فقال الطبيب ما أحوجها إلى زوج فقال الابن ما أحوج العجائز للأزواج، فقالت ويحك الطبيب أعلم منك على كل حال.

وقال آخر: وأنا سمعت أن عجوزًا أرغبت إلى أولادها أن يزوجوها

وكان لها سبعة بنين كلهم صاروا رجالا وقد تزوجوا وولدوا لا إلا أن تصبرى على البرد متعرية لكل واحد منا ليلة ففعلت فلما كانت الليلة السابعة ماتت فسميت أيام العجوز.

وقال آخر: إن امرأة طلبت من أولادها الزواج فلم يوافقوها فأنشدت:

أيا بنى إننى لنا حكه وإن أبيتم إننى لجامحه

هان علكيم ما لقيت البارحة من الحكاك والعروق الطامحه

وقال آخر: تزوج رجل بامرأة قد مات عنها خمسة أزواج فمرض السادس، فقالت إلى من تكلنى؟ قال: إلى السابع الشقى.

وقال آخر: إن رجلا ماتت امرأته وكان عاهدها أن لا يتزوج بعدها فخطب امرأة فى جنازتها فعوتب فى ذلك، فقال:

خطبت كما لو كنت قد مت قبلها لكانت بلا شك لأول خاطب

إذا غاب بعل جاء بعل مكانه ولابد من آت وآخر ذاهب

وقال آخر إن امرأة مات زوجها فراسلها فى ذلك اليوم رجل يخطبها فقالت هلا سبقت، فإنى قد اتفقت مع غيرك، فقال إذا مات الثانى فلا تفوتينى.

وقال آخر: إن رجلا تزوج بامرأة فلما دخل بها وجدها عجوزًا قبيحة المنظر، سيئة الخلق، فقال لها:

امضى إلى سقر فإنك بائن ومطلق وخليعة وحرام

والقول قول أبى حنيفة عندنا إذ ليس فيها رجعة ولمام

وقال آخـر: وأنا سمعت من فـقيه يقـول كان رجل طلق زوجـته ثلاثًا وترافعا إلى القاضى فأخذ القاضى ينظر هل لقوله وجه فى الرد؟، فقال له لا تتعب هى طالقـة عشرين ألف مرة، وإن لم يكفك هذا فهـى طالقة مائة ألف مرة، فقال القاضى قد خففت الأمر علينا.

وقال آخـر: سمعت أحدهم يقـول: قال أبو الشمقـمق لمن أراد التزوج تزوج بقحـبة، فقال مـا هذا؟ فقال اسـمع: القحبـة تكون أملح وأحرى بأن تكون عالمة بما يحبه الرجال ومتى قلت لها يا زانية لم تأثم ثم إنها تجتهد أن لا تأتيك بولد، ثم إنها تعرف أنك تعرفها فلا تتكبر عليك.

وقال آخر: تزوج رجل بامرأة فأتت بولد من ستـة أشهر، فقال ما هذا؟ فقالت بنيت جدارك على أساس غيرك.

وقال آخـر: رأيت رجلا ومعـه ابن لا يشبهـه فقلت له إن ابنك هذا لا يشبهك فقال وهل تدع جيراننا أولادنا تشبهنا.

وقال آخر: دخل رجل على امرأته فـرأى عندها رجلا كانت تعرف به، فقال له الزوج أقلل الاجتـماع، معها، فإن الناس يذكـرونك بها، فقال له لا يجوز لهم ذلك.

وقال آخـر: كان رجل يأتى امرأة، فقـالت له يومًا إن الناس يتهـموننى بك، فقال ما عليك أن تؤجرى ويأثموا.

وقال آخـر: وقع بين رجلين خصـومة، فقـال الرجل أتخاصـمنى وقد عرفت امرأتك كذا وكـذا، فرجع إلى امرأته وقال أتعرفين فـلانًا؟ فقالت أبو فلان فقال: اذهبى فأنت طالق.

وقال آخر: إن غلاما وضيء الوجه استعرض جارية، فعلمت الجارية أنه يدل بحسنه، فقالت له إن كنت يوسف الحسن، وليس معك أير . . لم أعدك إلا شيطانًا مريدًا، أو قردًا عنيدًا.

وقال آخر: تفكرت في شيء: ليس على وجه الأرض رجل إلا يود أن يراه أكبر مما عليه، ولا امرأة إلا تود أن حرها أضيق مما هو عليه ولو أعطى كل واحد طلبته لبطل التناكح، فمنع سؤليهما لطف من الله.

وسمعته أيضًا يقول: كانت امرأة تبكى على قبر، فقيل لها ما كان لك؟ قالت زوجي، وكان والله يجمع بين الجناح والساق، ويهز هز الصارم للأعناق، وقد كذبتك امرأة تبكى لغير ما أخبرتك.

وقال آخر: تزوج رجل بامرأة، فجعل يقبلها ويشمها ويلاعبها، فقالت:

ليس بهذا أمرتني أمي والله لا تمسكني بضمي
ولا بتقبيل ولا بشم إلا بزعزاع يسلي همي
لمثل هذا ولدتني أمي

ثم إن بعضهم التفت لآخر بأزائه وقال له بالله عليك إلا ما ذكرت لنا حكايتك مع زوجتك، فقال لهل دعنى من هذا، فليس المحل محل ما تريد فألح عليه وتوجه إليه كل من كان بالقهوة، وقالوا له لابد أن تبرر قسم الرجل، فلم ينفعه إلا أنه صار يقول . . ولما تزوجت بها ومضت أيام سألتها عمن فض ختامها، هل كان ذلك من وجه حلال أم حرام؟ فأبت فأقسمت عليها بالله العظيم أن تصدقني الخبر، فقالت كنت من الحرائر العابدات

الزاهدات الصائمات، وكنت كثيرة العبادة وتلاوة القرآن وزيارة قبور الصالحين والأولياء، والتردد إلى مجالس العلماء، وكنت من أحسن خلق الله، ولم يكن ببلدى امرأة أحسن منى، فخطبنى خلق من الناس، ومن أكابرهم، فلم أجب أحدًا منهم، فلما كان فى بعض الأيام عزمت على زيارة قبر ولى خارج البلاد، فقصدت أطلب كدشيًا أركب فيه، أو أوتو وبيلا، وإذا برجل قد قدم بها وهى فارغة، فلما رآنى مقلة قال: ما تريدى يا سيدى إن أحببت أن أحملك إلى مكان تختارينه، فعلى الرأس والعين، قالت وغرنى سمته وخشوعه، حتى ظننت أنه من أولياء الله سخرة الله لى ببركة ذلك الولى الذى أردت زيارته، فلما ركبت معه وتوجه وكنت لفرط ما سهرت ليلتى من العبادة والصلاة نعسانة، فغلب على النوم فمنت وغرقت فى النوم، فلما علم بنومى وانفرادى معه فى الأتوموبيل، وشاهد حسنى وجمالى طمع فى وأغراه الشيطان، وأضمر فى نفسه الخيانة والفجور، فخرج بى عن العمارة وأبعد، وطلع بى فى موضع لو أراد أن يقتلنى فيه لوم يشعر بى أحد، ثم قال قومى اصعدى، فانتبهت فرأيت موضعًا أنكرته، فقلت سألتك بالله أين أنا؟ فقال إذا صعدت قلت لك، فعلمت الحال، وتيقنت خيانته، فجعلت أبكى وألطم وجهى وأصيح، فأخرج من وسطه سكينًا، وقال والله إن نطقت بحرف واحد أخرجت أمعاءك، فقلت يا هذا ثيابى كلها ودعنى أمضى، فقال وما أصنع بثيابك؟ وإنما بغيتى أن أتلذذ بك اليوم، فلما سمعت منه ذلك تعوذت بالله من الشيطان الرجيم وخوفته من الله تعالى ووعظته وذكرته أهوال يوم القيامة، فقال هذا ما أسمعه ولا أرجع عنك أبدًا، ومتى يقع لى مثلك فى الزمان كله، فاصعدى حتى أذيقك شيئًا لم تذوقته فى عمرك، ولا تردى رزقًا ساقه القدر إليك، فتعاسرت عليه ولم أجبه إلى ما أراد، فلما رآنى لا ينفع القول فى

وثب إلى وجذبنى بضفائرى، ثم أخرجنى من الأوتومبيل، وأخذنى فى حضنه وألقانى على ظهرى، وكشف أثوابى وفتق سراويلى، وأنا أتخبط من تحته ولا أهنيه، فلما رآنى كذلك نهض إلى الأتومومبيل وأخرج منه حبلا وأتى إلى، فشد به يدى ورجلى، وجعلنى ملحقة مثل الكرة فصحت به ارحمنى لوجه الله الكريم، فلم يرأف بحالى، ولم يخش الله، وكان ما كان .. فقلت: سبحان من أوقعنى اليوم فى يد من لا يرحمنى لعلن الله الزائرة بغير صحبة محرم.

فعند هذا هم الشيخ عبد الهادى بالنهوض ونحن جميعًا فى شدة الألم لما سمعناه من هذه المناكر، فإذا ببعضهم قام إلى وسط المجلس، وقال ارتكونا من هذا، فقد حركتم عندنا ما كان ساكنًا، واذكروا لنا أين وصل الشيخ أكيبرى اليوم فى العنترية، فقال بعضهم لم نحضر اليوم ذلك المجلس البهى، فقال البعض بئس ما فعلتم، ولكن لستم بأهل لسماع هذه القصة التى تزيد القوة قوة، وفى الفكرة استنارة. قالوا فأخبرنا أنت الساعة عنها. قال إنه وصل إلى أن عنترة قد بلغه أن ناحية من نواحى أطرافه، قد أخذت وغلب عليها العدو، فاستخف بها وأظهر الاستهانة به حتى قوى أمر ذلك العدو واشتدت شوكته، فكان إذا أخبر بحاله استخف بأمره وصغر من شأنه، حتى قيل إنه قد زحف إليك، ووجه جيوشه إلى قرار دارك، فقال دعوه فليس أمره بشىء، فلما رأى وزراؤه تهاونه وتراخيه عن أمر عدوه واستهانته به اجتمعوا إله وقالوا: إن تراخى الملك عن عدوه ليس من سياسة الملك ولا تدبير المملكة، وقد قرب هذا العدو من قرار دار الملك، وأمره كل يوم فى علو. فقال دعوه فأنا أعلم بضعفه وصغر شأنه منكم، وأقبل على اللهو واللعب

وترك ما يجب عليه من الصمد لعدوه والقصد له، فلما دنا عدوه منه وأشرف عليه، وخاف الوزراء ورؤساء أهل المملكة إهلاكه، اجتمعوا فتآمروا بينهم على توبيخ الملك وتعنيفه وإعلامه ما قد أشرفوا عليه من البوار والهلكة، وبلغه الخبر فأمر مائتى جارية من جواريه، فلبسن الثياب المصبغة المختلفة الألوان ووضعن على رءوسهن أكاليل التيجان.

وهنا حصل لنا الملل، وضربت بنا تلك الروائح الكريهة الخبيثة، فقمنا وتركناهم فى غيهم يعمهون، وقلنا للرجل الذى استصحبنا فى هذه الجلسة: هل هكذا حالهم كل ليلة؟ قال نعم: وأكثر من هذا، قلنا وهل لهذه القهوة من نظائر بهذه الحضرة المراكشية؟ قال نعم: بكثرة ولعلها تبلغ أكثر من ألف قهوة. ثم ذهبنا نستمطر عليهم اللعنات مما هم منغمسون فيه من الفساد واتباعهم غى الشياطين، وتركهم تعليم الدين.

السمر الليلى غير الشرعى وقبحه وضرره

فبينما نحن فى الطريق. إذ واجهتنا جماعة من الناس جالسة بأزاء حائط. فقلنا ما بالهم؟ فقيل لنا هؤلاء قوم أصحاب الحرف يسمرون جل الليل فى القيل والقال.

فقال الشيخ عبد الهادى: السهر إنما يحمد شرعًا إذا كان منوطًا بالعبادة كتلاوة القرآن وذكر الله تعالى والصلاة على النبى ﷺ. ونحو ذلك من العبادات. أما إذا كان مصحوبًا بلغو الكلام.

وهذيان العوام. كما هو المتعارف فى هذه الأعوام من اجتماع الناس فى السهرات. وتكلمهم بما دب ودرج من أنواع الخرافات. سيما إذا اشتمل على الغيبة والنميمة والبهتان، فلذلك من أقبح القبائح.

والنوم حسن بالنسبة لهم كما قيل: نوم الظالم رحمة: أى للمظلومين، فإن الظالم إذا نام استراح الناس من شره حال نومه، وقلنا إن السهر يحمد شرعًا إذا كان منوطًا بالعبادة ما لم يؤد إلى وهن البدن وضعفه وعدم القيام بما فرض عليه من أداء فرضه، أو ينشأ عن ذلك عدم حضور القلب فى صلاة الصبح أو لا يضبط ما صلى، وهكذا فإن السهر المؤدى إلى ما ذكر لا يجوز شرعًا.

دلالة خلق النساء على خلقهن وعيوبهن وما يستحب وما يمدح فيهن

ثم إن عبد الباسط طلب من الشيخ أن يدنو منهم بحيث لا يشعرون بذلك، فقال لا بأس فدنونا منهم فإذا ببعضهم يقول لآخر أردت التزوج بفلانة بنت فلان، فقال هل رأيتها؟ قال لا. قال فإن لم تتيسر لك رؤيتها فأى فائدة لك فيها؟ قال وأى فائدة فى رؤيتها؟ قال أدنى ما فيها أن تعلم طبيعتها التى بها تعلم هل تصلح لك أم لا؟. قال وكيف السبيل إلى ذلك؟ قال فإن رأيت لسان المرأة رقيقًا فاعلم أنها كثيرة العيوب، وإن كانت كثيرة الضحك فاعلم أنها قريبة الشهوة، وإن كانت قليلة الضحك فاعلم أنها قليلة الحركة وشهوتها بعيدة، وإن كانت زرقة العينين فاعلم أن لها رغبة عظيمة فى الرجال، وإن كان لسانها أبيض فاعلم أن فرجها أصلب، وإن كانت شفتها حمراء فاعلم أن فرجها ليس طيب الرائحة، وإن كانت شفتها بيضاء فاعلم أن فجها خشن غير طيب الرائحة. وإن كان فم المرأة ضيقًا فاعلم أن فرجها ضيق، وإن كانت واسعته فيدل ذلك على سعته وكثرة الماء فيه، فقال له بقيت عليك واحدة. قال ما هى؟ قال أخبرنى عن الأوصاف المحمودة فى النساء.

قال نعم: أجمع أهل المعرفة على أن الذى يحمد من وجه المرأة وبدنها من السواد أربعة أشياء، وهى: شعر رأسها وشعر أجفن عينيها وشعر حاجبيها وسواد ناظريها. ومن البياض أربعة أشياء: بياض لونها وبياض عينيها وبياض أسنانها وبياض مفرقها. ومن الحمرة أربعة أشياء: حمرة اللسان وحمة الشفتين وحمة الوجنتين وحمرة الأليتين. ومن الطول أربعة أشياء: طول العنق وطول القامة وطول الشعر أى شعر الرأس، وطول الحاجب. ومن السعة فى أربعة مواضع: فى الجبهة والعين والصدر وتدوير الوجه. ومن الضيق فى موضع واحد، وهو الفرج ومن الصغر فى أربعة مواضع: فى الفم والكعبين والقدمين والثديين.

وينبغى أن يكون كرسى الركبتين مستويًا والركبة مستوية متشاكلة ويكون القد معتدلا حسن الاعتدال لا قصف مفرط ولا سمن مفرط، ويكون اللحم صلبًا، وأما اللون فيكون. إما بياضًا بحمرة. وإما سمرة بحمرة، وتكون الأطراف حسانا رطبة والروحانية خفيفة، وتكون مليحة الضحك فإنه أول ما تستجلب به المرأة مودة زوجها، ويكون الطرف أدعج، والثغر أفلج، ويكون الحاجب أزج، والكفل مرتج، وتكون رخيمة الكلام شهية النغمة، أن تكون عظامها غائبة فلا يبين منها شىء، ولا عروقها بارزة، ونحيفة الخصر.

فقال له صاحبه ذكرت أوصافًا هى من قبيل المحال، فقال له بل هى موجودة وميسرة فى الغالب لذوى الأموال، ومن جد وجد وربما تملك بها الفقير وحرمها الغنى كما هو مشاهد فى كثير.

ضرب أمثال لحال النساء فى ذلك

ثم قال ومما أثبته التاريخ أن النضيرة بنت الضيزن بن معاوية بن قضاعة وكان ملكًا بين دجلة والفرات أن بنته هذه كانت فى غاية الجمال بحيث إذا نظرها أحد حصل فى عقله خبل وخلل، وكان ينظر إلى مخ عظمها من صفاء بشرتها، وكان أبوها يطعمها مخ العظم وشهد أبكار النحل والزبد ويسقيها الخمر المصفى أربعين مرة.

ونظير هذا الجمال البديع ما حكى أن الإسكندر بلغه أن بأقصى الهند ملكًا عادلا قد أتى عليه مئون من السنين وهو قاهر لطبيعته مميت لشهوات نفسه، فكتب إليه الإسكندر أن يكون تحت طاعته وأن يقدم عليه، فلما ورد الكتاب على ملك الهند كتب جواب الإسكندر بأحسن خطاب وألطف جواب، ولقبه بملك الملوك العادلة، وأعلم الإسكندر فى جوابه أنه قد اجتمع عنده أشياء لم تجتمع عند ملك من ملوك الدنيا، من ذلك ابنة لم تطلع الشمس على أحسن صورة وهيئة منها، ومنها فيلسوف يخبرك عن مرادك من قبل أن تسأله، ومنها طبيب لا تخشى معه من الأدواء والأمراض والعوارض إلا ما جاء من قبل الموت، ومنها قدح إذا ملأته شرب منه عسكرك بجمعه ولا ينقص من القدح شيء. وإنى مهد جميع ذلك إلى ملك الملوك وسائر إليه.

فلما قرأ الإسكندر جوابه وسمع بذكر هذه الأشياء عظم اشتياقه إليها وأرسل إليه جماعة من الحكماء ليختبروه فى ذلك ويخبروه فى السفر إن كان صادقًا فى ذلك ويأتوه بهذه الأربع، فمضى القوم إلى ملك الهند فتلقاهم أحسن لقاء، وأنزلهم أرحب منزل، وأكرمهم أعظم إكرام مدة ثلاثة أيام، فلما

كان اليوم الرابع عقد لهم مجلسًا خاصًا، وأقبل على الحكماء وباحثهم فى أصول الحكمة والفلسفة والعلم الإلهى والمبادى الأول والهيئة والأرض ومساحتها والبحار وغيرها حتى ملأ صدورهم من العلم والحكمة، ثم أخرج أولا: ابنته إليهم وأبرزها عليهم فلم يقع أحدهم على عضو من أعضائها فأمكنه أن يتعدى ببصره عن ذلك العضو إلى غيره وشغله تأمل ذلك العضو وحسن تخطيطه وإتقان صنعه، فخافوا على عقولهم الزوال ثم رجعوا إلى نفوسهم عند سترها وقد اندهشوا، وسير صحبتهم القدح والطبيب والفيلسوف وودعهم مسافة من الأرض بعد أن خيروه فى المقام.

فلما ورد ذلك على الإسكندر أمر بإنزال الطبيب والفيلسوف فى دار الضيافة والإكرام، ونظر إلى الجارية فطاش عقله عند مشاهدتها، وشغف بها وقدمها على سائر حرمه وأهله. ثم بعد مدة امتحن القدح والفيلسوف والطبيب، فوجد الكل على حسب ما ذكر له.

ثم قال له: وأزيدك على هذا أن مما يضرب به المثل فى الجمال الفائق والحسن الكامل، وحلاوة النطق، وطيب النغمة نساء مدينة النوبة وهى مدينة وسط، بينها وبين النيل أربعة أيام. وحكى أنه كان عند الوزير أبى الحسن المعروف بالمصحفى جارية منهن لم ير أكمل منها قدًا، ولا أحسن خلقًا، ولا أملح شكلا، ولا أنعم جسمًا، ولا أحلى منطقًا، ولا أتم محاسن، وكانت إذا تكلمت سحرت الألباب بمنطقها وحلاوة ألفاظها، فاشتراها الصاحب ابن عباد منه بأربعمائة دينار وأحبها حبًا عظيمًا ومدحها فى بعض أشعاره، وقيل عنه أنه قبل مشتراها كانت همته قد ذهبت وشهوته انقطعت فلما اشتراها وضاجعها، انبعثت شهوته، ونهضت همته، وتراجعت قوته لطيب ما وجد عندها.

ثم قال له: وأزيدك على هذا ما ورد: أن امرأة جاءت إلى الحسن البصرى (رضى الله عنه)، وقالت يا أبا الحسن أتفنى الرجال أن يتزوجوا على النساء؟ قال نعم: فقالت أعلى مثلى؟ وكشفت قناعها عن وجه كالقمر. فقال الحسن لما ولت: ما على رجل مثل هذه فى زاوية بيته ما أقبل عليه من الدنيا وما أدبر.

وفى مثل هذا الجمال البديع قيل: أشهى النساء هى التى تخرج من عندها كارهًا، وترجع إليها والها.

ثم قال الرجل: بقيت عليك مسألة واحدة. قال ما هى؟ قال من الأفضل فى النساء الطول أو القصر؟ قال من أراد النجابة، فعليه بالطوال ومن أراد اللذة فبالقصار، وقد قال الحجاج: من تزوج قصيرة فلم يجدها على الموافقة، فعلى مهرها.

ثم قال له: أخبرنى عن الحيل التى تصلح لمن كان سريع الإنزال حالة الوطء، فقال الأصلح له فى ذلك أن يشغل همه عن المرأة بشاغل دنيوى، أو أخرى فإن نفسه حينئذٍ تبرد.

فقال له: أخبرنى عن الحيل التى تهيج المرأة حالة النكاح. قال أن تفرك ثديها، وتكثر من التقبيل، فإن ذلك يهيج شهوتها.

فقال له: أخبرنى عمن تزوج بصغيرة وأراد فض ختامها، وهى لا تشعر ماذا يصنع؟ قال فليأخذ ضرس إنسان، وعظم هدهد من الجانب الأيسر ويصرهما جميعًا فى خرقة، ثم يضع الصرة تحت رأسها حالة نومها ويصنع ما شاء فإنها لا تشعر، وهو من الخواص العجيبة.

فأرادنا النهوض فإذا ببعضهم قال الآخر:

اذكر لنا حكاية الشجعان الماضين فى هذا المجلس تنشيطًا للأسماع، وزيادة فى الأمتاع، فقال سمعت من الفقيه الفلانى يقول: لما مات ملك الفرس أرادوا أن يملكوا عليهم رجلا من آل ساسان، فوفد عليهم بهرام جور، فقال اعمدوا إلى أسدين جائعين، فاطرحوا بينهما تاج الملك، فمن أخذه فهو الملك، ففعلوا فدنا بهرام منهما، فأهويا نحوه، فأخذ برأس أحدهما، فأدناه من رأس الآخر، ثم نطحه به فقتلهما جميعًا وشد على التاج فأخذه ووضعه على رأسه، وملكته الفرس عليهم.

وقال آخر: وأنا سمعت من الفقيه الفلانى لما التقى المستعين بن هود مع الطاغية ابن روميل النصرانى على مدينة وشقة من ثغور بلاد الأندلس وكان العسكران كالمتكافئين كل واحد منهما يقارب عشرين ألف مقاتل راكب وراجل. فحدث من حضر الوقعة من الأجناد. قال لما دنا اللقاء. قال الطاغية لمن يثق بعقله وممارسته للحروب من رجاله: استعلم لى من فى معسكر المسلمين من الشجعان الذى نعرفهم كما يعرفوننا ومن غالب منهم ومن حضر؟ فذهب ثم رجع فقال: فيهم فلان وفلان، فعد سبعة رجال فقال له انظر من فى عسكرى من الرجال المعروفين بالشجاعة ومن غاب منهم؟ فعدهم فوجدهم ثمانية رجال لا يزيدون، فقام الطاغية ضاحكًا مسرورًا وهو يقول: ما أبيضك من يوم: ثم ثارت الحرب بينهم، فلم تزل المضاربة بين الفريقين لم يول أحدهم دبره، ولا تزحزح عن مقامه، حتى فنى أكثر العسكرين ولم يفر واحد منهم، قال: فلما كان وقت العصر نظروا إلينا ساعة. ثم حملوا علينا

حملة وداخلونا مداخلة، فرقوا بيننا وصرنا شطرين وحالوا بيننا وبين أصحابنا فكان ذلك سبب وهننا، ولم تقم الحرب إلا ساعة ونحن فى خسارة معهم. فأشار مقدم العسكر على السلطان أن ينجو بنفسه وانكسر عسكر المسلمين وتفرق جمعهم، وملك العدو مدينة وشقة.

ثم قال: فليعتبر ذو الحزم والصبر من جمع يحتوى على أربعين ألف مقاتل ولم يحضره من الشجعان والمعدودين إلا خمسة عشر نفراً، وليعتبر بضمان العلج بالظفر واستبشاره بالغنيمة لما زاد فى أبطاله رجل واحد.

ثم قال: ونظير هذا ما سمعته من بعض الفقهاء قال: بينما المنصور بن أبى عامر فى بعض غزواته، إذ وقف على نشز من الأرض مرتفع، فرأى جيوش المسلمين من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله قد ملئوا السهل والجبل، فالتفت إلى مقدم العسكر، وهو رجل يعرف بابن المضجعى قال له: كيف هذا العسكر أيها الوزير؟ قال أرى جمعًا كثيرًا وجيشًا واسعًا كبيرًا، فقال له المنصور: ما ترى هل يكون فى هذا الجيش ألف مقاتل من أهل الشجاعة والنجدة والبسالة، فسكت ابن المضجعى، فقال له المنصور. ما سكوتك، أليس فى هذا الجيش ألف مقاتل؟ قال لا، فتعجب المنصور ثم قال: فهل فيهم خمسمائة مقاتل من الأبطال المعدودين؟ قال لا، فغضب المنصور ثم قال: أفيهم مائة رجل من الأبطال؟ قال لا. قال أفيهم خمسون رجلا من الأبطال؟ قال لا قال: فسبه المنصور وأغلظ عليه وأمر به، فأخرج على أسوأ حال، فلما توسطوا بلاد الروم اجتمعت الروم، وتصاف الجمعان، فبرز علج من الروم بين الصفين شاكى السلاح، وجعل يكر ويفر ويقول: هل من مبارز إليه رجل من المسلمين، فتجاولا ساعة، فقتله العلج، ففرح

المشركون وصاحوا، واضطرب المسلمون لها ثم جعل العلج يموج بين الصفين وينادى هل من مبارز اثنين لواحد، فبرز له رجل من المسلمين، فتجاولا ساعة، فقتله العلج، وجعل يكر ويحمل وينادى ويقول: هل من مبارز ثلاثة لواحد، فبرز إليه رجل من المسلمين، فقتله العلج، فصاح المشركون وذل المسلمون، وكادت أن تكون كسرة، فقيل للمنصور ما لها إلا الوزير ابن المضجعى، فبعث إليه فحضر، فقال له المنصور: ألا ترى ما يصنع هذا العلج الكلب منذ اليوم فقال لقد رأيته، فما الذى تريد؟ قال: أريد أن تكفى المسلمين شره. قال الآن يكفى المسلمون شره إن شاء الله تعالى. ثم قصد إلى رجال يعرفهم فاستقلبه رجل من أهل الثغور على فرس تهرت أوراكها هزالا، وهو حامل قربة ماء بين يديه على الفرس، والرجل فى حليته ونفسه غير متصنع، فقال له ابن المضجعى: ألا ترى ما يصنع هذا العلج اليوم. قال قد رأيته، فما الذى تريد؟ قال أريد أن تكفى المسلمين شره. قال حبًا وكرامة، ثم أنه وضع القربة بالأرض وبرز إليه غير مكترث به، فتجاولا ساعة، فلم ير الناس إلا المسلم خارجًا إليهم يركض ولا يدرون ما هناك، وإذا برأس العلج يلعب بها فى يده، ثم ألقى الرأس بين يدى المنصور، فقال له ابن المضجعى: عن هؤلاء الرجال أخبرتك. قال فرد ابن المضجعى إلى منزلته، ونصر الله جيوش المسلمين وعساكر الموحدين.

فقال آخر: وأنا قد سمعت نظير هذه الغزوة من فقيه فى بعض مجالسه أنه كان للعرب فارس يقال له: ابن فتحون، وكان أشجع العرب والعجم فى زمانه، وكان المستعين العباس يكرمه ويعظمه ويجرى له فى كل عطية خمسمائة دينار، وكانت جيوش الكفار تهابه، وتعرف منه الشجاعة وتخشى لقاءه.

فيحكى أن الرومى كان إذا سقى فرسه ولم يشرب يقول له: ويلك لم لا تشرب؟ هل رأيت ابن فتحون فى الماء، فحسده نظراؤه على كثرة العطاء ومنزلته من السلطان، فوشوا به عند المستعين فأبعده ومنعه من عطائه. ثم إن المستعين أنشأ غزوة إلى بلاد الروم. فتقاتل المسلمون والمشركون صفوفًا، ثم برز علج إلى وسط الميدان ونادى وقال: هل من مبارز فبرز إليه فارس من المسلمين، فتجاولا ساعة فقتله الرومى، فصاح المشركون سرورًا، وانكسرت نفوس المسلمين، وجعل الكلب الرومى يجول بين الصفين وينادى: هل من اثنين لواحد، فخرج إليه فارس من المسلمين فقتله الرومى، فصاح الكفار سرورًا وانكسرت نفوس المسلمين، وجعل الكلب يجلو بين الصفين وينادى ويقول ثلاثة لواحد، فلم يجترئ أحد من المسلمين أن يخرج إليه وبقى الناس فى حيرة، فقيل للسلطان ما لها إلا ابن فتحون، فدعاه وتلطف به، وقال له أما ترى ما يصنع هذا العلج، فقال ها هو بعينى. قال فما الحيلة فيه؟ قال الساعة أكفى المسلمين شره، فلبس قميص كتان واستوى على سرج فرسه بلا سلاح، وأخذ بيده سوطًا طويلا، وفى طرفه عقدة معقودة، ثم برز إليه فتعجب منه النصرانى، ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه فلم تخطأ طعنة النصرانى سرج ابن فتحون، وإذا ابن فتحون متعلق برقبة الفرس، ونزل إلى الأرض سالمًا، ثم انقلب فى سرجه وحمل على العلج وضربه بالسوط، فالتوى على عنقه فجذبه بيده من السرج فاقتلعه، وجاء به يجره حتى ألقاه بين يدى المستعين فعلم المستعين أنه كان قد أخطأ فى صنعه مع ابن فتحون، فاعتذر إليه وأكرمه، وكان من أعز الناس إليه.

فالتفت بعضهم للحاكى وقال: اتركنا من هذه الأحلام التى مضت

أوقاتـها وانصـرفت أزمنتهـا، ودعنا نعيش تحت سـيطرة الجبن والرقيـة والذل والمسكنة. وأمثال هـذه القصص فى وقتنا هذا كأقاويل بـاطلة كاذبة، أو كلام لغو لا يفيد شيئًا.

ذكر الغرائب المشرقية

ثم إن بعضهم التفت إلى رجل أشـيب بازائه، وقال نطلب من سيادتك إعادة ذكر ما رأيته فى رحلتك المشرقية من تلك الغرائب فى هذا المجلس.

فـقال هذا شـىء لا يمكننى أن أمليـه عليكم فى هذه الجلسـة الليليـة، فقـالوا: اذكر مـا أمكنك ولو على سبـيل الإجمال، ودعنا مـن تلك الأعذار الواهية العنكبوتية.

قال: دخلـت المشرق وتقلبت فى بلاد العـراق واليمن والهند والـصين وغير ذلك من المدن العظيـمة، ورأيت من أفعال السحرة مـا هو غريب ببابه. رأيت أحدهم يقـيم الأشهر لا يأكل ولا يشـرب وكثيـر منهم تحفر لهم حـفر الأرض وتبنى عليـه فـلا يتـرك له إلا مـوضع يدخل منه الهـواء ويقـيم بهـا الشهور، ومنهم من يقيم كذلك السنة.

وقد كنت عند بعض الأكـابر فدخل عليـه منهم رجلان من هؤلاء وهم يلتحفـون بالملاحف ويغطون رءوسهم لأنهم ينتفونها بالرمـاد كما ينتف الناس آباطهم، فقـال لهما إن هذا رجل مغربـى فأرياه ما لم يره، فقالا نـعم فتربع أحدهما ثم ارتفع عن الأرض حتى صار فى الهواء، فبقى متربعًا وعجبت منه وأدركتنى الوهم، فـسقطت إلى الأرض، فأمـر من كنت عنده أن أسقى دواء عنده فأفقت وقعدت وهو على حاله متـربع، فأخذ صاحبه نعلا له من شكارة كانت مـعه، فضرب بـها الأرض كالمغتـاظ فصعـدت إلى أن علت فوق عنق

المتربع وجعلت تضرب فى عنقه وهو ينزل قليلا قليلا حتى جلس معنا، فقال لى رب المنزل: إن المتربع هو تلميذ صاحب النعل ثم قال لولا أنى أخاف على عقلك لأمرتهم أن يأتوا بأعظم مما رأيت.

ثم قال ورأيت بازاء الجامع من مدينة جرفتن شجرة خضراء ناعمة تشبه أوراقها أوراق التين، إلا أنها لينة وعليها حائط يطيف بها وعندها محراب صليت فيه ركعتين، وأخبرت هنالك أنه إذا كان زمان الخريف من كل سنة تسقط من هذه الشجرة ورقة واحدة بعد أن يستحيل لونها إلى الصفرة ثم إلى الحمرة، ويكون فيها مكتوبا بقلم القدرة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

قال ورأيت ببعض جزائر هذه الأرض امرأة لها ثدى واحد فى صدرها، ولها بنتان: إحداهما كمثلها ذات ثدى واحد، والأخرى ذات ثديين. ورأيت بمدينة كنكار الفيل الأبيض يركبه سطانها فى الأعياد ويجعل على جبهته أحجار الياقوت العظيمة.

ولقد رأيت على جبهته سبعة أحجار كل حجر أعظم من بيضة الدجاجة. ورأيت قرودًا بجبال هناك كثيرة جدًا، وهى سود الألوان، لها أذنان طوال، ولذكورها لحى كما هى للآدميين، وأخبرونى أن هذه القرود لها مقدم تتبعه كأنه سلطان يشد على رأسه عصابة من أوراق الأشجار ويتوكأ على عصى، ويكون عن يمينه ويساره أربعة من القرود لها عصى بأيديها، وأنه إذا جلس القرد المقدم تقف القرود الأربعة على رأسه وتأتى أنثاه وأولاده، فتعقد بين يديه كل يوم، وتأتى القرود فتقعد على بعد منه، وأخبرونى أنه إذا ظفر قرد من قرود هذه الجبال بصبية لا تستطيع الدفاع عن نفسها فيجامعها.

قال وأخبرونى بعض أهل هذه الجزيرة أنه كان بداره قرد منها، فدخلت

بنت له بعض البيوت فدخل عليها، فصاحت به فغلبها. قال ودخلنا عليها وهو بين رجليها فقتلناه.

ثم قال ولما وصلت إلى مدينة الزيتون من الهند، وركبت البحر، وصادفنا ريحا طيبة عشرة أيام فلما قاربنا بلاد طوالسى تغيرت الريح وأظلم الجو، وكثر المطر، وأقمنا عشرة أيام لا نرى الشمس، ثم دخلنا بحرا لا نعرفه وعظم الخوف، وهم أصحاب الوابور وبالرجوع، فلم يتمكنوا من ذلك، وأقمنا اثنين وأربعين يوما لا نعرف فى أى البحار نحن.

ولما كان اليوم الثالث والأربعين ظهر لنا بعد طلوع الفجر جبل فى البحر بيننا وبينه نحو عشرين ميلا، والريح تحملنا إلى قربه فعجب البحرية، وقالوا لسنا بقرب من البر ولا يعهد فى البحر جبل، وإن اضطرتنا الريح إليه هلكنا، فلجأ الناس إلى التضرع والإخلاص، وجددوا التوبة وابتهلنا إلى الله بالدعاء، وتوسلنا بنبيه ﷺ.

ثم إن الريح سكن بعض سكون ورأينا ذلك الجبل عند طلوع الشمس قد ارتفع فى الهواء وظهر الضوء فيما بينه وبين البحر فعجبنا من ذلك. ورأينا البحرية يبكون ويودع بعضهم بعضًا. فقلت ما شأنكم، فقالوا إن الذى تخيلناه جبلا هو الرخ الطائر المعروف وإن رآنا أهلكنا وبيننا إذ ذلك وبينه أقل من عشرة أميال. ثم إن الله تعالى غيبنا عنه فلم يرنا ولن نره، ولا عرفنا حقيقة صورته.

وسمعنا لما كنا ببلخ أن امرأة كان زوجها أميرًا بها، فاتفق أن الخليفة غضب مرة على أهل بلخ لحادث أحدثوه، فبعث إليهم من يغرمهم مغرمًا فادحًا، فلما بلبغ إلى بلخ أتى نساؤها وصبيانها إلى تلك المرأة، وشكوا

حاهلم وما لحقهم من هذا المغرم، فبعثت إلى الأمير الذى قدم برسم تغريمهم بثوب لها مرصع بالجواهر قيمته أكثر من ذلك.

ولما كنت بمدينة بركى أخبرونى عن جارية سلطانها أن لها خاصية عجيبة والسلطان يحبها لأجل ذلك محبة عظيمة، وهى أنه يجدها كل ليلة كأنها بكر، وأن رحمها شبيه بالحلقة فى الحلقة.

قال ورأيت بمدينة دولة آباد يخرج من قلعتها فيران ضخام أعظم من القطط والقطط تهرب منها، ولما وصلت بعض الجزائر من جزائر ذبيبة المهل رأيت شجر النارجيل وشأنها عجيب، وتثمر النخلة منها اثنى عشر عذقًا فى السنة يخرج فى كل شهر عذق، فيكون بعضها صغيرًا، وبعضها كبيرًا، وبعضها يابسًا وبعضها أخضر هكذا أبدا، ويصنعون منه الحليب والزيت والعسل، ويصنعون من عسله الحلواء، وفى هذه الجزائر سمك له قوة عجيبة فى الباه لا نظير لها، فيمكن لمن أكل منه شيئًا أن يقطع ليله أو يومه فى النكاح.

قال ولما كنت بالصين أخبرونى أنه كان شيخ بها قد أناف على مائتى سنة، وأنه لا يأكل ولا يشرب، ولا يحدث، ولا يباشر النساء مع قوته التامة، وأنه ساكن فى غار بخارجها يتعبد فيه، وكان نحيفًا شديد الحمرة عليه أثر العبادة.

قال ولما كنت فى ضيافة بدار أمير من أمراء مصر، قد حضر أحد أصحاب الشعوذة من السحرة، فقال له الأمير أرنا من عجائبك، فأخذ كرة خشب لها ثقب فيها سيور طوال، فرمى بها إلى الهواء فارتفعت حتى غابت عن الأبصار، فلما لم يبق من السير فى يده إلا يسير أمر معلمًا له فتعلق

بالسير وصعد فى الهواء إلى أن غاب عن أبصارنا، فدعاه فلم يجبه ثلاثًا، فأخذ سكينًا بيده كالمغتاظ وتعلق بالسير إلى أن غاب أيضًا، ثم رمى بيد الصبى إلى الأرض، ثم رمى برجله، ثم بيده الأخرى، ثم برجله الأخرى، ثم بجسده، ثم برأسه، ثم هبط ينفخ وثيابه ملطخة بالدم ثم إنه قبل الأرض بين يدى الأمير وكلمه بالصينى وأمر له الأمير بشىء، ثم إنه أخذ أعضاء الصبى فألصق بعضها ببعض وركضه برجله فقام سويًا فعجبت منه وأصابنى خفقان فى القلب.

وسمعت لما كنت ببلاد المشرق أن هناك جبلا عاتيًا ذا مدارج لا يستطاع الصعود إليه فإذا كانت أيام النيسان أتت الرفاق من أقصى البلاد وتنزل حواليه لتصغى لأصوات طيور تظهر فى تلك المدارج ولها ريش كريش الطاووس ومناقر حمر وصفر فى غلظ شبر وطول ذراع، وفى تلك المناقير أنخاش متعددة تستقبل الريح وتفتح مناقيرها شهرًا كاملا حتى تملأ حواصلها ريحًا ثم تأخذ فى انعكاس مناقيرها فيخرج الريح على أصوات عجيبة ونغمة مطربة حتى أن رقيق النفس يموت طربًا من السماع فإذا تم شهر استفرغ لريح وزعقت زعقة عظيمة واشتعلت نارًا وتبقى رمادًا فى مواضعها إلى عام قابل، فإذا نزل ماء النيسان خلقت منه فأحييت به.

وهناك سمعت من بعض الناس أن ملكًا رأى شخصًا قد وثب وثبة عظيمة على نهر فتخطاه والشاب يعجز عن ذلك فعجب منه فاستحضره فحادثه فى ذلك فأراه ألف دينار مربوطة على وسطه.

ولما حللت بعسقلان رأيت من عجائبها البئر الذى فيها وعمقه يزيد على مائة قامة وله درج من أعلاه إلى أسفله يدور حوله كدور أدراج الصومعة،

ولها ستائر مبنية من الرخام لئلا يسقط أحد مهـا، ولها فى الستائر أبواب فى كل باب خمسة رجال قيام، فإذا جاء من له حبل قدر قامة استسقى منه، ومن كان له حبل قدر عشرة استسقى منه، ومن لم يكن له حبل استسقى منه، وهذا البئر من بنيان حكماء اليونان، وهو أحد عجائب الدنيا.

وسمعت عن مدينة طليطلة أن موضعًا بها فيه تراب ينبت كما ينبت الربيع يؤخذ هذا التراب ويخلط بالدقيق ويعجن منه ويخمر ويطبخ ويؤكل وكأنه لا فرق بينه وبين الدقيق.

وأخبرونى أن بمدينة مصر مغارات وأن ناسًا دخلوا لها فبلغوا إلى باب من حديد قد طلى بالذهب لا تغيره الأيام، وعليه طلسم واقف بيده سيف فى طول أربعة أذرع وعرض ذراع فاحتالوا عليه حتى سقط الطلسم، فلما أقبلوا إلى الباب إذا بنبل ترشقهم من خلفهم فصنعوا لها وقاية، فلما فتحوا الباب إذا بقصر تحت الأرض فيه مراتب على كل مرتبة شخص من بنى آدم غير أنهم أموات قد يبست جلودهم على عظامهم يحسبهم الناظر أحياء مدهون كل واحد منهم بدهن رائحته كرائحة المسك، وفيما بينهم سرير عظيم من الذهب الأحمر عليه شخص من بنى آدم على رأسه تاج مكلل بالياقوت والزمرد والدر، وعلى كل واحد من تلك الشخوص قلائد من الجوهر وستر من الذهب وخواتم مكللة، فأخرج كل واحد من هؤلاء الداخلين قدر ما يحمله، فلما خرجوا من الباب ضلوا عن الطريق وتاه بعضهم عن بعض وطفئت المصابيح التى كانت بيد بعضهم فهلك أكثرهم ونجا البعض وخرج بما عنده وأخبر بكل ما رآه.

قال ولا زال الناس يسلكون تلك المغارات ويخرجون أنواعًا من اليواقيت والجواهر إلا أنه قل من يسلم منهم.

قال وأخبرونى أن بقرب مصر: البئر المعطلة والقصر المشيد، وهما من عجائب الأرض، وبينهما وبين مصر مسافة سبعة أيام على طريق الحبشة.

ومن عجائب هذا البئر أنه إذا وصل إليه أحد على البعد رأى ماء هذا البئر قد فاض وارتفع نحو العشرين ذراعًا من كل ناحية، فإذا قرب من الماء بقدر عشرين ذراعًا انقبض الماء فما مشى إليه انقبض حتى يصير إلى فم البئر فإن بلغ الماشى إلى فم البئر وأراد أن يأخذ من ذلك شيئًا هبط الماء، فإن دلى دلوًا هبط الماء إلى قعر البئر ولو كان الحبل من ألفى ذراع لم يبلغ الماء وكلما خرج الدلو خرج الماء حتى يخرج الدلو على فم البئر، وإذا زال الرجل عن فم البئر خرج الماء وكلما بعد خرج الماء حتى يعود بها فيه تراب ينبت كما ينبت الربيع يؤخذ هذا التراب ويخلط بالدقيق ويعجن منه ويخمر ويطبخ ويؤكل وكأنه لا فرق بينه وبين الدقيق.

وأخبرونى أن بمدينة مصر مغارات وأن ناسًا دخلوا لها فبلغوا إلى باب من حديد قد طلى بالذهب لا تغيره الأيام، وعليه طلسم واقف بيده سيف فى طول أربعة أذرع وعرض ذراع فاحتالوا عليه حتى سقط الطلسم، فلما أقبلوا إلى الباب إذا بنبل ترشقهم من خلفهم فصنعوا لها وقاية، فلما فتحوا الباب إذا بقصر تحت الأرض فيه مراتب على كل مرتبة شخص من بنى آدم غير أنهم أموات قد يبست جلودهم على عظامهم يحسبهم الناظر أحياء مدهون كل واحد منهم بدهن رائحته كرائحة المسك، وفيما بينهم سرير عظيم من الذهب الأحمر عليه شخص من بنى آدم على رأسه تاج مكلل بالياقوت والزمرد والدر، وعلى كل واحد من تلك الشخوص قلائد من الجوهر وستر من الذهب وخواتم مكللة، فأخرج كل واحد من هؤلاء الداخلين قدر ما يحمله،

فلمـا خرجوا من البـاب ضلوا عن الطريق وتاه بعـضهم عن بعض وطفـئت المصابيح التى كـانت بيد بعضهم فـهلك أكثرهم ونجا البـعض وخرج بما عنده وأخبر بكل ما رآه.

قال ولا زال الناس يسلكون تلك المغارات ويخرجون أنواعًا من اليواقيت والجواهر إلا أنه قل من يسلم منهم.

قال وأخبرونى أن بقرب مصر: البـئر المعطلة والقصر المشيد، وهما من عجائب الأرض، وبينهما وبين مصر مسافة سبعة أيام على طريق الحبشة.

ومن عجائب هذا البـئر أنه إذا وصل إليه أحد على البـعد رأى ماء هذا البئر قد فـاض وارتفع نحو العشرين ذراعًا من كل ناحـية، فإذا قرب من الماء بقدر عشرين ذراعًا انقبض الماء فما مـشى إليه انقبض حتى يصير إلى فم البئر فإن بلغ الماشى إلى فم البئر وأراد أن يأخـذ من ذلك شيئًا هبط الماء، فإن دلى دلوًا هبط الماء إلى قعر البئـر ولو كان الحبل من ألفى ذراع لم يبلغ الماء وكلما خرج الدلو خـرج الماء حتى يخرج الدلو على فم البـئر، وإذا زال الرجل عن فم البئر خرج الماء وكلما بعد خـرج الماء حتى يعود إلى حده الأول، فإن كان أحد راكبًا على حصان من الخيل الجياد وهو يسرع إلى الماء انقبض الماء وأسرع كلمح البصر، وهذه إحدى عجائب الأرض.

وكذلـك القصـر المشيـد فى جنب هذا البئـر على قدر رمى الـقوس أو نحوها، وهذا القصر طوله على الأرض مائة ذراع وعرضه مثل ذلك وارتفاعه فى الهواء مـائة وعشرون ذراعًـا وفى رأسه خمـسمائة شـرافة، وله درج من خارجه فى الجانب الغربى، وعدد تلك الأدراج مائة وخمسون درجة وليس له باب. ولا يعلم أحد بمـا هو مبنى به ولا يظهر فـيه عـمود ولا لَبنة ولا جص

ولا غير ذلك من آلات البناء إلا لوح مثل الرخام الأبيض مكتوب فيه بالقلم السريانى هذا الشعر:

بنينا وشيدنا فمن كان مثلنا فيلهدم ما بنينا والهدم أسرع من البناء

ولو اجتمع أهل الأرض على أن يهدموا منه شيئًا ما قدروا على ذلك.

ومن عجائب هذا القصر أنه إذا طلع أحد على تلك الأدراج وأشرف على القصر ونظر ما فى جوفه صاح صيحة ووقع فيه ولا يرى أبدًا.

وقد تعرض أقوام إلى الطلوع إلى هذا القصر وتقدم أحدهم وربطه أصحابه بشرائط القنب الجيد وحبسوه بها، فلما أشرف على القصر هم أن يترامى فيه فجذبه أصحابه بتلك الشرائط فما زال يتجاذب وهم يسحبونه فصاح صيحة ومات، ولا يعلم أحد ما فى جوف هذا القصر.

قال ولما كنت بأرض بابل أخبرونى أنه توجد فى هذه الأرض أفاعى ذات قرون فى رءوسها كل قرن أقل من نصف شبر.

وفى هذه الأرض يوجد النسناس، وهو على هيئة نصف ابن آدم له يد واحدة ورجل واحدة ونصف جسم، وهذا الحيوان يتكلم وينطق بلغة أهل تلك البلاد، وقد يصيده أهل هذه البلاد ويأكلونه ويخرجون إليه بالخيل السباق، وقلمًا يلحقونه.

ويحكى أن هذه الأرض كانت فيها جارية عجيبة الخلقة لها رأسان وجسد واحد وهى تأكل وتشرب بفمين، وتتكلم بواحد حينًا، وبالثانى حينًا وربما تكلمت باثنين فى حالة واحدة.

وفى هذه الأرض نهر يقال له وادى السبت وعلى ضفتيه نخلتان إذا كان

يوم الجمعة بعد صلاة العصر تبدو كل نخلة منهما تميل نحو صاحبتها فلا يصبح الصباح من يوم السبت إلا وهما متعانقان فيجاز عليهما وهما كذلك إلى وقت صلاة العصر من يوم السبت فتبدأ تتفرق كل واحدة من صاحبتها فلا يصبح صباح يوم الأحد إلا وكل واحدة منهما واقفة فى موضعها كأنها ما برحت، وهذان النخلتان إحداهما فى ناحية المشرق والأخرى فى ناحية المغرب، وهذه عادتهما فى كل يوم سبت على طول الدهر.

وسمعت لما وصلت إلى همدان أن البئر الذى نزل عليه الإسكندر وأغمى عليه فيه، فأرسل إلى أرسطا الحكيم وأعلمه بذلك، فكتب له أن تضع مرآة وتجعلها على فم البئر وكلما أظلمت تمسح إلى أن تبقى على هيئتها، فإذا بقيت مصقولة فانظر حينئذٍ إلى ما فى قعر البئر، ففعل الإسكندر وجعل المرآة على فم البئر مدة سبعة أيام، وهى فى كل يوم ترفع سوداء، فلما كان اليوم الثامن رفعت وهى مصقولة كما كانت أولا فأمر أن ينظر فى قعر البئر فلم يقدر أحد أن يقدم على ذلك، فأمر ببعض الحيوانات أن تقف على البئر فنظر الحيوان إلى قعر البئر فلم يصبه شىء، وكان قبل ذلك لا ينظر فيه إنسان من بنى آدم ولا من غيره إلا مات من ساعته، فلما رأى ذلك لم يضره شىء أمر أن ينظر فى قعر البئر، فنظروا فإذا فى قعرها حية مدورة كدورة الرحى العظيمة وفى وسطها عين واحدة كعين الرحى، فأمر بإخراجها فأخرجت، فلما نظر إليها وتعجب من خلقها كتب إلى أرسطا الحكيم فأجابه أن تلك الحية سمها فى حدقتها فمن رأى حدقتها مات، فلما رأت هى نفسها فى المرآة انعكس عليها سمها وماتت به.

قال وأخبرونى عن أهل مدينة آذربيجان أن بها قومًا من العجم أهل

رفاهية ونخوة يلبسون ثياب الحرير ويعملون العمائم من الذهب ولهم لحاء طوال بضفرونها كشعر النساء، تبلغ لحية الرجل منهم إلى بطنه وربما بلغت إلى سرته.

ومن عجائب هؤلاء القوم أنهم يرمون بالأقواس العربية رمية لا يرمى بها أحد غيرهم.

ومن عجائب رميهم أنهم يرمون كورة فى الهواء ويرمونها بالنبال فلا تقع فى الأرض سليمة، ويجتمعون فى بعض الأوقات نحو الأربعين رجلا فأزيد أو أقل فيجذب كل واحد منهم قوسه ويجعل فيه سهمه ثم يرمون لهم كورة فى الهواء فلا يبقى منهم أحد إلا يصيبها بسهمه قبل أن تقع فى الأرض، والرجل المحسن الرماية منهم يركب على أسرع ما يكون من الخيل العتاق ويجرى عليه أشد ما يكون من الجرى فيجعل السهم فى قوسه فى تلك الحالة ويرمى به الطائر فلا يتخطاه.

ولما وصلت إلى بلاد فلسطين أخبرونى أن بقربها أرضًا بها قوم وجوههم كوجوه الكلاب، وأخبرونى أن فى مدينة المرية رجلا من الأتراك من مدينة التبت كانت فى كتفيه مما يلى ظهره نهدان مثل نهد المرأة يحلب منهما لبنا كلبن المرأة.

وكان من عجائب هذا الرجل أن يأخذ بأطراف أصابع قدمه أرق ما يكون من أخياط الحرير وغيره، وكان يأخذ بأصابع قدمه الثانى أصغر ما يكون من الإبر فيدخل الخيط فى عينها برجله الأولى (فتبارك الله أحسن الخالقين).

وأخبرونى عن أهل هذه الأرض التى هى مدينة التبت أن أحدهم يوقف إبرة على الثانية بيده والرمح الطويل على الثانى سنًا على سن.

وأخبرونى أن الرجل منهم يركب على فرسه ويجرى به أشد الجرى وفى يده صحفة من ماء مملوءة فلا يهرق منها نقطة.

وأن منهم من يجعل على رأسه آنية قاعها كدائرة الدينار ترفع على رأسه، ثم يجل عينها من الأثقال ما يفتح عشرة أشبار فيدور بها فى الأرض قائمًا وقاعدًا ولا تتحرك ولا تقع من على رأسه وعند هؤلاء الأتراك من هذا كل أمر عجيب.

قال: ولما وصلت إلى البحر الأخضر وهو الذى بين الصين والهند من جزائر جزيرة الطرب، هى جزيرة دورها فى البحر مائة فرسخ قد ارتفعت على البحر من كل ناحية كالعمود ولا يستطيع أحد الصعود إليها لأنها مرتفعة فى الهواء أكثر من مائتى ذراع، قد نزلت ثمارها وأشجارها على حافتيها واشتبكت بعضه ببعض، ويسمع من قرب منا فى البحر أنواعًا من الملاهى مثل آلة الطرب بأصوات مختلفة فلا يقدر أحد ممن يسمع ذلك أن يبرح من حول هذه الجزيرة لشدة الفرح والطرب، وكذلك يسمع فيها فى بعض الأحيان صوت عظيم كصوت الرعد القاصف تفزع منه النفوس وتكاد تذهل منه العقول، فإذا سمع ذلك أهل الصين أيقنوا بموت ملكهم أو أحد عظمائهم، وحول هذه الجزيرة حيتان لها آذان وأجنحة كأجنحة الطيور ولا رءوس وأعناق مثل الآدمى على صفة النساء، ولهن شعور تلعب على الماء وترنم بأصوات مختلفة يخشع السامع من لذيذ أصواتها. وربما أخذه البلاء من ذلك. قال: ولما أردت القفول من المشرق صحبة جماعة من الناس فألجأنا المطر إلى أن نمنا

فى مغارة وكنت فى جماعة، فبينما أنا نائم إذا بشىء يوقظنى فانتبهت فإذا أنا بامرأة وسط من النساء لها عين واحدة مشقوقة فى الطول فارتعدت، فقالت ما عليك بأس إنما أتيتك لأزوجك بابنة لى مثل القمر، فقلت لخوفى منها رضيت بها. ثم نظرت فإذا برجال قد أقبلوا فنظرتهم فإذا هم كهيئة المرأة التى أتتنى عيونهم مشقوقة بالطول فى هيئة قاض وشهود فخطب القاضى وعقد، فقلت ونهضوا وعادت المرأة ومعها جارية حسناء إلا أن عينها مثل عين أمها وتركتها عندى وانصرفت، فزاد خوفى واستيحاشى وبقيت أرمى من كان عندى بالحجارة حتى يستيقظوا فما انتبه أحد منهم، ثم آن الرحيل فرحنا وتلك الشابة لا تفارقنى فمرت على ثلاثة أيام على هذا، فلما كان اليوم الرابع أتتنى المرأة وقالت: كأن هذه الشابة ما أعجبتك وكأنك تحب فراقها فقلت: إى والله، فقالت طلقها فطلقتها فانصرفت بها ثم لم أرها بعد، ثم قال ومما قاسيته فى سفرى هذا أننى مضيت مع رفيق لى فى بعض الأسفار ونفد ما عندنا من الماء والطعام فمشينا ثلاثة أيام لم نأكل ولم نشرب فلما كان المساء صلينا وألقينا بأنفسنا، فلما أصبحنا فى اليوم الرابع جعلنا نمشى على قدر طاقتنا فسقط صاحبى مغشيًا عليه فحركته وهو لا يعقل ثم تركته ومشيت قدر فراسخ على أن أظفر بشىء نقتات به وضعفت وسقطت مغشيًا على إلى أن رآنا قوم من بعيد فقربوا سفينتهم من البر ونزلوا فجاءوا إلى وسقونى وأخذوا بيدى، فقلت لهم الحقوا رفيقًا لى فذهبوا حتى وصلوا إليه وسقوه وأطعموه وجاءوا به إلى ثم أركبونا معهم إلى أن أوصلونا إلى المدينة يقال لها راية فأنزلونا وزودونا وتركونا هناك.

عجائب السودان

فقال له أخبرنا عما شاهدته من عجائب السودان. قال سمعت من بعضهم أن جزيرة من جزائر البحر القريب منه بها شجر عظيم الخلقة طول الشجرة مائتا ذراع، ودور ساقها مائة وعشرون ذراعًا، وبهذه الجزيرة طوائف من السودان عرايا يلتحفون بورق الشجر، وشاهدت لأهل السودان عادات غريبة حتى فى مآكلها وملابسها وزينتها وأفراحها فمن غريب عادات التوارك سكان الصحراء الأفريقية أنهم يزينون رءوسهم بالريش ويتحلون بالقلائد المنظومة أو أسنان الكلاب ويثقبون أعلى أرنبة الأنف. أى طرفه ويدخلون فيها قلمًا أو عظمًا أو صدفة، ولو رأيتهم فى تلك الحالة لرأيت مسخًا معجلا، فقالوا له أخبرنا عن أعجب ما سمعت من الحكايات أو شاهدتها فى سفرك هذا، فقال شيء كبير، فقالوا له قل ما تيسر قال إن خارجيًا خرج على ملك الهند فأنفذ إليه الجيوش فطلب الأمان فأمنه فسار الخارجى إلى الملك فلما قرب من بلد الملك أمر الملك الجيش بالخروج إلى لقائه فخرج الجيش بآلات الحرب وخرجت العامة تنتظر دخوله فلما أبعدوا فى الصحراء وقف الناس ينتظرون قدوم الرجل فأقبل وهو راجل فى عدة رجال وعليه ثوب ديباج ومئزر فى وسطه جربا على زى القوم فتلقوه بالإكراه ومشوا معه حتى انتهى إلى فيلة عظيمة قد أخرجت للزينة وعليها الفيالون وفيها فيل عظيم يختصه الملك لنفسه ويركبه فى بعض لأوقات، فقال له الفيال لما قرب منه تنح عن طريق فيل عظيم يبد له جوابًا فعاد عليه القول فلم يبد له جوابًا، فقال له يا هذا احذر على نفسك وتنح عن طريق فيل الملك، فقال له الخارجى قل لفيل الملك يتنحى عن طريق فغضب الفيال وأغرى الفيل به بكلام كلمه به فغضب

الفيل وعدا إلى الخارجى ولف خرطومه عليه ورفعه الفيل رفعًا عظيمًا والناس يرون ثم خبط به الأرض فإذا هو قد وقع منتصبًا على قدميه قابضًا على خرطوم الفيل فزاد غضب الفيل فرفعه الثانية أعظم من الأولى ثم رمى به الأرض فإذا هو قد حصل مستويًا على قدميه منتصبًا قابضًا على الخرطوم، ولم ينح يده عنه فرفعه الفيل الثالثة وفعل به مثل ذلك فحصل على الأرض منتصبًا قابضًا على الخرطوم وسقط الفيل ميتًا لأن قبضه على الخرطوم تلك المدة منعه من التنفس فقتله، فأخبر الملك بذلك فأمر بقتله، فقال له بعض وزرائه يجب أيها الملك أن يستبقى مثل هذا ولا يقتل فإن فيه جمالا للمملكة، ويقال أن للملك خادمًا قتل فيلا بقوته وحيله من غير سلاح فعفا عنه واستبقاه.

ومما سمعته هناك وأنبته التاريخ أن عمرو بن يكرب (رضى الله عنه) حمل يوم القادسية على رستم، وهو الذى كان قدمه يزدجر ملك الفرس يوم القادسية لقتال المسلمين، فاستقبل عمرو المذكور رستم، وكان رستم على فيل عظيم فقطع عمرو قوائمه بضربة واحدة فسقط رستم وسقط الفيل عليه مع خرج كان فيه أربعون ألف دينار فقتل رستم وانهزمت العجم، وهذه الضربة لم يسمع بمثلها فى الجاهلية ولا فى الإسلام. ثم إن الروم حملت القوائم المذكورة وعلقوها فى كنيسة لهم، فكانوا إذا عبروا بانهزام يقولون لقينا قومًا هذه ضربتهم فيترحل أبطال ليروها ويتعجبوا من ذلك.

قال وأخبرونى عن الحسن البصرى أنه قال: ما ظننت أن رجلا يفضل ألفا حتى رأيت عباد بن الحصين (رضى الله عنه)، أنه حاصر مدينة كابل فثلمها، وكان يقاتل عليها ألف مقاتل فقالتهم وحده ليله حتى أصبحوا

ومنعهم من حفظها وسدها، فلما كان الغد وبرزوا حمل على ألف فارس مردف فانتظمهم. قال وسمعت من بعضهم يقول إن عليًا كرم الله وجهه قيل له أتقاتل أهل الشام بالغداوة وتظهر فى العشى فى ثوب ورداء، فقال أبالموت أخوف، والله ما أبالى أسقطت على الموت أم سقط الموت على.

وسمعت منه أيضًا يقول: روى عطاء بن السائب عن يعلى بن مرة قال: اجتمعنا مع نفر من أصحاب على كرم الله وجهه، فقلنا لو حرمنا أمير المؤمنين فإنه محارب ولا نأمن عليه أن يغتال، فبينما نحن عند باب حجرته حتى خرج للصلاة، فقال ما شأنكم؟ فقلنا حرسناك يا أمير المؤمنين لأنك محارب وخشينا أن تغتال، فقال أفمن أهل السماء حرستمونى أم من أهل الأرض؟ قالوا بل من أهل الأرض، فكيف نستطيع أن نحرسك من أهل السماء؟ قال فإنه فى الأرض شىء حتى يقدره الله فى السماء وليس من أحد إلا وقد وكل به ملكان يدفعان عنه شىء يجىء قدره، فإذا جاء قدره خليا بينه وبين قدره، ثم سكت، قالوا له زدنا واذكر لنا الأغرب فالأغرب. قال سمعت من بعض فقهاء المشرق: أن رجلا أتى عمر بن الخطاب يستحمله، فقال له خذ لك بعيرًا فأخذ بذنب بعير من إبل الصدقة فجذبه فاقتلعه فتعجب من قوته، وقال هل رأيت أقوى منك؟ قال نعم خرجت بامرأة من أهلى أريد بها زوجها فنزلنا منزلا أهله خلوف فأقبل رجل ومعه ذود: أى إبل فضرب إلى الحوض فساورها فنادتنى فما انتهيت إليها حتى خالطها فجئت لأدفعه عنها فأخذ برأسى بين جنبيه وعضده فما استطعت حراكًا حتى قضى حاجته من المرأة، ثم استلقى على قفاه، فقالت المرأة: أى فحل هذا لو كان لنا منه سخلة فأمهلته حتى امتلأ نومًا فقمت إليه بالسيف فضربت ساقه فابنتها فأنتبه

فتناول رجله فرمانى بهـا فأشوانى وأصاب رأس بعيرى فقتله، فـقال عمر: ما فعلت المرأة، فقال هذا حـديث الرجل، فكرر السؤال عليه فلم يزده على هذا فظن أنه قتلها.

قال وسمعت منه أيضًا أن الوليـد كان شديد القوة، وكان يؤتى بسلسلة من حديد وفيهـا حبل فيشده فى رجله ويؤتى بالدابة فيثب عليـها وثبة واحدة ولا يمسـها بيده فـيقطع السلسلة، فقـال لأصحابه يومًـا هل تعلمون من هو أسرع منى؟ قالوا نعم رجل بخراسان فأحضره، وقال: أريد أن تصارعنى وإن حابيتنى قتلتك فصارعته فحـمله ووضعه فوق دسته، وقال أنت ها هنا أحسن دع رعيتك يتصارعون بين يديك، ولا تدخل معهم فيما لك عنه مندوحة.

وحدثنى بعضهم أن امرأة تزوجت على كبر سنها فتى فقام ابن لها كهل فمشى إلى مروان بن الحكم وهو والى المدينة وقال: إن أمى السفيهة على كبر سنهـا وسنى تزوجت شـابًا فى مقـتـبل السن فصـيـرتنى ونفسـهـا حديثًـا، فاسـتحضـرها مروان وابنها فـلم تكترث لقوله، ولكنهـا التفـتت إلى ابنها، وقـالت: يا برذعـة الحمـار، أمـا رأيت ذلك الشـاب المقدود الـعنطنط والله ليصرعن أمك بـين الباب والطاق، فليشفـين غليلها ولتخرجن نفـسها دونه، ولوددت أنه ضب وأنى ضبية، وقد وجدنا خلاء.

وسمعت منه أن امرأة كانت فاجرة فى شـبابها حتى عجزت، ثم قادت حتى أقعدت، ثم اتخذت تيسًا فسئلت عن ذلك فقالت: إنى أرتاح به على ما بى من الهـرم. سئلت من أنكح الناس فـقالت الأعـمى، فبلغ بعض العـمى ذلك، فقال قالتها الله من عالمة بأسباب الطروقة.

قال وسمـعت من بعضهم أن رجلا بينمـا هو يستقى وبيته تلقـاء وجهه

فنظر فإذا هو برجل معانق امرأته يقبلها فأخذ العصا وأقبل مسرعًا لا يشك فيم رأى، فلما رأته امرأته جعلت الرجل فى خالفة البيت بين الخالفة والمتاع، فنظر يمينًا وشمالا فلم ير شيئًا وخرج فنظر فى الأرض فلم ير شيئًا فكذب بصره، فقالت المرأة كأنها تريد أنها قد استنكرت أمره ما دهاك يا فلان؟ أرعبك شيء؟ فكتمها الذى رأى ومضى لحاجته، فلما كان فى الورد الثانى قالت: يا فلان هل لك أن أكفيك السقى وتودع اليوم فإنى قد أشفقت عليك؟ قال نعم إن شئت، فأقام فى المنزل فانطلقت تسقى وتحينت منه غفلة، فأخذت العصا، ثم أقبلت نحوه فضربت رأسه بالعصا فقال ويلك ما لك وما دهاك. قالت وما دهانى يا فاسق: أين المرأة التى رأيتها معك تعانقك؟ فقال لا والله ما كانت عندى امرأة وما عانقت اليوم امرأة، قالت بلى أنا نظرت إليها بعينى وأنا على الماء ثم أمسك عن الكلام.

تقبيح لغو العامة وزجرهم عنه وحثهم على طلب العلم

فقالوا زدنا، فقام من المجلس وقال: ما أجهل العامة وما أبخس عقولها! زدنا زدنا، فلو كان يرغبكم فى وظائف الخيرات ونوافل العبادات، ويقرعكم عن تضييع الأوقات وتفويت الجماعات وتأخير الصلوات، والاستغراق فى أسباب التجارات والصناعات، ويحذركم من مسالك اللعب واللهو، والجلوس فى الطرقات، والسمر فى القيل والقال، وهتك العورات، لصحتم عليه صيحة الحمر الوحشية وادعيتم عليه أن كلامه هذا معكم غباوة منه محضة، ولغو لا يفيد شيئًا إلا فى أغراض فاسدة من إظهار صلاح أو طمع مما بأيديكم، وقلتم أن من كانت تيته هكذا، ووصلت جهالته وسفاهته

إلى هذا الحد. كيف يعول على قوله أو يلتفت إليه؟ ورميتموه بأن كلامه هذا معكم أشبه شيء بالخرافات والكذبات الشنيعة التي لا تصار إلا من رقة الديانة.

ولكن العامة هواها أعماها وأصمها حتى لم تفرق بين القبيح والحسن بل لا تأليف إلا القبيح لأنه الموافق لهواها، وربما وجدت بعض الكذابين المؤدين لها، تلك المقالات الضالة في المحنة، وخروجًا من حيز الصيانة إلى حيز الخيانة، ولولا ابتلاء الناس بهؤلاء الكذابين الذين لا مسكة لهم من العقل والعلم والدين لا تضح الحق، وظهر الصدق.

ولكن الحكمة الإلهية اقتضت ذلك ليظهر المحق من المبطل ويتحلى كل برداء صدقه أو كذبه يوم العرض الأكبر [يوم تبيض وجوه وتسود وجوه] عافانا الله من ذلك بمنه آمين.

فأنتم معشر العامة الفئة العمياء الصماء، المدلهمة السوداء، التي لا يجاب فيها من دعا، ولا يسمع فيها من نادى.

فأنتم رأس كل خطيئة، وأصل كل بلية، وأساس كل رزية، ومعدن كل فتنة، ومنبع كل محنة.

لقد ظهر في هذا الزمان ضرركم، وطار شرركم، وعظم خطركم، وتظاهرتم بارتكاب الفسوق والعصيان بلا احتشام كأنه لا عار فيه عليكم ولا ملام. وقد تمكن من قلوبكم كل التمكن فأثمر لكم الحرص البالغ على عمارة الدنيا وخراب الدين، وجمع الحطام بالخيانة والكذب والغش والإعراض عن سنن المتقين، وتعاطفهم مداخل الربا من كل وجه، واقتديتم بحال بعض علماء الوقت الذين أضلهم الله على علم وأعمى أبصارهم، المترخصين

المتأولين الآخذين من العلم بظواهر أكثرها لا يصبح ولا يستقيم عند العلماء بكتاب الله وسنة رسوله وسير السلف الصالح.

وكيف تسعرون وقد وسدتم الجهل والتحفتم به وغاب عنكم أن أصل كل شر ومنشأ كل ضرر هو الجهل، وأهله داخلون فى عموم قوله (ﷺ) "الدنيا ملعونة ملعون ما عليها إلا ذكر الله، وعالم ومتعلم".

ويروى "أن الله تعالى لما خلق الجهل. قال له أقبل فأدبر، فقال أدبر فأقبل، فقال له: وعزتى ما خلقت خلقًا أبغض إلى منك ولأجعلنك فى شرار خلقى".

وقال على كرم الله وجهه: لا عدو أعدى من الجهل، والمرء عدو ما جهل. وذم الجهل معلوم بالنقل، والعقل لا يكاد يخفى على أحد. وبالجاهل واقع فى ترك الطاعات وفعل المعاصى شاء أم أبى، فإنه لا يدرى أى شىء الطاعة التى أمر الله بفعلها، ولا أى شىء المعصية التى نهاه الله عن ارتكابها، ولا يخرج من ظلمات الجهل إلا بنور العلم، ولله در حكيم زمانه إذ يقول:

الجهل نار لدين المرء يحرقه والعلم ما لتلك النار يطفيها

فعليكم معشر العامة أن تتعلموا ما أوجب الله عليكم علمه، وأن تتعلموا ما لا يصح إيمانكم إلا به، وليس إلا معرفة ما يجب فى حق الله تعالى، وما يستحيل عليه، وما يجوز فى حقه، وما يجوز فى حقه. وكذلك ما يجب فى حق الرسل، وما يستحيل عليهم، وما يجوز فى حقهم.

ومن اعتقد فى ذات الحق سبحانه وتعالى وصفاته وأفعاله خلاف الحق القرار عند أهل السنة والجماعة ربما ينكشف له حال الموت بطلان ما اعتقده جهلا ويختم له بسوء الخاتمة عياذًا بالله.

وإذا علمتم هذا فيجب على كل مكلف منكم أن يجتهد فى تعلم عقائده وحفظًا، وتفهم معانيها، والجزم بها ليكون من الفائزين الناجين عند لقاء رب العالمين. ليحرص على تعلمها من عالم عارف بها حق المعرفة.

وما أسعد اليوم من وفق لتحقيق عقائد إيمانه، ثم عرف ما يضطر إليه من فروع دينه فى ظاهره وباطنه حتى ابتهج سره بنور الحق واستنار. ثم اعتزل الخلق طرًا إلا عند الضرورة طاويًا عنهم شره إلى أن ينتقل بالموت عن فساد هذه الدار.

ولقد شاهدت كثيرًا من العامة ممن لا يعتنى بحضور مجالس العلماء ومخالطة أهل الخير أنهم متلبسون باعتقادات فاسدة من اعتقاد التجسيم والجهة وتأثير الطبيعة، وكون فعل الله تعالى لغرض، وكون كلامه جل وعلا حرفًا وصوتًا، ومرة يتكلم ومرة يسكت كسائر البشر ونحو ذلك من اعتقادات أهل الباطل، وبعض اعتقاداتهم أجمع العلماء على كفر معتقدها وبعضها اختلفوا فيه.

ومنهم من ينكر البعث وأحوال الآخرة. ومنهم من لا يخطر بباله شىء منها ولا معرفة له بالكل أصلا.

وبالجملة فأقوال لكم: قد أداكم الجهل الحال بكم إلى الاغترار بالرجاء والعفو. ولم تعلموا أن هذه الرجاء هو الذى أهلك عامة المذنبين وأشقاهم وأبعدهم عن سنن المهتدين.

فقالوا يا فلان: لقد أكثرت علينا، وضيقت ما كان واسعًا، ومثلك لا يخالطنا فى هذه الجلسة التى اتخذناها لأجل تخفيف تلك المشاق اليومية التى نرتكبها فى شأن المعيشة، ولقد تبين لنا من حالك أنك فى واد ونحن فى

واد، والأليق بك أن تلزم محلك، أو تجالس من كانت له رغبة فى تلك المقالات الكاسدة والشبه الفاسد.

فعند هذا التفت الحاج المغربى المحدث عنه أولا إليه، وكان فى قلبه منه ما الله أعلم به وقال: ما قالت لك الجماعة هو الصواب.

وقد اجتمعت بأعيان من عدة أرضين فى رحلتى السابقة، وما سمعت أحداً منهم واجه آخر بما واجهتنا به، وما ذاك إلا من فساد طويتك، وخبث عقيدتك، وهذا كلام لا يصدر من أدنى السوقة فضلا عن عمن يدعى أنه يحضر مجالس العلماء.

ثم إن النزاع بينهم قد عظم، وكثر القيل والقال. فلم ينفعنا إلا القيام وتركناهم وهم على ذلك. وعلمنا أن العامة قد جبلوا على مخالفة الكتاب والسنة، والخلد إلى أرض الشهوات. نسأل الله أن يعافينا من ذلك وأن ينجينا من ظلم هذه المهالك، وأن يوفقنا إلى ما كان عليه أئمتنا من صالح العمل، ومجانبة الزلل. إنه كريم مسئول، وأرجى مأمول.

فالتفت إلينا الشيخ عبد الهادى، وقال: إن هؤلاء أعرضوا كل الإعراض عن نصيحة هذا الرجل الغيور الذى أراد انقاذهم مما هم فيه من تلك الكبائر الموبقات.

وقد أصروا على المخالفة، وتمادوا على المعاصى، وتلبسوا بأقذار وأرجاس، وأوساخ وأدناس، تضرهم دينًا ودنيا، وهجروه كلهم ظلمًا وعدوانًا. والإعراض عن نصيحة ناصح لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم من أعظم الشرور كلها، والبليات بجملتها المستجلبة للعقوبات والمهلكات. العاجلة والآجلة. الدنيوية والأخروية. الظاهرة والباطنة.

والمؤمن الخائف لربه، المشفق على نفسه، المصدق بالرجوع إلى الله وأنه ملاقيه أدنى شيء من نصح ناصح يرده عما فيه مخالفة لشارع ﷺ، ويجتنب الذنوب والمعاصى كل الاجتناب، ويحترز منها غاية الاحتراز، ويتبعد عنها غاية البعد، وينزلها فى الاجتناب لها منزلة السموم القاتلة، والمياه المغرقة، والنيران المحرقة. فإن الملابسة لها والوقوع فيها أشد من ذلك كله من وجوه كثيرة كما يعرف ذلك من له بصيرة فى الدين، وعلم بسير عباد الله المؤمنين المتقين [الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون - والذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون].

ثم قال لنا الشيخ (رضى الله عنه): وليحذر العبد كل الحذر مهما وقع فى شيء منها من الاحتجاج بسبق القدر عليه من الله بالوقوع فيها وأن ذلك مكتوب عليه وليس له محيص عنه، فإن ذلك من الحجج الداحضة التى لا تغنى عن صاحبها شيئًا ولا تنفعه، بل تضره وتزيده من الله بعدًا وتعرضه للمقت والسخط من الله.

وبالجملة فالإيمان بالقدر خيره وشره واجب فى أصل عقود الإيمان والاحتجاج به على الله غير جائز، بل ذلك من الأمور الخطرة الشنيعة، وما دام الإنسان واختياره معه فليس له رخصة ولا سعة فى أن يترك أوامر الله ويرتكب نواهيه وليس ينفعه قوله هذا مقتضى وقد كتب على: ومن أين له علم ذلك؟

ومسألة القدر هذه مسألة مشكلة وفيها أغوار بعيدة يتعسر العلم بها على الخاصة فضلا عن العامة. وكذلك من أضر الأشياء على الواقعين فى معاصى الله تعالى وترك أوامره أمانى المغفرة وقولهم: إن الله كريم رحيم يغفر

الذنوب للعصاة ولا يبالى، وذلك صحيح وحق. ولكن لابد للعبد من امتثاله لأمر سيده الكريم الرحيم، واجتنابه لما نهاه عنه، وعليه أن يبذل جهده واستطاعته فى ذلك ويستفرغ فيه طاقته وإمكانه. ثم يرجو بعد ذلك غفران ربه ورحمته، ولا يتمنى ولا يغتر من غير جد ولا سعى.

قال الحسن البصرى رحمه الله: إن أمانى المغفرة قد لعبت بأقوام حتى خرجوا من الدنيا مفاليس.

واعلم أن الله تعالى لم يذكر الرحمة والمغفرة فى وصفه لنفسه بذلك إلا وقيد ذلك بقيود وشرطه بشرائط، مثل قوله تعالى [وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى] ونحو هذا من الآيات الكريمة.

وما وجد منها مطلقًا فيحمل على المقيد منها. فقد علم وتبين أن الرجاء بلا عمل ولا سعى غرور وأمانى، ومع ذلك العمل والسعى رجاء وحسن ظن.

ثم قال لنا الشيخ (رضى الله عنه): وقد أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم، وأن من آثر الراحة فاتته الراحة، وأن بحسب ركوب الأهوال واحتمال المشاق تكون الفرحة واللذة، فلا فرحة لمن لا هم له، ولا لذة لمن لا صبر له، ولا نعيم لمن لا شقاء له، ولا راحة لمن لا تعب له، بل إذا تعب العبد قليلا استراح طويلا، وإذا تحمل مشقة الصبر ساعة قادة لحياة الأبد، وكل ما فيه أهل النعيم المقيم فهو صبر ساعة.

ثم قال: قد اقتضت الحكمة البالغة أن تكون هذه الدار ممزوجة عافيتها ببلائها، وراحتها بعنائها، ولذتها بآلامها، وصحتها بسقمها، وفرحها بغمها، فهى دار ابتلاء تدفع بعض آفاتها ببعض، كما قل القائل:

أصبحت فى دار بليات أدفع آفـات بآفـات

ولقـد صدق، فـإنك إذا فكرت فى الأكل والشرب واللبـاس والجمـاع والراحة وسائر مـا يستلذ به رأيته يدفع بها ما قـابله من الآلام والبليات، أفلا تراك تدفع بالأكـل ألم الجـوع، وبالشـرب ألم العطش، وبـاللبـاس أم الحـر والبرد، وبالجماع ألم الشهوة، وكذا سائرها.

ومن هنا قال بعض العـقلاء: إن لذتها لنا هى دفع الآلام لا غيـر، فأما اللذات الحقيـقية، فلها دار أخـرى ومحل آخر غيـر هذه، فوجود هذه الآلام واللذات الممتـزجة المختلطة من الأدلة عـلى المعاد، وأن الحكمة التى اقـتضت ذلك هى أولى باقتـضاء دارين: دار خالـصة اللذات لا يشوبهـا ألم ما، ودار خالصة لآلام لا يشوبها لذة ما، والدار الأولى الجنة، والدار الثانية النار. أفلا ترى كيف دلك ذلك على ما أنت مجبول عليه فى هذه النشأة من اللذة والألم على الجنة والنار، ورأيت شواهدهمـا وأدلة وجودهما من نفسك حـتى كأنك تعانيهما عيانًا.

وانظر كيف دل العيان والحس والوجـود على حكمة الرب تعالى وعلى صدق رسله فيما أخبروا به من الجنة والنار.

الصبر على الشدائد والاقتداء بالنبى ﷺ

ثم قال الشيخ (رضى الله عنه): وتأملوا حال نبـينا ومولانا محمد ﷺ فى هذه الدار، وأمعنوا النظر فى سيرته مع قوته وصـبره فى الله واحتماله ما لم يحتمله بنى قبله، وتلون الأحوال عليه من سلم وخوف وغنى وفقر وأمن، وإقامة فى وطنه، وظعن عنه وتركه لله، وقتل أحبابه وأوليائه بين يديه، وأذى الكفار له بسـائر أنواع الأذى: من القول والفـعل والسحر والكذب والافـتراء

عليه والبهتان، وهو ﷺ مع ذلك صابر على أمر الله يدعو إلى الله، فلم يؤذ نبى ما أوذى، ولم يحتمل فى الله ما احتمله (ﷺ).

وهذا حال ورثته من بعده الأمثل فالأمثل، وكل له نصيب من المحنة يسوقه الله به إلى كماله بحسب متابعته له، ومن لا نصيب له من ذلك فحظه من الدنيا حظ من خلق لها وخلقت له وليس له نصيب سواها، فهو يأكل منها رغد ويتمتع فيها حتى يناله نصيب من الكتاب، يمتحن أولياء الله وهو فى دعة وخفض عيش، ويخافون وهو آمن، ويحزنون وهو فى أهله مسرور له شأن ولهم شأن، وهو فى واد وهم فى واد، همه ما يقيم به جاهه، ويسلم به ماله، وتسمع به كلمته.

وبينما نحن مارون إذ سمعنا رجلا يقول لآخر: ما كنت أظن أنى أدرك زمانًا يعود الإسلام فيه غريبًا، فقال هل وهل عاد الإسلام غريبًا؟. قال نعم: إن ترغب فيه إلى عالم تجده مفتونًا بالدنيا يحب الرياسة والتعظيم ويأكل الدنيا بعلمه ويقول: أنا أول بها من غيرى، وإن ترغب فيه إلى عابد معتزل فى جبل تجده مفتونًا جاهلا فى عبادته مخدوعًا لنفسه ولا بليس قد صعد إلى أعلى درجات العبادة وهو جاهل بأدناها فكيف بأعلاها؟ فقد صارت العلماء والعباد سباعًا ضارية، وذئابًا مختلسة، بل صار أدباء زماننا ذئابًا، وعلماؤنا ذئابًا، وفساقه فضلاه، وسفهاؤه عقلاء، وتجاره خوناء، وفجاره صلحاء، وقضاته ثعابين، وولاته ثعالب، وأتقياؤه فضاحًا وأشقياؤه نصاحًا، وعقاربه وعاظًا، وحياته حفاظًا، استغنوا بالفضائح عن النصائح، وعن المعارف بالمعازف، فلا الآيات السماوية تذكرهم، ولا الآيات القرآنية تنبههم، وقد استوفوا غالب الأعمال التى أهلك الله بها الأمم السالفة والقرون الماضية،

وقد قرب انشقاق الفجر الأخروى بقوة عسكر الظلم والضلال، وقبض العلوم عن العمل بها، وازداد الضلال وفاض وصار الحق عكسًا، والمعاملة كلها مكسًا، والأمر لله.

فالتفت إلينا الشيخ وقال: كل منصف لبيت لا يجهل ما قاله هذا الرجل الغيور ولا يكد ينكره، ولا شك أن هذا الرجل فى هذه المدينة من فطاحل الرجال العظام الذين يبرهنون على قطع مادة هذه الأعمال النحسة بصدق وإخلاص، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً.

وبينما نحن فى الطريق إذ رأينا جماعة من الأمراء وأولاد الكبراء مختلفين فى الجلوس، حاسرين عن الرءوس، ففريق منهم عاكف على لعب القمار، وفريق ينظرون فى صور خيل المضمار، ومنهم جماعة قد استداروا بامرأة نصف: لا هى عجوز شوهاء، ولا فتاة حسناء، تجتلب الحسن بإفراط التأنق والتفنن فى وجوه التصنع والتزين، فيكاد يضىء وجهها بسنا العقود والقلائد، ويتلألأ جبينها بلآلئ الجواهر والفرائد، وفى وسط المكان مائدة عليها صنوف الراح فى الأباريق والأقداح، وبجانبها منضدة عليها آنية منضدة، وفوقها الدواة والقرطاس، وبراعة مرصعة بالألماس وكتب أعجمية موشاة بالذهب، لا ندرى إذا كانت فى اللهو أو فى الأدب وعلى الأرض أوراق أحكام منشورة، وجرائد تحت الأقدام منثورة لم يفض إليها طرف ولم يقرأ منها حرف، وسمعناهم يتراطنون جميعًا بلغات أجنبية دون اللغة العربية، ولما رأونا ظهر منهم العبوس والقطوب، وبدا عليهم انقباض الصدور والقلوب، فرتكناهم ونحن فى غاية الأسف والتحسر على بنى الإنسان، وعلمنا أن هذا الحال سيزيد الأزمة الوقتية تعقدًا على تعقدها.

وبينما نحن مارون إذا بحانوت خمار، فصعدنا النظر فى وصوبناه، فإذا صاحبه شيخ فان متربعًا فى دكانه متحرزًا بمكانه، عليه علامات الانحلال والسقوط، وسمة الخذلان والقنوط، فلما واجهناه انتفض انتفاضًا عجيبًا حيث ظن أننا قصدناه. وقال ما شأنكم؟ فأنا لأغراضكم سميعًا مجيبًا، وعندى من صنوف الراح ما يزيل من ذواتكم الأتراح. فقلنا لسنا بأهل لما ذكرت، وإنما مقصودنا الاطلاع على الأحوال والوقوف على هذه الأوحال، فلما سمع منا هذا انتهزنا وطردنا وزجرنا وأبعدنا.

وبينما نحن فى الكلام إذ سمعنا قائلا يقول: من كان مثلى لا يسكن هذه الأرض حتى يلحقه هذا الهوان والصغار، ويقع به ما وقع من الحبس والعار بعد أن يقف موقف التهمة والإجرام، ويحل به ما يحل من التعذيب والإيلام، فمالى وسكنى هذا البلد الذى كثير فيه الإنفاق وزادت الضرائب وقل فيه الربح كما قلت المروءات، وصار الدرهم أعز عند الأب من بنيه، وعند الابن من أبيه، وما تخلصت من قضية إلا بقضية، ولا انسلخت من بلية إلا ببلية، فقلنا ما بالك؟ فقال استولوا على ما ادخرته فى عمرى واكتنزته فى عصرى من مال وعقار، وفضة ونضار، وقصور وضياع، وزخرف ومتاع، ونظروا إلى نظرة الاحتقار والازدراء، وخاطبونى بالأنفة والكبرياء.

حال الأمراء والحكام مع الناس اليوم

فالتفت لنا الشيخ عبد الهادى، وقال: أما الأمراء اليوم والحكام فقد قضوا أعمارهم فى جمع الحطام، واتخذوا الحكم والسلطان تجارة من التجارات، وبضاعة من البضاعات يربحون منها الغنى والثروة، ولا يعلمون للحكم من مزية سوى اكتناز الأموال، واستلاب الحقوق، وابتزاز الدراهم من

دماء الأرامل والأيامى، وانتزاع الأقوات من أفواه الضعفاء والأطفال واليتامى، وسواء توصلوا للمال من حلة أو غير حله لم يبالوا بالضعيف المسكين، ولم يرثوا للعاجز المستكين. بل ظلموا البرىء، وبرءوا الظالم، فجمعوا لديهم من أثر ذلك ما فرقه الله على عباده من رزق، وما قسمه لهم من قوت. ورضوا بالوزر، وطوقوا أعناقهم بالأصر، ثم حروموا بعد ذلك على أنفسهم التمتع بما جمعوه منهم، ولم يكونوا من [الذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم]. ولّم يؤدوا ما فرضه الله عليهم فيها من الحقوق، ولم يطهروها بزكاة، ولم يزكوها بإحسان، وأطربهم منها رنين الدرهم فوق الدرهم، وأبدعوا ما شاءوا فى وسائل وطرائق يأباها الله لعباده ويمقتها ويستبشعها الإنسان ويستفظعها لسلب ما سلبوه وكنز ما كنزوه بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، واجترائهم على الله فى أوامره ونواهيه، وإلزامهم العلماء بتأويلها على مقتضى أهوائهم الضالة، فأولوها لهم على مقتضى ذلك لأجل انحصار الأرزاق فى أيديهم واحتياجهم إلى ما يقتاتون به من فضلات عيشهم.

فالوزر على الأمراء والعلماء، ولكنه على الأمراء أعظم، وفوقهم أثقل. حتى إذا انقضى العمر، وحل الأجل تركوا ما خلفوه لغلمة من أولادهم وصبية من جواريهم نشأوا بنهم على الحرمان ولم يثقفوهم بالتعليم ولم يتركوهم للزمن يؤدبهم ولا للأيام والليالى تهذبهم، فكانوا فى أعينهم كالرصد الذى يكون على باب الكنز.

فإذا استراحوا منهم بالموت أو القتل مزقوا أموالهم انتقامًا منها ومنهم وفرقوا شملها فى أدنى من لمحة، جهلا منهم بوجوه التصرف وأبواب التمتع.

فما هو إلا أن يتسابق الدود والورثة فى أحشائهم المدفونة المحزونة.

فيسبق الورثة الدود فى الصدور والورود. فتذهب البدرة وراء البدرة، والضيعة بعد الضيعة، والدار عقب الدار، حتى إذا لم يبق إلا ست السكن أتوا على ما فيه من الأثاث بيعًا، وما فى أعناق الجوارى من الجواهر والقلائد رهنًا، ولا يزالون يخلون من البيت حجرة إثر حجرة، والدائنون يدخلون فيه خطوة إثر خطوة، إلى أن يندم بناؤه، ويعفو أثره، ويزول اسم بانيه الذى ارتكب ما ارتكب من الذنوب لتشييده ودوام بقائه، وهو يشيع منهم باللغتين فى الحالتين حالة الخلاص منه بالتشييع إلى القبر. وحالة أسفهم على إهماله إياهم من تثقيف العلم بما كان ينفعهم فى خشونة الفقر.

هذا أيها الأمراء عاقبة ما صارت إليه أموالكم ومغتنياتكم من بعدكم. ويا ليت أولادكم خفقوا عليكم من الإثم فى جمعها من دماء المراكشيين بإنفاقها بينهم وتبذيرها فيهم، فيكون ذلك منهم كرد بعض الحق إلى أهله. ولكن البلاء كل البلاء أنها ذهبت جميعها إلى أيدى الأجانب والغرباء [وما ربك بظلام للعبيد].

وبينما نحن فى الكلام إذ سمعنا رجلا يقول لصاحبه: إياك أن تسلك الطريق الفلانية فى هذه الساعة فإنك لا تجد فيها من الإنس إلا لصًا سالبًا، أو مغتالا ناهبًا، أو فتاكًا متأهبًا، أو كامنًا مترقبًا.

فالتفت إلينا عبد الهادى وقال: ما يقول الرجل. أليس البلاد بلاد أمن. قلنا فى بعض الطرقات خصوصًا بيوت الأجانب، وأما غيرها فالمشى فى طرقها ليلا على خطر، والغالب ما سمعت من الرجل.

فقال عبد الهادى: كيف تختص طرق الأجانب بهذه المزية. قال عبد الباسط: لأجل تلك السيطرة السارية منهم لقلوب أهل الإسلام اليوم.

فبينما نحن مارون إذ سمعنا قائلا يقول: أشكو إلى الله من معشر يعيشون جهالا. ويموتون ضلالا. ليس فيهم سلعة أبور من كتاب الله إذا تلى حق تلاوته، ولا سلعة أنفق بيعًا وثمنًا من الكتاب إذا حرف عن مواضعه، ولا عندهم أنكر من المعروف، ولا أعرف من المنكر.

وبينما نحن كذلك إذ سمعنا قائلا يقول لجماعة بين يديه: اعلموا أيها الإخوان إن مغفرة الرحمن، وسكنى الجنان. لا تنال بكثرة الصوم ووجوه العبادات. ولا تكتسب الدرجة الرفيعة عند الله إلا بالعدل والإحسان، وفعل الخير، واجتناب الشر، والرحمة بالضعفاء والمساكين من عباد الله.

وقد غرنى فى دنياى ما يغركم الآن، فكنت أسمع قبل مماتى من عدة شيوخ من لهم دعوى فى الشريعة والحقيقة ما يهون على ارتكاب المخزيات، وفضائح الشرور فى معاملة الناس. إرتكابًا على نهار أصومه، وليل أقومه، وحرز أحمله، وأثر أقبله، فنمت عن عمل الخير، وغفلت عن بذل المعروف.

فلما توفانى القدير العليم، وسكنت فى حفرة القبر علمت ما لم أكن أعلم فلم يغننى ذلك وحده من الله شيئًا، وما خفف على أهوال القبر، وهون على سؤال الملك إلا حسنة واحدة كنت أتيتها فى إعانة مظلوم.

فعليكم بالعدل والإحسان وتقوى الله فى عباده وإفشاء البر والمعروف فى خلقه، ولا تطيعوا النفس الأمارة بالسوء فتركنوا إلى الاغترار بالأمل وتطلبوا المغفرة بلا عمل بل استكثروا من الخير قبل حلول الأجل، وتذكروا قول الله الأجل [فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره].

فالتفت بعضهم إليه وقال: إنى خالك أيها الرجل شيطانًا فى زى إنسان

وزنديقًا يتستر بدعوى النشور من القبور، تعسًا لهذا الزمن ما أكثر أضاليله! وبؤسًا له ما أعظم أباطيله!، ولم يبق علينا من مدخرات عجائبه إلا أن يخرج الميت من قبره فيخبرنا بما رأى فيه وبما سمع. والتفت إليه آخر وقال: سألتك بالله أن تخبرنى بأى لغة كان سؤال الملكين أبالعربية أم التركية أم السريانية؟ فإن هناك اختلافًا وأقوالا بين العلماء. ثم قام بعضهم من وسطهم وقال: ناشدتكم الله أن تقصروا عن هذا الرجل ولا تخاطبوه فإنه فتنة من فتن إبليس اللعين ونعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فلم يسع الرجل إلا الخروج من هذا المجلس وهو يهدر ويغلى ويستعيذ ويستعدى.

فبينما نحن فى الطريق، إذ سمعنا قائلا يقول: أعوذ بالله أن أكون من أهل هذا الزمن الذين أصبحوا لا يثقون ببعضهم بعضًا، فلا يأمن الأخ أخاه، ولا الوالد ولده، ولا الصاحب صاحبه، ولا الجار جاره على درهم واحد.

وبينما نحن كذلك، إذ سمعنا قائلا يقول: إن جل من نراهم من المنعمين المترفين والأغنياء الموسرين لو كشفت عن باطن أمرهم وحقيقة أحوالهم وخبايا معيشتهم من وراء الجدران لوقفت على ما يوجب الأسى والأسف ويدعو إلى الرحمة والشفقة لا ما يدفع إلى الحسد والغبطة ولا يفتك أن الرجل الأجير الذى يستخرج قوت يومه منغمسًا فى عرق جبينه هو أسعد منهم حالا وأنعم بالا.

وبينما نحن فى الكلام، إذ سمعنا قائلا يقول لجماعة من الناس: لقد تبين لى الآن ما كان على غامضًا، واتضح ما كان مبهمًا من أمر أطباء الوقت، فأما حالهم مع الأصحاء وذوى السلامة من بعض الخلق فهو أعجب وأغرب، وما يعزب عنك أن كثيرًا من المولعين بسوء التقليد للغربيين

والمتهالكين على حب التظاهر بمظهر الرفاهية والترف، يتغالون فى الاحتياط لأبدانهم، ويبالغون فى التوقى لأجسامهم، فينموا فيهم وسواس المرض والسقم، فتراهم يتوجسون من كل أكلة شرًا، ويتوقعون من كل شربة ضرًا، ويتخيلون أن فى كل لقمة تخمة، وفى كل جرعة غصة فلا يتناولون قدحًا من الماء، أو يستنشقون نفسًا من الهواء إلا وفى اعتقادهم أنه لا يخلو من كل هامة سامة، أو جرثومة ضارة، ولا يزالون على هذه الحال حتى يمتنعوا عما فيه صلاح أبدانهم من المأكل والمشرب، ويبعدوا ما استطاعوا فى طرق الحمية من غير علة ولا داء، فيبدلوا الماء الزلال بالماء المعدنى، ويهجروا الأغذية المناسبة لتركيب الجسم وقوام البدن إلى الأطعمة الغريبة عن أذواقهم المنافرة لنسيج أبدانهم، فيضطرب نظام التركيب وتضعف النبية، ويصبح كل واحد منهم جازمًا بأن به داء دفينًا وما به من داء، وعلة كامنة وما به من علة، فيشكوا مره إلى الطبيب، فيكون الطبيب حينئذٍ أسرع من وهمه وخياله فى اختلاق علة له، واختراع مرض دون أن يفحص أمره أو يبلو خبره، فينزل به ما ينزل من بوائق الخوف والفزع، ويوالى عليه الطبيب ما يوالى من صنوف الخلاصات المعدنية، والجواهر أضعاف ما يترصص عليها من ألوان الطعام والغذاء، ويتقيد المسكين بمعيشة لا تناسب غريزة البنية ولا فطرة المولد ولا طبيعة الإقليم، فلا يلبث أن يأتى على ما بقى فى الجسم من قوة وما فى البدن من صحة، ويعيش إن عاش فى يد الطبيب حيًا كميت، ويكون بين الأموات والأحياء لا هو من هؤلاء ولا من هؤلاء إلى أن يلحد فى لحده شهيد طبيبه وقتيل يده.

ولقد سرى هذا البلاء فى أهل الوقت مسرى العادة، فأصبحنا لا نرى فى جمهور من تراهم من المترفين المقلدين إلا شاكيًا من ألم أو متألمًا من

مرض فراجت سوق الطب وعظم عدد الأطباء وغدت حوانيت الصيادلة فى الأسواق أكثر عدداً من حوانيت الخبازين والقصاصين، وصار من متاع الست وجهاز العروس صناديق الدواء وآنية العلاج، وقل أن تجد اليوم بيتًا خاليًا من مريض ولا مجلسًا ليس فيه من سقيم، فعجبنا من كلامه وتحقيق مرامه وودعناه وسرنا.

فينما نحن فى الطريق إذ سمعنا رجلا يقول للآخرين إن فلانا رفيقى لما انسلخ من علته وسقمه وتمت له العافية والسلامة فى جسمه، فأخذت أهنئه ذات يوم بالشفاء والإبلال من المرض والاعتدال، وأذكر له أن صحة الأبدان هى ملاك السعادة للإنسان وأنك لو جمعت نعم العالم للمريض من مال واسع وجاه عريض لانصرفت نفسه عنها انصراف الضب عن الماء والأرمد عن الضياء والمعمود عن شهى الغذاء، وأن خاتم الياقوت فى الإصبع التى أصيبت بدمل لا يساوى عند صاحبه حبة من خردل، وإن ما اجتمع فى سرير الملك من العزة والبأس ليهون عند مفقور الظهر أو مصدوع الرأس، وكنت لما زدته من هذه الموعظة والحكمة أراه يزيد فى الإعراض عن شكر تلك النعمة وتحققت أن المرء إنما يذكر النعيم فى البؤس ولا يذكر البؤس فى النعيم، وينسى المرض فى الصحة ولا يذكر الصحة إلا وهو سقيم، وقل من يحمد النعماء فى لبسها، ويذكر سعادة الحياة إلا فى نحسها، فتعجبنا من حكمته وعلمنا أن مقالاته ستبقى مخلدة فى صفحات التاريخ.

فبينما نحن كذلك إذ سمعنا رجلا يقول للآخر ما جاءتنا المصائب فى أولادنا إلا من هذه المدارس وتعليمها، وهل زادهم ذلك التهذيب إلا ما شاهدت من الفظاظة والوقاحة والكبرياء والمكابرة، ولقد أدهشنى فلان

بالأمس وأضحكنى فى شكواه مر الشكوى من حال ابنه المهذب المتعلم فى المدارس والمجالس إذ قال لى فى حديثه ما زال هذا الولد يزيد فى تعذيبى وتكديرى منذ خروجه من المدرسة فأصبح لا يكلم أهله إلا بالرطانة ولا يعرب عن غرضه إلا بالتعنيف والتأنيب ولا يرضى عن شىء فى البيت فإذا جاءوا له بالماء. قال فيه المكروب، وإذا أتوه بالخبز. قال على بالمكرسكوب، ثم ترى الشقى يقسم الأطعمة أقسامًا، فيقول البيض واللبن غذاء كامل، والخضر غذاء ناقص لا ينفع ولا يمرئ، وان الأرز وما شابهه من المواد النشوية لا فائدة منها سوى أنها تحترق كالوقود فى الجسم، وما زاد منه عن الحاجة فهو شحم يغلظ به الجسد وتتورم به الأعضاء، وأن الفواكه لابد أن تؤكل من ساعتها إذا تشققت وخصوصًا البطيخ لأنه أسرعها قبولا لتولد الحيوانات السامة وهلم جرًا حتى حير الخبيث أهل البيت فى طعامه وشرابه فوق ما حيرنى فى اختلاف ملابسه وتعدد أزيائه، وكلما عارضته فى شىء شمخ بأنفه استكبارًا ولوى عنقه استحقارًا وسخر بى لجهلى وفخر على بعلمه.

هذا هو منتهى التأدب الذى يكتسبه أبناؤنا من علوم المدارس، يتعالون على آبائهم ويعيرونهم بجهلهم بعد أن كان الوالد كالبنت البكر فى الزمن الماضى لا يرفع طرفه فى وجه والده حياء ووجلا، وكان لا يجرأ على مكالمته إلا مجيبًا عن سؤال من صغره إلى كبره، فأحزننا ما سمعناه من هذا الرجل وأشفقنا على تلك الحالة السيئة التى عم شرها وعظم ضررها وعلمنا أن الرجل قد اطلع على الواقع الذى غاب على كثير ممن لهم سور آدمية وعقول بهيمية. على أنه محقق محسوس لكل من له مسكة من العقل.

فبينما نحن كذلك إذ سمعنا رجلا يقول لآخر كيف حالك اليوم مع الخادم. الذى رأيناه من بساط يده فى مالك كأنك محكوم له وهو عليك حاكم؟، فقال قبح الله الخدم، فهم نقمه من النقم، شرهم حاضر، وخيرهم نادر، والعناء بهم ليس له آخر، فكم أغضبوا حليمًا، وآذوا كريمًا، وكم كسروا الصحيح، وخلطوا الصريح، وكم ارتكبوا جرمًا وإنما جاءوا بإفك وظلم، وكم فتحوا الأغلاق واختلسوا الأعلاق، وكم أحدثوا الشقاق، وأذهبوا الوفاق، وكم فرقوا بين المرء وأهله وحالوا بين الفرع وأصله، ولعنة الله عليهم فى الدارين، فقد ذقت منهم الأمرين وكادت تصل بنا أفعالهم الشنيعة إلى ما لا يحمد من الجفاء والقطيعة، ونحن ننظر إلى ذلك ونغضى، ونتحمل منهم ما لا يرضى، وهم يتجنون علينا وينتصرون، وإذا أمرتهم بأمر لا يأتمرون ويشهد الله أننى كلما رأيت مالى فى أيديهم يتبعثر ويتبدد، وشملى بهم يتضاعف تمزيقه ويتجدد، ذات الفؤاد فسال من العيون مشويًا بماء الشئون. ثم قال وأما وكيل البيت، وما أدراك ما الوكيل، فحسبنا الله ونعم الوكيل: فتى لا تخطئ فى النفاق مخيلته، ولا تطيش فى البيت حيلته، دأبه المكر والخداع، وديدنة الشقاق والنزاع، يرضى طفلا ليسخط كهلا، ويتملق للجارية فى الحرم، وللوصيف من بين الخدم، هذا وما زال الرجل يشكو ويتضجر ويتأفف ويتحسر، فلم ينقذنا من هذه الشكوى التى تصم الآذان إلا الفرار من بين يديها والانسلاخ من طرقها.

وبينما نحن مارون إذا بحجرة بادية الرواء. مضيئة بالكهرباء، مفروشة بأثمن فراش، وأبدع رياش، على اختلاف فى الأجناس والأنواع، وتباين فى الأشكال والأوضاع، فالتحفة الشرقية تقابلها الطرفة الغربية، فوجدنا المجلس

حافلا بأهل الـولاية والقضاء والرؤساء والوكلاء، فـأخذنا مجلسنا نسـتمع ما يدور من السمر، ونجن من أدبهم من الثمر، فـإذا ببعضهم يقول: أنا والله لا أنتظر إلا أن يتم لى نصف نعاش فاهجر خدمة الحكومة وأنجو بنفسى من أسر الرق وذل العبوديـة، ثم أعتمد بعد ذلك عـلى الاشتغال بالتجـارة، فهى أهنأ عيشًا وأعظم ربحًا، وأبعد بصاحبها عن مواقف الذل والهوان.

فقال له آخر: ما أسـخف الرأى، وأضعف الفكر، ومن ينكر أن خدمة الحكومـة علـى كل حـلا هى أعلى قـدرًا، وأرفع شـأنًا مـن بقـيـة الحـرف والصناعات، وكل أسباب المعاش لا تخلو فى هذه الدنيا من المتاعب والأكدار ولكن خدمة الحـكومة أهونها حالا وأقلهـا عناء، ولا يفضل عليها الاشـتغال بالتجارة إلا من كان قليل التبصر فى الأمور ويكفيك برهانًا على ما أقول أمك تستخدم التاجر وتسخره ما دام درهمك فى يدك، ولكن التاجر فى حاجة أبدًا إلى أصـغر مـوظف فى الحكومـة وإن كـان من أغنى الأغنيـاء ولو تراهم إذ يفتخرون بينهم بزيارة الكاتب ومجالسة المعاون وتحية القاضى ومخاطبة المدير، لعلمت أن خدمة الحكومة بلغت فى أعينهم وأعين بقيـة الطبقات مبلغًا عظيمًا من الشرف والرفـعة بحيث لـو خيرت أحـدهم بين الخروج عن ماله وعـقاره وتجارته وأطيانه وبين الدخول فى صف الموظفين بالحكومة لخرج من كل ذلك خروج السهم من قـوسه والأرقم من جلده، ولحكم بأن السعـادة كل السعادة فى ما تعده أنت شقاء وبلاء وتعتبره ذلا وهوانًا.

فـقال آخـر: على رسلك أيها القـاضى لا تعكس القـضيـة ولا تقلب الحقيقـة ولا تحمل ما تره فى أخلاق التجارة والصناعة والزراعـة من الاستهانة بحرفتهم، والاستعظام لأهل الحكومة على أن حـرفتهم خسيسة فى ذاتها، بل

ذلك حادث فيهم من جهلهم وضعف إدراكهم، وإلا فلو تحلى أحدهم عن طبقته ودخل فى طبقتنا يومًا لأدرك فى الحال ما كان فيه من نعمة الاستقلال فى العمل والحرية فى الرأى، ولعلم أن الموظف قد باع للحكومة حريته، ووهب لها نفسه تتصرف فيها تصرف المالك فى ملكه مقابل مقدار من المال يعد لأجله ساعات اليوم وأيام الشهر، ويربحه الواحد من أولئك الجاهلين بأحوالنا فى يوم واحد، وهو أمير نفسه وسيد أهله.

ويا ليت آباءنا كانوا انتبهوا إلى تعليمنا الصنعة، وتمريننا على التجارة ولكن بئس ما صنعوا وبئس ما خلفونا له، ولو أنهم كانوا أدركوا ما انتهت إليه حال الخدمة فى الحكومة اليوم ولم يغتروا بما كان للحكام فى الأزمان السالفة من الصول والطول، والقوة والحول، واكتساب المال من الجاه وعلموا أنه سيأتى زمان على هذه الحكومة التى كانوا فى أيديها كالأيتام فى يد الوصى، ويكون أرباب المناصب فيه كالأطفال فى حجر المرضع، لعضوا الأنامل ندمًا، ولأرسلوا بدل الدمع دمًا: على ما فرطوا فى أمرنا، وأهملوا فى شأننا.

فقال آخر: إنك لتتكلم بكلام العجائز اللاتى يقنعن من دهرهن بالخسيس من الملبس والمطعم، وأين أنت هداك الله من طلب المعالى، وابتناء المفاخر، وتشييد المجد، وخدمة الوطن، وارتقاء المناصب للقدرة على النفع والضر، وإلى الله المشتكى من زمن صغرت فيه النفوس، وضعفت الهمم، وماتت العزائم، ورضى الناس فيه بالخمول والسكون وبالعيش الدون.

فقال آخر: إنى لأعجب منك أيها الفاضل. كسف يغيب عنك الصواب إلى هذا الحد؟ فترى أن فى خدمة الحكومة سؤددا وعلاء ومجدًا وسناء. وما

هى إلا الذل والشقاء والبلاء فى أثر البلاء، وأنا أفضل لك الحال تفصيلا لتعلم أن بقاء أمثالك فى خدمة الحكومة مع القدرة على التنحى عنها عجز وضعف، وجهل براحة الحياة، وأى جهل. فأقول: تنقسم الرغبة فى خدمة الحكومة إلى أربعة أقسام.

القسم الأول: الرغبة فيها للمال: أعنى لسد العوز وكفاف العيش، وصاحب هذا القسم يكون فى حال المضطر الذى حكم عليه الدهر باحتمال الهوان لضرورة الرزق، فهو فى رق العبد وذل الأجير، لا مناص له من الصبر على المضض، حتى يجد له مخلصًا منه ومتصرفًا عنه، وهو مثلى يغبط حال كل صانع وتاجر وزارع، ويتمنى على الدوام أن يخرج من خدمة الحكومة إلى صف أهل الصناعات الحرة.

والقسم الثانى: الرغبة فيه للجاه. أعنى عزة المنصب ونفوذ الكلمة ومضاء الحكم، وهو ميدان بعيد الشأو واسع الأطراف، ليس لشوطه نهاية، ولا لحدوده غاية، ولابد فيه للجواد من كبوة، وللسيف من نبوة وطالما كان اعتلاء المناصب وارتقاء المراتب داعية للرزايا والمصائب، ومجلبة للبلايا والنوائب، ولو سلمنا أن صاحب المنصب سلم من المعاطب ونجا من الخطوب، فهو لا يزال طول حياته فى هم ونصب كلما ارتقى فى المنصب درجة وجد فوقها درجة أخرى يحسد من يليها، ويحقد على من يعتليها، ولا يفتأ مستعظمًا لما فوقه طامعًا فيه مستصغرًا لما فى يده راغبًا عنه، فهو فى ذهول دائم عن التمتع بلذة الحياة التى يجرى وراءها غر راض عن نفسه ولا عن الناس، ولا الناس عنه راضون، وهذا هو منتهى الشقاء والبلاء وملتقى الكمد والكدر، وأخلق بمن كان همه أبدًا التطلع إلى غير ما فى يده أن يكون أنحس

البرية حالا وأمضهم عيشًا، ولذلك زهد الراسخون فى العلم من الفلاسفة والحكماء، فى اعتلاء المناصب، ورغبوا عن اغتراب غاربها، وحذروا العقلاء من السعى وراءها، وشغل النفس بها. هذا كله إذا كان المنصب عظيم الجاه نافذ الأمر، وكان الوصول إليه من طريق الفضيلة والشرف، والحصول عليه من باب الجدارة والاستحقاق. فأما والطريق إلى المناصب كما تراه اليوم قاصر على التوسل والتوسط وإهراق ماء الحياء، والمنصب على ما تعلم وضيع الكلمة ساقط القدر خسيس المنزلة لا أمر فيه ولا نهى ولا حل ولا عقد، فالفرار منه أجدر بطالب الجاه وأحرى، والتباعد عنه أشرف بذى الفضل وأسنى، والنزول عنه نعم المنصب العالى لطلاب المعالى.

والقسم الثالث: الرغبة فى المنصب لشغل النفس دون سواه دفعًا للسأم والملل، وتضييعًا لأوقات الحياة وساعات العمر فى الاشتغال بحاجات الناس والتلهى بها عن تهذيب النفس، ولا يدخل فى هذا القسم إلا من كان فارغ الفؤاد، خارى الصدر، خاليًا من كل أدب وفضل، مشغول الضمير بالوساوس والهواجس، فأكره شىء لديه نفسه، وأثقل حمل عليه حياته ولابد له من مشاغل متجددة، ومسائل متعددة تشغله عن الخلوة بنفسه التى صارت عنده إذا هو خلا بها لحظة كأنها خلية من خلايا الزنانير، أو وكر من وكور الأفاعى، وهيهات أن يبلغ المسكين غرضه يومًا لأن من ضاقت عليه نفسه كان العالم عليه أضيق، ومن ثقلت عليه أخلاقه فالخليقة عليه أثقل.

والقسم الرابع: الرغبة فى خدمة الحكومة لخدمة الوطن ونفع الأمة وهذا مطلب عقيم النتيجة أيضًا، لأنه لا يتفق لنا الجمع بين المحافظة على البقاء فى المنصب وبين الاستقلال فى الرأى الذى تقتضيه مصلحة الوطن لما بينهما اليوم

من التخالف والتنافس، ومن أراد أن يخدم وطنه فليتخلص من قيود الحكومة ويخدمه وهو مطلق اليدين واسع التصرف، ولا تنس فوق هذا كله ما يعقب حلاوة الولاية من مرارة العزل، خصوصًا فى بلد ينسبون فيه إلى صاحب المنصب كل فضيلة، وينزعونها عنه إذا سقط منه فالرجال عندنا بالمناصب لا المناصب بالرجال، فمن ذا الذى يقبل الدخول فى خدمة الحكومة وهو يجد عنها محيصًا إلا من أضله الله على علم: ولذلك فإنى عهدت على نفسى أن أتخير لأولادى فى تعلمهم صناعة يتعيشون بها أحرارًا وتكون معهم أينما حلوا وساروا، لا يسلبها منهم تقلب السياسة وتغير الحوادث، ولا يؤثر عليهم فيها غضب زيد أو رضى عمرو، فالتفت إليه بعضهم وقال: لله ما أحلى بيانك، وأجلى برهانك، وأنا معك فى هذا الحكم وعلى هذا العزم.

فالفت آخر منهم وقال: اتركونا من هذا الخطب المكدرة، والأفكار المحزنة، وخذوا بنا فى حديث غير هذا يفرج عنا ويروح، ولا تجمعوا علينا بين ذل النهار وهم الليل، فعجبًا من هؤلاء كل العجب، ورأينا الأجدر بنا أن نتركهم على هذا الحال، فخرجنا من ذلك المكان.

وبينما نحن فى الطريق. إذ سمعنا قائلا يقول لآخر: قد غادرت دار أنسى وجنة عيشى القيلة الفلانية فى رابع هذا الشهر مريدًا مراكش، فامتطيت جوادًا وحملت أثقالى على بغل، وسايرت الطريق أنا وصاحبى، حتى آذنت الشمس بالمغيب، فانتهينا إلى الدوار الفلانى وقد أخذ العياء منا مأخذه وقلنا الرقاد يزيل العناء، فما استقر بنا القدم، حتى حملت علينا جيوش البراغيث من كل جهة، فحرمتنا الرقاد، وزادتنا نكدًا على نكد، وكانت ليلتنا أتعب من نهارنا، وما طلع علينا صبح الغد إلا وقد أدمتنا البراغيث، وامتصت جانبًا من

دمائنا، ولما لاح نور الفجر أخذنا فى المسير حتى وصلنا إلى دوار الشمايت عند الغروب، فنزلنا واسترحنا وأخذنا فى القصص والحكايات الهزلية حتى غلبنا النوم، فنمنا بقية تلك الليلة ورتعت البراغيث فى أبداننا ترتوى بدمائنا على مثل ما جرى بنا فى الليلة الماضية.

ولما كان الصبح ارتحلنا، فبينما نحن فى الطريق إذ أبصرنا رجلين يبرزان من غاية هناك ويصيحان بصوت قوى أوقفا فوقفنا فجأة ثم تقدما نحونا، فعلمنا مقصدهما وأنهما يريدان اختلاس أموالنا وأرواحنا، فسدد كل منا بندقيته فى ذات واحد منهما، وانطلقت النار دفعة واحدة ولكن الله سلم، ففرا بين أيدينا كالبرق الخاطف، وطلع النهار بسماء صافية وأسرعنا فى المسير إلى أن وصلنا للحضرة المراكشية عصر ذلك اليوم، وفى العشية أخذت أتجول فيها مع صاحبى إلى أن كاد يمضى ثلث الليل الأول، فإذا هى بلدة جمعت بين نار وجنة. كأنها ميزان له كفة سيئة وأخرى حسنة، فنرى تارة مدينة كأنها جنة فى الأرض مبنية، وتارة نراها متضايقة الحدود والأفنية طيبة الجوار. سيئة الدار. رحبة المثوى. ضيقة السكنى. جوها عريان. وأيامها حيان. شرابها يسير. وطعامها عسير. هى واسطة البلاد وقاصية الأولاد، مزرعة للخير كحبة أنبتت سبع سنابل بيد أن حشوها مسايل، وطرقها مزابل. هى فى الحضانة متناهية، وعن الحضارة ناهية، مركز حواه من الجيوش جيله، وقد سيم الولاة حره وظله، مركز حوى من الرفعة قدرًا لا تستهان مواقعه، وتستلان أكاديه وأخادعه. هو للعلم طاب أصلا وفرعًا وليس فيه لذويه مرعًا. مركز ثغره محيسن وهو دارة محاسن ووجدنا بها من الفنون جنون، وحكايات الجبابرة والملوك الأكاسرة، وإن شئت قلت القاضى وتودد الجارية، وإن شئت قلت

القنفـذ والثعـلب. أو الكلب والأرنب، وإن شئـت قلت ما شـئت. "إذا لم تستح فـاصنع ما شـئت" وهذا شرح حالى من لدن خـرجت من بلادى إلى ساعة لقائى بك، فقال له: الآن أعطيت القوس باريها، والزناد موريها، وزين الجيـاد فرسانها، والسـيوف أقرانهـا، والحلة لابسها، والأداة ممارسـها، وعند الصباح يحمد القوم السرى: وعند السبـاق تتفاضل الفرسان: وعند الامتحان يعز المرء أو يهان: فتعجبنا وتركناهما.

فبيـنما نحن مارون. إذ رأينا شخـصًا قد رفع عقـيرته بين يدى رجل، فنظرنا فإذا هو شاب أسـمر اللون كهمس درواس سيد الرأس قـد حلق لحيته ولبس بذلة أوروبيـة يقول لصاحـبه: ألم تسمع مـا قابلنى به فـلان المدعى ما ليس له بأهل؟ قال وبأى شىء قابلك؟ قال يخبر كأنه ما طرق الآذان، ومائدة ما جلس عليـها طفيلى، وعـين ما وردها كل وارد، وهول فى ذلك وأبرق، فإذا بالبرق خلب وهوس، فإذا به تنطع وخوذ، فـإذا بالأمر تهور وتقعقع وما تسلح وجـعجع، ومـا طحى وتطاول وما راعنى، وأهضم جـانب حقـى وما ارعوى على أنـه لا يعرف هرا من بر، ولا قـبيلا من دبيـر، ولا ظلا من فى ولاملوما من مليـم، ولا تلادا من تلبد، ولا جبـهة من جبـين ولا هياطا من ميـاط. ولا جائعًـا من نائع. لا عبكة من لبكة، ولا ثاغـية من راغـية، ولا راوية من رواية، ولا شتاء من صـيف. على أنه لا يخفى عليك وعلى الناس أن من الأمور التى لم يخـتلف فيهـا اثنان. بل من الحقائق التى أمـلاها لسان الزمان أن البـلاء من اللسان، ولا سمـيا متى كـان موقد فـتنة أو راد مردة أو مضل مسعى. على أننى فى لجج أشغال ومـعارك أعمال. لا أجد من الزمان فـرصة أسـمع منهم أو كلمة. فـقـال له وأى شىء كانت هذه الزعـازع التى

هولت بها صفوا، وتركتك فى بحار الهـوى والتعسف والتحامل رهواً؟ قال: قـال لى أن صلاتى فى هـذا الزى زى الأعاجم الذى أنا بحـافظ عليـه لأجل خدمـتى إياهم ومحـبتى فـيهم مكروهة، وتشـدق بأن الكراهة لأجل أن تلك اللبسـة تحد العورة وتـصفهـا، وبالله عليك هل يقول هذا قـائل أو تقبل هذه الأقـاويل فقـال: قال الحق ولا يمـترى فى هـذا من له أدنى مسكة من الميـز والتمييـز، فقال له الشباب: إنما حمله على هذا التـعسف إثارة الفتن وتلبيس الحق بالباطل قال الرجل: أى تلبيس فى هذا؟ بل نبهك على لطيفة أحلى من الوصال بعد الهجران، ومن الوجدان بعد الفقدان، والخادش فيه والطاعن فيما لديه خادش فى التأسيس الدينى.

ويا سبحان الله كيف يؤثر فيك هذا الارتداع والانقماع بحجة العلم هذا التأثير حتى ادعيت، ولو أنصفت لما صعب عليك من هذا شىء، وما قرر لك خلاف هذا فقـد افتعل واختلف، وإنما تـنزلت معك هذا التنزل وارتكبت هذا البساط الأدبى من باب إغضاء الجفون على القذى وإسبال الذيول على الأذى، وإلا فالأمر من وراء ذلك على أن شـافهك به نقول منقولة، وقواعد مـعقولة يعلمها كل الناس. فـقال الشاب: أما أنا ففـقيه نفسى لا أحتـاج إلى كلامه، وإن قال أنى لست من أهل العلم. نعم لا يعرف العلم إلا ذو الحلم، وإن قال لست فى النحاة كخالد صدق أخى أنا وإياه فى قرن واحد، وإن قال لا أعرف فقه مالك قلتـه له هو كذلك، وإن شهد فى صحيفـته أنى أديبا. قلت له اقرأ كتـابك كفى بنفـسك اليوم عليك حـسيبـا، فالمرء مؤتمن بما قـال، وظنين بما ادعاه، وليس من رأى كمن سـمع فالكاتب والشاهد علينا رقيب وعـتيد، لا يضار ولا شهيد. أتريد أن تسمع منى حق اليقين فيه؟ قال نعم: قال إنى أقول

على رءوس الأشهاد من غير مكابرة ولا عناد أن بينه وبين علم الأصول ما بين كاهن ورسول، وبينه وبين علم التفسير ما بين أعم وبصير، وبينه وبين علم الحديث ما بين طيب وخبيث، وبينه علم الكلام ما بين النور والظلام، وبينه وبين علم النحاة ما بين الأحياء والأموات، وبينه وبين فن الأدب ما بين الحوت والضب، وبينه وبين علمى المعقول والمحسوس ما بين الجاموس والناموس وبينه وبين علم الخط ما بين الفأرة والقط، وبينه وبين علم الفلك ما بين إبليس والملك، وبينه وبين علم الحساب ما بين صدق وكذاب، وأظنه ما سلك من طريق علمى الهيئة والتنجيم. إلا ما سلك من الصراط المستقيم ولحديثه طرق شتى، وهذا دأبه لا عوج فيه ولا أمتا. مدينة الحجر والساعة وقت السحر، والطالع العقرب وجم الأجرب، والمنزل الفادح والسعد الذابح ولولا وجودك أيها الحكيم والحاكم الفهيم. لعضضته بهنى أبيه، ولكن ترك السفيه أشد على السفينة، فأخذنا العجب، وعلمنا أن هذه المقالات إشارات، وفى الإشارة ما يغنى عن العبارة.

وبينما نحن فى الطريق إذ سمعنا شيخًا يقول لشاب: أخبرك بلسان المحبة الوالدية أن منهاج الإسراف الذى فرضت على نفسك انتهاجه مذموم عندى. بل عند عقلاء المعمور كله ومنهى عنه فى الشريعة. وقد رأيت أنه أفضى بك إلى الإفلاس، فأنا يا ولدى قد اقتربت من القبر وما اقتنيته بالعناء أوشك أن يكون لك بلا كلفة ومن غير مشقة، فأنت أى ولدى الوارث الذى لراحته كد أبوك على جمع ما جمع من المال واقتناء ما اقتنى من العقار والضياع، وأنت قد أهلكت من ذلك المال مقدرًا وافرًا وراء الملاذ وفى طلب الملاهى، فحسبك يا ولدى ما أولجت سيرتك على قلب أبيك الشيخ من

الأسى والأسف، فارتشد بكلامى وقف عنده، وإلا حرمتك الميراث ووهبت كل مالى من العقار لأحد الأقارب، وتركتك تبكى على وفاتى بل على وفاة رزقك الذى قدر لك على طول عمرك، وهذا القدر كفاية لذوى الفهم، فأجابه ولده ساعته بقوله: لقد سالت مدامعى ندمًا على ما أسخطتك به، وقد تبين لى الآن سبيل الخير وطريق الرشاد، وسألزم نفسى على متابعتهما ولا ترى بعد هذا منى إلا ما يسرك، وأسألك الصفح عما سبق، فإن أكبر نعم الدنيا عندى هو رضاك أطال الله لى بقاءك آمين. فوقتئذٍ قال له والده، فها أنا الآن أمحو زلتك الماضية بدموع نوبتك الحاضرة وسددك الله إلى أحمد منهج وأقوم مسلك بمنه وكرمه آمين.

وبينما نحن فى الطريق إذ وقف رجل بين يدى آخر، وقال لو كنت تدرى شوقى إلى أنس لقائك وتوقى إلى الاجتماع بك فى أيام معدودة لأيقنت أن أخاك كالفطيم القريب العهد بالرضاعَ لا يزال يبكى على ما فاته، ثم قال وقد جمعنى وأحد الوجوه منزل جرى فيه ذكرك فوقع فيك واغتابك وليست الغيبة من عادة الرجل، ذكر من أمرك أن صديقًا لك هنا أدانك مقدارا من المال، وإجلالا لقدرك واغترارًا لحسن ظاهرك لم يأخذك عليك وثيقة تشعر بذلك، ثم لم تفه بالمال إلا بعد أن جرعته من المطل وأذقته عذاب التسويف على مقتضى حال غالب أهل الوقت، مع أنك مستطيع الوفاء، ولما أخذت فى المحاماة عنك. قال آخر وهو من أخل الفضيلة المعروفين بحفظ اللسان وستر العيوب على أصحابها ولو كان للمحاماة عن فعلته هذه وجه ما ذكرت إذ لا غرض لأحد فى اغتيابه، نعم إن الدفع عن المغتاب من أحسن الأخلاق وأكرم الشيم لكن إذا مزق المرء حجاب كرامته وخرق عرضه بيده ولطخ ذكره

بخبث صنيعه لا يكون الدفاع عنه إلا شرًا عليه من وجه أنه يهيج الخواطر إلى نشر ما عساه أن يكون مطويًا، والآن قد أعلمتك بما جنيت على نفسك من الذم والطعن.

فقال الآخر لو بينت لك حقيقة الأمر الذى نقموه على لقبلت عذرى فى ذلك التسويق، وأما الذى روى القصة فإن كان من أهل الفضل حقيقة فلا ريب أن هناك حسودًا خبيثًا أخبره بها على مثل ما اشتهى الحسد واقترح البغض وإلا فما الغيبة عندنا بقليل والحسد ملء الصدور إلا من رحمة الله وقليل ما هم، على أننى فى هذه السنة والحمد لله قد ربحت أرباحًا كثيرة، وعلى يدى ربح أهل البلد مبلغًا غير يسير وجلهم يثنون على من هذا القبيل وليس فيهم من يشكو بأن بخسته شيئًا من حقه كما أنهم يعرفون أن إقامتى ببلدهم وكونى منهم باب خير لهم، لكن ليس يخلو المرء من ضد بسوء صنيعه مهما تحرز، وحسب الملوم براءة الساحة وخلو الذمة مما قذف به الكثير من القبائح واتهم بأكله الأموال فعجبنا من مقالتهما وذهبنا.

وبينما نحن فى الطريق إذ رأينا فقيهًا سأله آخر، فقال: كيف حالك اليوم مع الطلبة؟. قال لا تسأل. أما الطلبة اليوم فقد تتصرم عليهم أيام الطلب وهم فى غفلة عن مقصودهم لا يوجهون إلى تفهم الدرس فكرا ولا يعبئون باستظهاره ويحضرون أمام الأستاذ بالأشباح لا بالأرواح فتحل المشكلات وتكشف الغوامض كأن لم تحل ولم تكشف إذ يقع على ذلك حين هم منطلقون وراء الوهم يطوف بهم بلاد الله شرقًا وغربًا حتى إذا انقضت أيام درسهم، والصواب أيام سجنهم فى تلك الدروس تخرجهم المدرسة إلى الدنيا فتتلقاهم بالاختبار وتندفع عليهم بالامتحان فعل الصائغ إذا أراد اختبار

المعادن، ثم تنبـذهم عن ريف كرامتهـا إلى سباخ الحقارة وتدفـعهم عن ذرى النباهة والعز إلى أودية الخمول والذل، حينئـذٍ يقول قائلهم ليتنى إذ كنت أقرأ اغتنمت مساعدة الأيام وكتبت على لوح الذهن تلك التقارير الشائقة والتفاسير الجليلة الرائقة، ولكن ماذا عسى يفيـد الدم إذا ضيع فى الصيف اللبن فأخذنا العجب من هذه الحكمة الفرقانية وذهبنا، فإذا برجل يقول لآخر: كيف حالك فى الوقت؟. قال أصبحت مسروراً بحـالى إذ أقضى قسمًا من اليوم فى النوم وقطعة فى الجلوس والطرقـات وجانبًا فى اللعب بالكرطة أو الضـامة أو أنواع القمار والغش والخيانة، وحصة فى مـجالسة النساء وأفعال النكاح وهكذا يمر على النهار والليـل ولا أضجر ولا أمل فـإن الاستمـرار على شىء واحد من دواعى الملل، فقال له صاحبه اذهب وغير مأسوف عليك بعدًا لك وسحقًا فلا أنبض الله لك عرقًـا ولا أعتق منك رقًـا، قمت فى قبـر ذلك وهوانك موتة الجمادات لا حشر بعدها ولا نشـوراً فهلا كنت تصرف نصف يومك فى كثرة الأذكار والاسـتغفـار، والصلاة والسلام على النبى المختـار، وأفعـال البر من زيارة صديق وعيادة مريض أو بين تعزية مصـاب وتهنئة مسرور أو بين غشيان معلم لأجل فائدة علمية وتصرف النصف البـاقى فى معاشك إن كنت محتاجًا إلى ذلك وإلا ففى المطالعة والكتابة وقصد متنزه، وأما اشتغالك بما ذكرت فهو دليل الهوان والخسارة. . . فـقال له وكيف حـالك أنت اليوم؟ قـال على ما تعرف منى سـابقًا من العـافية والانشـراح متقلبًـا فى نعمـة الحرية التى طوى بساطها أكثـر أهل الوقت فأصبحوا مسلوبى الإرادة معـترضين للسخط والمقت وأرجو أن تصـير كـذلك (وما ذلك على الله بعـزيز) والحمد لله عـلى فضله وإحسانه فقضينا العجب وذهبنا.

فبينما نحن فى الطريق إذ رأينا رجلين يقول أحدهما للآخر إن فلانًا كان يظن بى خيرًا حتى رأيته ينقص مما كان بيننا نقصان القمر فى دورته الأخيرة فشعرت أنه صدر منى ما يكره ولا أدرى ما الذى صدر؟ فبحثت عن الخبر، فقيل لى إنه يقول أنك لست فى الأدب والتاريخ بخبير، وما كنت لذلك أهلا فى المقام والمسير، وبلغنى أنه يعاتبنى أشد الغيبة مع أنى أعرفه اسمًا ووسمًا فضربت عنه الذكر صفحًا وهو منى فى خل لا يخاف ظلمًا ولا هضما، ولا جله نمقت الكتاب بفراسة صادقة، وحكمة خارقة ولجيله لفقته بسياسة رائقة فإن وقع فى حيز القبول فهو غاية المأمول وإلا فليس بأول طامع خابت لديه المطامع ألا وإن من لم يلاحظ المقصد وشمخ بأنفه شرد به رسول الأدب من خلفه، وحسبه أنه جاءه كتاب نزهة لبنى الآداب وذكرى لأولى الألباب يختاره العقلاء لعلمه وأدبه والسفهاء للهوه ولعبه وليس هو كمثل زوجة لا تحل إلا لواحد أو المملكة لا تجمل إلا بملك لا زائد، بل كالنسك والمال يجمل بكل ذى أرب، أو كالنار تحرق ما يقذف فيها من الحطب وما هو إلا هدية هادية للعنصر العصرى فى متقلبة ومثواه، أو صراط مستقيم بين يدى نجواه، فإن قال عجالة، قلنا وجيزة، وإن قال رسالة، قلنا عزيزة، دانية الشرح للجنان، وجنى جنتها دان، دونت لأربها، وأدنت لربها ومدت بأرضها وأدت لفرضها من مواعظ مجموعة ونصائح على سرر مرفوعة أنيقة رشيقة حقيقة وثيقة رائقة شائقة باهرة زاهرة باهية زاهية فيها علوم للعموم وحقائق دقائق رقائق بعبارات وإشارات من غوامض الخواص فهى أنيسة حسية ترفل فى أكسية سندسية نرجسية قدسية فردوسية روحانية نورانية من نفحات نزلات معارف عوارف فرقانية لحكم لقمانية بخواتم سليمانية فإذا هى تلقف ما يأفكون.

ثم قال صنعته نزهة مشـرفة فنعم الصناعة ونعم المعرفة ونعم المؤنس فى بلاد الغربة ونعم القرابة والقـربة ونعم الخليل والدخيل والوزير والنزيل ثم قال لكن التـآليف اليوم والتـداوين لا طائل تحتـها لاستـغراق الناس أوقـاتهم فى الضروريات الفانية وكثرة تقلباتهم فى وجوه الملاهى بكرة وعشية.

وبالجـملة فأهل العلم مـن جنته هبطوا، وغـيرهـم فى الفتنة سـقطوا، فالزمان زمان البطولة وقلة العلم وكثـرة الجهالة، فأن قلت لهم ادرءوا الحدود بالشـبهـات قالوا زيـن للناس حب الشهـوات، وإن قلت لهم اتقـوا الله وإن عليكم لحافظين. قالوا سواء علينا أوعـظت أم لم تكن من الواعظين، فعجبنا من كلامه وتركناه وذهبنا.

فبينمـا نحن فى الطريق إذ لمحنا جماعة جلوسًا بإزاء حائط فـقصدناهم علنا نستـفيد من فـرائد فوائدهم ونوابغ نوادرهم وأخذ صـاحبنا عبـد الباسط المراكشى يعـرفنا بكل واحد منهم وأنهم المشار إليهم فى هـذا المصر والمرجوع إليهم فى العصر فوقع كلامه عندنا موقع استحسان وازدادت رغبتنا فى هاتيك المحاضرة والمسامرة التى تـبرز من بين هؤلاء الأعيان وعلمنا أنهم ذوو لطائف يسترشـفها السمع مداما ويـفضلها السامع على العقـود نظامًا وأنهم من القوم الذين لا يبرز من شفتيـهم إلا الذهب الإبريز وإن كل لسان لم يكن كلسانهم فهـو محبـوس فى الدهليز، وأنهم كروضـة فضل تفتـحت أزهارها وأثمرت بأنواع اللطائف أفنانها وتنورت بالحقائق أغصـانها ودوحة مجد تنوعت ثمارها وسماء علم نجـومها وأمطرت بالمعارف غـيومها وأنهم القوم الـفائزون بالقدح المعلى والشرف الذى لا يبيد ولا يبلى.

فأتينا على عبـد الباسط حيث كان السبب فى المقـام بهذا النادى واغتنام

هذه الأوقات التى يحدو بحسنها الحادى ويترنم بها الشادى ويثابر على تحصيل فوائدها الرائح والغادى

ثم أخذنا مجلسنا منهم ناحية وأعرناهم أذنا واعية فإذا بأحدهم يقول لا يخفى ما حل بهذا القطر المغربى من إسقاط الأحكام الشرعية كإبدال الزكاة بالترتيب فى سائر الإيالة، وأحداث البنك المؤدى إلى إدخال الربا فى سائر المعاملات وغير ذلك مما هو معلوم لدى الخصوص والعموم.

وقال الآخر: إن من النفوس نفوسا تؤثر الكثير المظنون من المنافع على القليل المقطوع به منها، متى هان على الناس بيع الدرهم بدرهمين أخلدوا إليه وأعرض أكثرهم عن مشقة المكاسب المدنية من نحو تجارة وصناعة وزراعة، لأن ما تأتى به هذه الأسباب من النمو المالى على ما فيه من الجهد والعناء مظنون على العكس مما يجىء به المكسب الربوى، فإنه مع قلة مؤنته وخفة عمله مشهود ومتحقق، والنفوس أكثر ميلا وأشد ولوعا بما كان من هذا الضرب من المكاسب، وهناك مهب الفقر المدقع ومصب العجز المدمن، وهما خطبان أليمان لا ينتظم بهما جنس ولا يصبر عليهما اجتماع، وذلك ما يفعله الربا بالهيئة الاجتماعية.

وقال آخر: ما زال من قومنا أناس لا يروقهم السرور ولا يطيب لهم فرح ما لم يرتكبوا جرائم وإن لم تكن مقصودة. إلا أن صدورها منهم وارتكابهم لها لا ينقص شيئا من قيمتها، ولقد تكاد لا تخلو أفراح سكان هذه الأرض من جرائم وآثام ومنكرات ما أنزل الله بها من سلطان وما قرها عقل أو وافق عليها ذوق سليم، ولسنا فى حاجة إلى إنكار هذه المنكرات الدالة على الهمجية والتوحش، وحقًا إن هؤلاء القوم لا يعقلون ولا يفرقون ببين ما

يضرهم وما ينفعهم، ولا ما يجلب إليهم الأتراح ويزيل من بينهم آثار الأفراح.

التعامل بالربا وضرره بالمجتمع

وقال: آخر أن الغمر يظن أن المعاملة مع البنك اليوم فاتحة الربح وعنوان السعادة، وما درى أنه بالتوصل إليه قد سعى فى توريطه وتجريده مما ملكت يداه، إن هذه المعاملات مع البنوك الوقتية هى التى التهمت أرباح التاجر، وأذهبت بثمرة كده واجتهاده، وأصبح يمشى فى تجارته القهقرى، وأمسى يعض على يديه على ما أضاع من جهود وهدر من عمر.

وقال آخر: إن نظام العالم كاد أن يختل بكثرة الربا، ولا يخفى أن الربا يؤدى إلى انقطاع المعروف والإحسان بين الناس بسبب منع القرض والسلف، فأجابه بعضهم بقوله: أما نظام العالم فلا يتأثر بذلك، وأما الذى يختل نظامه هو المعرض عن مصالح العالم من نحو تجارة وصناعة وزراعة استغناء بالربا، وها نحن نرى الغالب من أهل زماننا هذا قد ذهبت أملاكهم بسبب ذلك وأوقعهم فى ذل الفقر والمسكنة بقية أيامهم، وصاروا أذنابًا بعد أن كانوا رءوسا.

فعند هذا التفت إلينا الشيخ عبد الهادى وقال: لله در هؤلاء لقد مدوا إلى أهل هذا العصر أغصان علمهم، حاملة أثمار ذكائهم، زاهية برونق إنشاءاتهم، بل بثوا أشعة أفكارهم الخفية فى أصقاع البلاد تنويراً للأذهان، وتذكرة لذوى العقول الصحيحة فى السر والإعلان، وبمثل كلام هؤلاء تنقشع تلك الغمامة، ويصحو جو الفكر.

ثم قال آخر من تلك الجماعة: أما الربا فهو الذى ولا يذر إذا شب فى

جرن. الربا هو الريح العاصف الذى ما أصاب أرضا إلا وتركها صلعاء ليس على ظهرها أثر اخضرار. الربا هو السيل ينخر حسم التحارة ويسكنه اللحد أحب أم كره، فكم أشغل كاهلا وأشغل ذمة، واكتسح ثروة، وأنزل عزيزًا من شامخ عال إلى خفض، وأعلى ذليلا ضربت عليه الذلة والمسكنة، فأمسى كالهر يحكى انتفاخًا صولة الأسد. ثم قال: ولا يزال أهل الربا كذلك حتى يغبر لهم وجه الدهر، ويظهر الانقلاب المخيف فى ليل نجمه ضرير.

فالتفت إلينا الشيخ عبد الهادى وقال: بخ بخ أرجو أن لا تكون هذه الكلمات صرخة فى واد أو نفخة فى رماد، بل تكون كخبر تشتاقه الأسماع وتنشرح له القلوب.

ثم قال: الدعاة فى الأمم أعداؤها وخصومها، لأنهم يحاولون أن يرزئوها فى دخائر نفوسها ويفجعوها فى أعلاق قلوبها. الدعاة أحوج الناس إلى عزائم ثابتة وقلوب صابرة على احتمال المصائب والمحن التى يلاقونها فى سبيل الدعوة حتى يبلغوا الغاية التى يريدونها أو يموتوا فى طريقها. الدعاة الصادقون لا يبالون أيسميهم الناس خونة، أو جهلة، أو زنادقة، أو ملحدين، أو ضالين، أو كافرين لأن ذلك لا بد أن يكون. الدعاة الصادقون يعلمون أن سدينا محمد ﷺ عاش بين أعدائه ساحرًا كذابًا، فلما مات مات سيد المرسلين، وأن الغزالى عاش متمتمًا بالكفر والإلحاد، ولما مات مات حجة الإسلام، وأن ابن رشد عاش ذليلا مهانًا حتى كان الناس يبصقون عليه إذا رأوه، ومات فيلسوف المشرق، فهم يحبون أن يكونوا أمثال هؤلاء أحياء وأمواتًا.

سيقول كثير من الناس وما يغنى الداعى دعاؤه فى أمة لا تحسن به ظنًا

ولا تسمع له قولا؟ إنه يضر نفسه من حيث لا ينفع أمته، فيكون أجهل الناس وأحمق الناس. هذا يوسوس به الشيطان للعاجزين الجاهلين، وهذا هو الداء الذى ألم بنفوس كثير من العلماء، فأسكت ألسنتهم عن قول الحق وحبس نفوسهم من الانطلاق فى سبيل الهداية والإرشاد، فأصبحوا لا عمل لهم إلا أن يكرروا للناس ما يعلمون، ويعيدوا عليهم ما يحفظون، فجمدت الأذهان، وسكنت المدارك، وأصبحت العقول فى سجن مظلم لا تطلع عليه الشمس، ولا ينفذ إليه الهواء. الدعاة فى هذه الأمة كثيرون ولكن لا يكاد يوجد بينهم داع واحد، لأنهم لا يوجد بينهم شجاع. أصحاب الصحف، وكتاب الرسائل، والمؤلفون، وخطباء المجامع، وخطباء المنابر كلهم يدعون إلى الحق، وكلهم يعظون وينصحون، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولكن لا يوجد بينهم من يستطيع أن يحمل فى سبيل الدعوة ضرا، أو يلاقى فى طريقها شرا، رأيت الدعاة فى هذه الأمة أربعة: رجل يعرف الحق ويكتمه عجزًا وجبنًا، فهو ساكت طول حياته لا ينطق بخير ولا بشر، ورجل يعرف الحق وينطق به ولكنه يجهل طريق الحكمة والسياسة فى دعوته فيهجم على النفوس بما يزعجها وينفرها، وكان خيرًا له لوضع ما يصنع الطبيب الماهر الذى يضع الدواء المر فى وسط شيء حلو ليسهل تناوله وازدراده، ورجل لا يعرف حقا ولا باطلا، فهو يخبط فى دعوته خبط الناقة العشواء فى مسيرها، فيدعو إلى الخير والشر، والحق والباطل، والضار والنافع فى موقف واحد، فكأنه جواد امرئ القيس الذى يقال فيه:

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه من عل

ورجل يعرف الحق ويدعو الأمة إلى الباطل دعوة المنجد والمجتهد، وهو

أخبث الأربعة وأكثرهم غائلة لأنه صاحب هوى يرى أنه لا يبلغ غايته منه إلا إذا هلك الأمة فى سبيله، فهو عدوها فى ثياب صديقها لأنه يوردها موارد التلف والهلاك باسم الهداية والإرشاد.

فليت شعرى من أى واحد من هؤلاء الأربعة تستفيد الأمة رشدها وهداها؟. ما أعظم شقاء هذه الأمة وأشد بلاءها! فقد أصبح دعاتها فى حاجة إلى دعاة يميزون لهم طريق الدعوة ويعلمونهم كيف يكون الصبر والاحتمال فى سبيلها, فليت شعرى متى يتعلمون متى يرشدون؟

فعند هذا أردنا القيام، فإذا ببعضهم يقول: لا تدخل أمرا لا تعرف كيفية الخروج منه كالذين دخلوا تجارة بغير علم ولا فن، فإنهم يلتمسون الخروج وما اهتدوا إلى الباب، فهم يدورون كحمار الطاحونة، فتارة ينطحون الحائط وأخرى السارية، وهم ينادون اللهم اجعل لنا من أمرنا فرجًا ومخرجًا.

وقال آخر: لا تمش فى الأرض مرحا، ولم تكسب فى جيبك الطويل ولا فى سروالك المزوق فرنكا، ولا فى دماغك فكرة، وإن كنت حاكمًا أو أميرًا أو قاضيًا أن تمشى كما اتفق، لأنه فى السابق كانت المزية فى التواضع. وأما الآن فهى بالخيلاء وتزويق الثياب، وإن كانوا لا يحسنون حتى صلاتهم المفروضة على كل بالغ إن كانوا يعلمون بالبلوغ ما هو؟

وقال آخر: صارت الأنذال اليوم أخلاء، والخطافون أمناء، وقطاع الطريق حراسا، والسكارى سمراء، والمجانين أصحاب التدخين ندماء والمصلحون والأحرار والزعماء رعية، والعلماء أعداء لأنهم يصدعون بالحق.

وقال آخر: أصحاب الدنيا العفاريت يبذلون كل جهد ليتوصلوا: إما لحكومة أو قضاء أو عدالة.

وقال آخر: لا تدخل لبطنك لقمة قبل أن توجه لرأسك حكمة وأن كانت مأخوذة من عبد حبشى فلا بأس، لأن الحكمة ضالة المؤمن التقطها حيث وجدها، ولو فى الجرائد التى يلف فيها التجار القهوة والسكر والأتاى والتمر والزيتون والفلفل والحنتيت والصابون والثوم، وحتى الفحم واللحم والتى يرمونها فى بعض الأحيان للاستجمار فى الكنائف.

ثم قال اتقوا الله يا عباد الله فى الكتابة وأسماء الله والرسل والأنبياء والآيات والحكم: اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منها.

وقال آخر: الحياة الطيبة والعمل صالح هو العمل المفيد الخالد الأثر. وأما من أنفق حياته فى اللهو واللعب وصرف ماله فى شهواته وزينته أو جاد به تفاخرًا فهو من الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وباءوا بكره الناس لهم، ومات وهو مذموم فى الدنيا والآخرة.

وقال آخر: الصناعة فى اليد أمان وسلامة من الفقر وباب التقدم وعامل النجاح وينبوع الفلاح ومصدر الثروة وطريق الغنى، وهى عماد الأمم وحضارتها وسبب رخائها ويسرها وسعادتها.

وقال خر: الناس مراتب، فمنهم أغنياء يعيشون بالراحة والرخاء، ومنهم فقراء يعيشون بالتعب والعناء.

وقال آخر: كم من رجل يعيش بالراحة والرفاهية ويربى عائلة كبيرة ودخله قليل جدًا، وكم من رجل يعيش بالتعب والعناء وتظهر عليه علامات الفقر المدقع، ودخله وفير كثير جدا.

وقال آخر: إن الإنسان مهما كثر ماله لا يضمن بقاءه إلى آخر حياته بل

ربما افتقر ومد يده إلى السؤال أو انحط عن درجته وصار مادحه هاجيًا، وصديقه له معاديا. والادخار والتوفير أمر حسن ما لم يصل إلى درجة الشح والبخل والتقتير فيكون مذمومًا، كذلك إنفاق المال فى سبيله يكون حميدًا ما لم يصل إلى درجة التبذير فيكون مذمومًا.

وقال آخر: المال فى وقتنا هذا إله معبود، وعبادة قد حادوا عن جادة الطريق وساروا فى الترهات، فيطلبون الغنى بالمقامرة، والسعة بالمخادعة فى معاملتهم كلها، ويتظاهرون أنهم أغنياء، ولو كانوا فقراء لا يملكون شروى نقير.

وقال الآخر: إذا تمكن الدين من صاحبه لم يقف فى طريقه مال قارون، ولا ينجو منه إلا بالمنون. وفى الخبر الصحيح "لا وجع كوجع العين، ولا غم كغم الدين".

وقال آخر: إذا تبين لإنسان حقيقة أمره، وحقق النظر فى مستقبله، وقاس ما لم يره فى أموره بما يراه من أمر غيره رأى أن من أول واجباته أن يتخذ الاقتصاد عادة له، وأن يلزم سلوك سبيل الحكمة فى الإنفاق، فلا يبدد ما يصل إلى يده مما قل أو أكثر، بل يجعل مما يكسبه نصيبًا لعاجل نفقته، ويدخر منه جزءا لحاجته فى مستقبله، حتى إذا أدركه المرض أو تعطل من العمل وجد مما ادخره كنزًا ينفق منه حاجته ويسد به مطالبه.

وقال آخر: عد الحكماء من أمهات الفضائل حب الوطن، والمراد بها أن يبذل المرء ما يقدر عليه مما أعطاه الله من العلم والمال والخبرة والنصح فى عامة الأحوال والأزمان لمنفعة وطنه ومواطنيه، فيستقيم فى وظيفته، وينصح فى تجارته، ولا يغش فى حرفته، ويبذل جهده فى تحسين حالته، ويلزم عليه

فى أوقـات الفراغ من العـمل قراءة كـتب الأدب والحديث والحكم ومطالـعة الصحف والمجلات العصرية ضنًا على الوقت أن يبـذل فى سبيل اللهو واللغو والأحاديث التـافهـة. ويلزم عليه أن يقـدم على جلائل الأعـمال مع الصـبر والثبات، ويحـمل نفسه على معالى الأمور الـعظام، فان الكسل من النقائص التى توجب الخسائس والشرور، وتدل على ضـعف فى إدراك صاحبها وحطة فى نفسه، وليحرص على سعادة غيره، فـان اجتهاده فى إسعاد لنفسه، وقصر جهده على إسـعاده لنفسه أشقى لها، وذلك لأنه إذا سـعى كل فى نفع غيره توفر النفع للـجميع، وإذا سـعى كل لمجرد نفع نفسـه بغيره، فـيتوفـر الضر للجميع.

وقال الآخر: يجب على المعتنى بإصلاح نفـسه أن يغتنم الحياة التى بها فارق الأموات والجماد، فيصـرف زمنه فى المهم دون غيره، وأن يحفظ وقته، فان من ذهب من عمره شىء ولو ساعة لحرى أن تطول حسرته عليه.

وقال آخر: إن الرجل ليعجب مما يصنع الساحرون؟ أفلا يعجب من لذة تمر على قلبه مر السحاب، ثم تنقلب مخـازى تكتب فى صحيفة حياته الدهر كله.

وقال آخر: العاقل هو الذى صير أوقـاته كلها ربيعًا، فالوقت من أسنى مواهب الخـالق التى لا يمكن اسـتعادتهـا متى فـاتت، فلا تتـصرف فـيه بما يؤسفك على فواته من هم أقل منك معرفة وأدنى درجة.

النهى عن التبذير ووصايا أخر

وقال آخر: إن عماد النفقة المنزلية الاعتدال والقصد بين التبذير والتقتير، وشرطها أن يـكون الإنفاق أقل من الدخل ولو زهيدًا جدًا بحـيث تجمع ثروة

من الموفرات مع مرور الزمان، فإن للثروة المجموعة من الموفرات الزهيدة، فائدتين: أولاهما أنها تكون مالا احتياطًا يلجأ إليه عند الحاجة فى حالة مرض أو عجز أو عسر، وثانيهما تكون قوة إضافية تثمر فى تجارة أو صناعة بحيث تكون ذات ريع لتنمو وتتكاثر من نفسها مع الزمان.

وقال آخر: فالعاقل هو الذى يكون سهل اللقاء، كثير البشاشة ولو فى حالة المرض. والعاقل من كتم بؤسه وجعل شكواه لمن يقدر على غناه. والعاقل من ترك الحضور فى مواقع المنازعة، فإنه لا يخلو من قسط من أذاها ولو بالمطالبة بأداء الشهادة. والعاقل من ترك الانبساط فإنه عورة من عوراته. والعاقل من لا يتصنع تصنع المرأة فى التزين، والتبذل كتبذل العبد.

وقال آخر: اصغ لمن ينتقد عليك، واهجر لمن يطريك بما ليس فيك فإن من أظه عيبك أراد تهذيبك، ومن عرفك نقصك أرشدك للفصيلة ولا تغتر بمن يطريك، ولو بلغت فى الكمال ما بلغت.

وقال آخر: إذا تظاهرت لعدوك بالعداوة فقد دللته على نفسك، وأبنت له الطريق إلى إهلاكك، وصارحته بأن يزداد استعدادًا لك.

وقال آخر: من لا عدو له لا خير فيه، ولا منزلة أسقط ممن لا عدو له لأنها منزلة من ليس لله تعالى عنده نعمة يحسد عليها، عافانا الله.

وقال آخر: المرآة التى ينظر فيها الإنسان إلى أخلاقه، هى الناس تتبين محاسنك من أوليائك منهم، ومساويك من أعدائك فيهم.

فعند هذا الحد هممنا بالنهوض من هذا المجلس الذى وجدناه روضة غناء، وجنة فيحاء. قطوف لجانيها دانية. وفواكه معانيها بادية، ومودعة من أصناف التحف كل ما رق وراق من المواعظ الرقيقة والآداب البالغة الدقيقة.

فإذا بقائل منهم يقول: المواعظ سياط تضرب بها القلوب، فتؤثر فى القلوب كتأثير السياط فى البدن، والضرب لا يؤثر بعد انقضائه كتأثيره فى حال وجوده، لكن يبقى أثر التألم بحسب قوته وضعفه، فكلما قوى الضرب كانت مدة بقاء الألم أكثر.

كان كثير من السلف إذا خرجوا من مجلس سماع الذكر خرجوا عليهم السكينة والوقار، فمنهم من كان لا يستطيع أن يأكل طعامًا عقب ذلك، ومنهم من كان يعمل بمقتضى ما سمعه مدة.

ثم قال وأفضل الصدقة تعليم جاهل أو إيقاظ غافل. ما وصل المشتغل فى نوم الغفلة بأفضل من ضربه بسياط الموعظة ليستيقظ.

المواعظ كالسياط تقع على نياط القلوب. فمن آلمته فصاح فلا جناح، ومن زاد ألمه فمات فدمه مباح.

ثم قال إنما التأديب بالسوط من صحيح البدن، ثابت القلب، قوى الذراعين فيؤلم ضربه فيردع. وأما من هو سقيم البدن لا قوة له، فماذا ينفع تأديبه بالضرب.

ثم إن الشيخ عبد الهادى التفت إلينا وقال: أما المجلس فمجلس بنات أفكار رائقة، ونتيجات أنظار حادقة، تتولد منه قوة الخيال، وتتسع عنده ملكة التفكير، وأهم شيء يستفاد منه الاجتماع، وثمرته فى المجتمع الإنسانى، ولكن طول مقامنا به يفوت أغراضًا أخر فهلموا بنا إلى غيره، فقلنا على بركة الله ونعم الرأى رأيت، والمشار الذى إليه أشرت، فنهضنا وذهبنا.

فإذا نحن برجلين يقول أحدهما للآخر: هل سمعت فى هذه الأيام ما وقع من العجائب الوقتية بالحضرة المراكشية. قال وما ذاك؟ قال تخاصم

رجلان فى امـرأة واحدة، وكل منهمـا يدعى أنها زوجتـه، فأمرهمـا القاضى بإحضار عقد النكاح، فأتى به كل واحد منهـما وأحضرت الزوجة مقره الثانى رافضـة الأول، وتكلمت بكلام يشعر أنهـا لا تعرفه ومـا رأته قط، وأظهرت غرابـة فى ذلك كانت هزة عـجب ونشوة فى نفـوس الحاضـرين فلما سـمع القاضى بذلك تبسم وضـحك حتى بدت نواجذه على أنه استطلع جليـة الخبر وأطلع أصحابه على ذلـك، وصاروا يتغامزون عليـهما، وأشبعـوهما كلمات الهزء والسخـرية، ثم التفت القاضى وقال: إن الواجب أن أعـمل البحث من السابق منكمـا واللاحق؟. أما الثانى فقد خـرج من بين يدى القاضى وهو لا يعى شيـئًا، ثم تنفس الصـعداء وأخذ يجفـف العرق البارد الذى انهـمر على جبـينه، وتوجه وهو مـذموم ملوم. وأمـا الرجل الأول فإنه أحـضر الشـهود والجيران على أنهـا زوجته، وأن الثانى قاتله بمحله وتطاحنا بالعـصى، وتقاذفا بالمدى، وتواثبا بالقـذائف تحت شرفات الدور، وسقائـف القصور، ومطلات الغوانى، إلا أنه بعـد هنيهة هدأ وسكن جأشـهما، وانجابت سـحائب الطيش والضـلالة على أن الأول لما حل به ما حـل من قبل زوجـته. قـال له بعض خاصة: طلق العـاهرة، فأجابه بقوله: إن هذا كـلام فارغ وهذيان وتخريف، وطلاقهـا عندى من قـبل: الحلم الذهبى، وخاتم سليـمان، ومـصبـاح علاء الدين. سيما والمرأة سيـدة فتية فى مقتبل الشباب، فـقال له صاحبه: إن هذه القضية قـد أثارت فى الأحزاب الاشتراكية فى العالم كله ضجـة كبرى وتأثيرا عظيمًا، فطلقها واكتم هذه الخصلة الشنيـعة فإنها خصلة تنكر، فارجع لنفسك وتبـصر، وتأمل فى تلك الحـالة السيـئـة وتفكر، تجد ذلك المرعى الوخـيم، والمشرب المشترك الذميم يجب على العاقل الغيور تجنبه، ولا ينبغى له تطلبه، فإنه مذهب شيطانى لا يذهب إليـه إلا كل نذل، ومن سلك فيه عن الصواب

ضل، ومثلك مع عراقة أصله، ورجاحة عقله، لا يرمى إلا إلى معالى الأمور بطرفه، ويتحاشى عن ردىء القول وسخفه، وما يذم من الأفعال والأمور الثقال، وإن فتشت وناقشت ودققت فى القضية وباحثت، يوشك أن يجربك الحال إلى كثرة القيل والقال، واتساع ميدان وشاة الرجال الذين لا يتركون أديمًا صحيحًا ولا فؤادًا مستريحًا، فإن هذه بغيتهم، وتلك سنتهم، فكن حيث لا يشمت بك عدو، ولا يتحرك لك سكون، ولا يقر هدوء. واعلم أن الزمان سريع الاستحالة، لا يبقى على حاله.

ثم إن الرجل الأول التفت لصاحبه وقال: هذا بعض ما وعاه ذهنى من عيوب هذه القضية الشنعاء، فضلا عما تخللها من جناب القاضى المقابل لها بتلك الاجتهادات السخيفة التى ضايقت السامعين وأوحشتهم، فقضينا من هذه القضية العجب.

ومررنا فبينما نحن فى الطريق إذ سمعنا رجلا يقول لصاحبه إن فلانًا الفلانى الذى تعلم قضيته بدار الشرع مع زوجته فلانة، قد طلقته اليوم وسقط ما بيده من تلك الحجج التى كان يعتمد عليها سابقًا. قال وكيف ذاك؟ قال إنها لما راودته بكل وجه على فراقها، وهو لا يزيده ذلك إلا شغفًا بها ومحبة فى جانبها، وتحققت أن حجته توجهت عليها ولم يبق إلا أن تأتى لبيته رغمًا فعمدت إلى بعض العدول الذين لا يخشون الله ولا يراقبونه فأرشتهما بقدر من المال على أن يزورا عليه طلاقها ففعلا وتظاهرت به وبقى باهتًا فى القضية لا يدرى ما يفعل، فالتفت إليه الصاحب وقال: ما ذكرت لا يكاد يصدقه العقل إلا مع فقد لهم النهضة الصارمة التى ترتعد لها فرائض أهل الغش والتدليس، والانسلاخ من دائرة الإسلام والإنسانية، فعندئذٍ يبزغ فجر هذه

الشدائد والأهوال التى تزيد فى مرارة الحياة مرارة، وحينئذٍ تكون مقاساة ظلمات القبور أهون من الالتذاذ بربات القصور.

ثم قال: وقد اعتم فجأة، وأظلم نور وجهه الوضاح، وتناوبته الهموم والأتراح، وإذا وصل عدول الوقت إلى هذا المقت الذى يكون سببًا فى تخريب الممالك الإسلامية والأوروبية وبذرها قاعًا صفصفًا، وتزيد به الأزمنة تعقدًا على تعقدها، فلا مطمع إذن فى أمان ولا سلام، ولا أمل فى سعادة ولا هناء، ولا إخاله إلا إشاعات مزيفة لا أصل لها فى الحقيقة.

فقال الرجل قد كان ذلك ولا يخفاك أن العدول فى هذا الوقت كنار تحت الرماد، فإن صادفها سكون الجو خمدت وانطفأت جذوتها، وإن صادفها الريح أزال الرماد عنها وأوهجها فيزيدها اشتعالا.

فقال الصاحب إن كان حقًا ما ذكرت مع وجود سواس الوقت وعلمائه، فارتقب انحاطاطًا وشناعة ما بعدها من شناعة، ورزية هامة كبيرة ما فوقها من رزية، حتى تصير الأرض تزلزل زلزالها فلا تسمع إلا صوت الأنبية وهى تسقط على ساكنيها، والدور تتحطم على من فيها، والزوابع محيطة بها من كل جانب، وألوف من الناس تقتل، وتصبح المدينة وأهلها فى هم وقلق لا يدرون ماذا يصنعون، وقد شتتهم العواصف وذهب جلهم ضحية بسبب إمكان روجان تلك الشهادات الزورية، والأمر لله الذى لا تخفى عليه خافية، وإذن تتظاهر النساء على الأزواج بما أردن من وجوه المخالفات، وإبداء المساوى والموبقات، وفى أدنى شىء من ذلك تعمد إحداهن لبعض عدول هذا الوقت فترشيه فى أن يفعل لها مثل ذلك فيكون.

ثم إن الصاحب بقى باهتًا يفكر فى هول ما سمع من تلك الخيانة

الشنعاء التى كادت أن تعم جميع العدول وغاص فى بحر التأملات واستولى عليه الذهول من فظاعة الجريمة، وأى جريمة أفظع من شهادة الزور.

فقال له الرجل كيف بك لو أخبرتك بجميع أحوال هذه الفرقة التعسة التى كادت أن تكون أشر من الفرق الاثنين والسبعين؟ بل لا أراك إذن إلا مفتت الأكباد حزنًا حتى يتخيل لك أن السماء قد انطبقت على الأرض من كل جانب، وأن الدين المحمدى بلغ نهاية التقهقر وقضى عليه القضاء المبرم من حيث لا يشعر.

وبالجملة فأقول لك إن تظاهر هؤلاء العدول بهذه النقائص والتلبيسات التى يخدعون بها الناس ويخرجون لهم الكذب الحبريت فى صورة الواقع الذى لا ريب فيه، هو سبب انحباس المطر فى هذه الأزمنة عن سكان أرض المغرب ووقوع الجائحة فى غالب المحروثات وغيرها.

ونؤمل ممن لهم النهضة الصارمة والسيطرة والسلطنة فى الوقت أن يقطعوا مادة هؤلاء القوم: قوم الفساد والطغيان بأن يأخذوهم بأنواع العذاب الشديد: من سجن طويل وعزل مديد أو نفى بعيد، ويأخذوا الحيطة اللازمة حول تلك الحافات والمهاوى العديدة التى عم ضررها وشاع شررها، فإذا فعلوا بهم ذلك اكفهر الجو وتلبدت السماء بالغيوم وأرسلت السماء مدرارها الغزير ودامت خيوطه فى إبانة متوالية، وقد خيل لنا أنه فى المستقبل العاجل يكون ما أشرنا به مستوفى.

ثم قال الصاحب وكيف يتصور فى العقل أن الرجل المحدث عنه يطلق زوجته وهو مهما رآها لم يكد يقع نظره عليها إلا وأخذ صدره يعلو وينخفض، ووجهه يحمر ويصفر وأوتار قلبه تدق نغمات الهوى شأن

العاشقين أمثاله عند اللقاء، فكيف يطلقها وهو يعشقها عشقًا أصاب فؤاده بسهمين: سهم جفنيها فاخترقاه، وسهم امتداد حبال حسنا إلى إرادته فقيدتها وجعلته أسير جمالها، وقد كابد الغرام بها زمنًا وخاض بحره العجاج. حتى صارت تتقاذفه الأمواج، بحيث يستطع الجلوس فى غير سريرها حتى الآن، فمن كن حاله هكذا، فكيف تسلم له هذه الدعوى، أو يسمع منه ما يوجب الشكوى، وما أظنها إلا مقالة مزورة، وقد أوضحتها لنا التجاريب الحالية، والتلوينات العوجاء الصادرة من هؤلاء الأفاعى الوقتية، وإنى آسف لهذا كل الأسف، وفى عزمى أن أرتحل عن هذا البلد قبل أن تخفق عليه رايات الغضب وتحل به الصواعق السماوية، وأنت كيف يتسنى لك الإقامة بها وأنت ترى وتسمع ولا إخالك إلاذًا خيالات صبيانية تبيتها على الأوهام، وأما أنا فإنى أتكلم عن ثقة وأعى ما أقول، ولكنى سأمهلك إلى غد لتفكر فى الأمر وتزنه بميزان عقلك فيظهر لك إن كنت من ذوى العقول الراجحة أن الفرار من هذه الأرض هو الأسلم للدين.

فقال له الرجل هون عليك فأنت خال من كل مسئولية والأمر واقع لا محالة رضيت أم لم ترض ولا مناص منه فى المغرب كله، بل حتى فى المشرق، وما عليك أن ترجع عن رأيك هذا الذى لا يأتى لك بأدنى ثمرة ولا يرجى منه فائدة، ولا يدفع به غائلة، وأيضًا فإنك أسير لا تملك حرية الخروج من هذه الأرض لتتخذ مقامًا غيرها، فالأجدر بك أن تخلد إلى السكينة وتدع الأمور تجرى فى أعنتها، وما لك وللناس والتعرض لشئونهم، فالأولى بك أن تشغل بما يعنيك، وسأتركك الآن كى تتروى فى شأنك وأقسم عليك أن لا تعطى نفسك هواها لتصبح بين عدوين شديدين: الغربة عن الوطن، ووقوع

ما هو أقبح بما سمعت منى، على أننى أعذرك فيما واجهتنى به لعلمى بأنك شديد التدين كثير التمسك بالشرع المطاع، ولما هو مقرر فى ذهنك بن منصب العدالة منصب دينى يجب أن يصان من كل ما من شأنه أن يشين شمعته أو يحط من كرامته لدى الأمم الغربية وإن هذا المنصب يجب أن يبذل فى إحيائه ورفع شأنه كل مرتخص وغال، ولما علمنا أن القضية انتهت إلى هنا. تركناهما متعجبين من محاورتهما وفصاحتهما.

وذهبنا فبينما نحن فى الطريق إذ سمعنا قائلا يقول لآخر بينما أنا مضطجع على فراشى، والأهل نيام وتجاوزت الساعة الواحدة بعد نصف الليل إذ سمعت حركة المشى بأسفل الدار فنهضت من مضجعى محاذراً واطفأت السراج وفتحت باب الغرفة بكل هدوء ووقف مصغيًا بأذنى من المتحرك بأسفل الدار فى ذلك الوقت الحالك فما لبثت أن سمعت وقع أقدام فتواريت خلف الباب ومددت نظرى لأرى من يتحرك، فإذا بجماعة من اللصوص مجندين وقد استولوا على جميع أثاث المنزل.

فقال له الآخر وما فعلت بعد هذا؟ قال وأى شىء أفعل وبأى شىء أدفعهم عنى وعما ملكت يمينى، ولو لقيتهم لتسببت فى حتفى، ولكنى تأسفت على الحالة التى صيرتنا فيها الحكومة من أخذها منا آلات الدفاع ولو بقى بيدى شىء منها لعمدت إلى مسدس أو عشارية، وأفرغت عليهم رصاصات متوالية واحداً واحداً، وهذه إحدى الأمور المحزنة فى الوقت فقال له: وكيف كان انتقال تلك الأثاث المنزلية من بيتك وأنت تنظر؟ قال لما أحاطوا بها أجمع وقفوا قليلا. ثم عطف بعضهم نحو آخر وأخذ برلسه الذى على ظهره وقطعه نصفين ووصلهما حتى صارا كحبل ممدود. ثم قصد مطبخ

الدار، وكان قد لا حظ فيه نافذة مرتفعة غير مشتبكة بالقضبان الحديدية كبقية نوافذ المنزل، ومع أنها صغيرة فقد تحقق من إمكان مرور جسمه منها فخرج، ثم صار البعض الآخر يناوله تلك الأثاث الأشرف فالأشرف إلى آخرها، ثم صعد الباقى من أولئك اللصوص وخرجوا من الناقذة بكل صعوبة، ولما صاروا فوق السطح تمسك واحد منهم بذلك البرنوس الذى هو فى صورة حبل وأدلى رجليه إلى أن سقط على الأرض ببطء وسكينة، وهكذا إلى آخر رجل منهم قال: فذهبت لكوة بداخل الغرفة أنظر هل أبصر وجه واحد منهم أو إلى أين يقفون؟ ولكن دياجى الليل المعتمة حالت دون رؤيتهم، فالويل يا أخى الويل لكل غنى اليوم من هؤلاء اللصوص الذين اشتدت وطأتهم على الناس.

وها أنت تسمع كل يوم تعدد الشكايات بهم من كل حومة من أحوام مراكش، بل وكذا من خارجه، وغاية الأمر أنه مهما قبض على واحد منهم وإن كان القبض عليه من قبيل المحال، وذلك لأجل استعداد اللص بالآلات الدفاعية الحربية، ورب المنزل مكتوف الأيدى ساكن ساكت أو رفعت به الشكاية إلا وقوبل بسجن ثلاثة شهور، ثم هو فى المرة الثانية بسجن ستة شهور، ثم فى الثالثة بسجن سنة، ولعله فى الرابعة يكون من المرحومين المعتوقين الذين لا حساب عليهم فى أكل تلك الأموال، أو قتل تلك الذوات ظلمًا وعدوانًا.

ولا شك أن هذه المقابلة الوقتية وهذا الزجر القانونى فى حق هؤلاء يحط من رتبة من لهم السيطرة فى الوقت انحطاطًا يجر على المجتمع ويلات متنوعة، وقد شعر به عدد من الناس حتى قال قائلهم: إن أصحاب السيطرة

اليوم هم منبع سلطنة اللصوص ومبعث سلطتها، إذ فى طاقتها قمع هؤلاء فى أدنى زمان ووقت، ولا تحتاج معهم إلى كبير مشقة، وذلك إما أن تحكم عليهم بالإعدام بالمرة، وهو اللائق بحالهم وزجرًا لأمثالهم، أو بمقاساتهم ظلمات السجون على طول حياتهم. أو بصبغ ذواتهم كلها بصبغة يستحيل محوها عن ذواتهم تبقى عليهم مدى الدهر سمة من سمات السرقة ومسخًا فى أعين الناس وحتى فى أعينهم أو بقابلتهم بما أمر الله فى كتابه العزيز بقوله (والسارق والسارقة فاقطوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله) وهو الأولى.

ولعل ما ذكرنا من مقاساهم لهذه الشدائد والأهوال التى تذيقهم مرارة الحياة وترغبهم فى الممات يقطع مادة أعمالهم النجسة، وإذا بقى الأمر على ما هو عليه، أدى إلى نتائج محزنة أو مضحكة، وذلك بأن تصير اللصوص تتسور على الديار نهارًا، لأن القوة الدفاعية أخذت من الناس، والزجر لديهم معروف، والظفر بأموال الناس مصحوبًا بسلامة أبدانهم عندهم مألوف.

ثم قال له: إنى لم أكتمك شيئًا من هذه القضية التى حدثت لى: اللهم إلا واحدة. قال وما عسى تكون؟ قال إنى أغبطك وأتمنى أن أكون فى موضعك. قال صاحبه وقد عراه الدهش: وما الذى غبطت منى حتى بلغ بك الأمر إلى التمنى ولا أراك دونى فى شىء من الأشياء، فأنت بحمد الله فى بشاشة من العيش، ورخاء من البال لولا هذه الحادثة لدهماء، ولكنها ليست بشىء فى مقابلة تلك الأملاك التى بيدك قال نعم: ولكنى أغبطك على فراغ يدك من هذه الزخارف الوقتية، والشهوات المردية التى هى محل نظر اللصوص اليوم، ولو أعطى لى حالك سابقًا لما حامت حولى هذه الحادثة الحالكة المكدرة.

ولا يخفاك أن الله سبحانه ما من على خلقه بنعمة هى أولى بالشكر وأحق بالذكر من نعمة الأمن، فقال تعالى معددًا آلاءه على قريش: (فيلعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) فجعل سبحانه الأمن من نعمته الكبرى ومنته العظمى، فمن بات منا آمنًا فى سربه.كان حقيقًا أن لا يغفل طرفة عين عن الشكر.

وكيف يبيت المنرى آمنًا أو يذوق لذة النوم؟ بل قصارى أمره أنه لا ينام ليلته وإن استولى النعاس على أجفانه، وما نام نومة إلا ورأى وجه واحد من اللصوص واقفًا أمامه، فيستيقظ مرتعد الفرائص.

وكيف ينام من باتت تترصده اللصوص من كل جهة؟ وكيف ينام من انتشرت حوله تلك القرود والذئاب الوحشية، والأسود الضارية والأفاعى القاتلة؟ وكيف ينام من قصد بسيوف مسلولة، وقلوب من الشفقة والرحمة معلولة، وأيد من الإحسان مغلولة؟ وكيف ينام من صار متجرًا وربحًا وذخيرة، وكنزًا لقوم الفساد والشقاق والنفاق؟.

فقال له صاحبه: هل تعلم لهم علاقة يتميزون بها بين الناس ليتوصل من كان ذا ثروة لاتخاذ اليد عندهم بكثرة الإحسان كى يأمن على ذاته وماله من شرهم؟

فقال له: لقد طلبت المحال أوصافًا لا تقال، ولكن سأذكر لك منها شيئًا تستدل به على باقيها فى الحال والمآل. اعلم أنهم قوم أصحاب تلوينات شتى: منها ما هو دينى، ومنها ما هو سياسى، ومنها ما هو إصلاحى فمن تلك التلوينات الدينية ملازمة عدد منهم للمساجد والمحافظة على الصلوات الخمس فى أوقاتها جماعة، ومنهم الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر، وإذا سألته عن

غامض أو حلو وحامض أوسعك علمًا وبيانًا، وأواك الحق عيانًا، ومنهم الكثير البشاشة اللطيف الحشاشة، ومنهم من يمشي فى الطريق بسبحة فى عنقه أو فى يده يهمهم بها، فتنطق سبحته بما سكت عنه لسانه أنه من أولياء الله، ومنهم من يتظاهر بالإحسان لأجل تلك الأحبولة التى يصطاد بها مال الناس، ومنهم من يكثر زيارة سكان القبور لأجل التوصل لمال ساكن القصور، ومنهم من يحضر مجالس العلماء خصوصًا حالة الوعظ فتراه يبكى بكاء الطفل فى حجر أمه، أو كبكاء المرأة بين يدى القاضى من أجل ظلم زوجها لها، وربما زفر زفيرًا يكاد يحرق من كان بقربه، ومنهم من له صناعة صورية أو وظيف مخزى قد استغرق فيه معظم النهار حتى لا يكاد يتهم، ومنهم سعاة يسألون الناس آناء الليل وأطراف النهار خصوصًا بباب الديار، ومنهم أصحاب الملح الغريبة، والحكايات العجيبة، والمسامرات الشيقة، والابتكارات الأنيقة التى يخرجونها فى صورة الحق والأقوال التى تدعو إلى الدهش والتعجب، والمخاطبات التى تقع موقع القبول والاستحسان لدى الحاضرين، وذكر الوقائع التاريخية التى يفتر لها الثغر، وينشرح بها الصدر، ومنم من يشف الأسماع بأنغامه العربية والتونسية والأندلسية والجزائرية والمصرية والحجازية والشامية، ومنهم من يتظاهر بحزن وألم شديدين حتى كأنه يعاين أحوال يوم القيامة، ومنهم من له لحية طويلة كثة وفى عنقه سبحة غليظة ذات حبات كبار يهمهم بكلمات مبهمة ويدعى معها أنه من أقطاب الدنيا، ويبيع الكذب بثمن غال، ومنهم من يتظاهر بخيالات وأوهام وأضغاث أحلام، حتى يدعى أنه ممن يرى النبى ﷺ والصحابة الكرام، ومنهم من تراه بالنهار ثقيل الحركات، وإذا احتجبت الشمس وأرخى الليل سدوله تراه ذئبًا من الذئاب، أو أسدًا من الأسود شديد الفتكات، فلما بلغ هذا الحد قال له

صاحبه: حسبك قد اكتفيت وقد شرحت صدرى وشفيت، وبما طلبت منك قد وفيت، فقضينا من هذه المسامرة العجب.

وانصرفنا فإذا برجل يذم الظروف ويسخط على الزمان الذى أوقعه فى شراك بعض قضاة الوقت. فقلنا ما شأنك، قال دعونى واذهبوا إلى حال سبيلكم فقلنا لابد أن تذكر لنا السبب. قال: من كان مغلول الأيدى لا يجد للخلاص سبيلا، كيف يذكر السبب ولكن المرجو منكم دعوة صالحة عليها تكون سبيلا فى تفريج الكرب وتيسير المطلب، ولو بالانتقال من هذه الدار المملوءة بالأكدار قبل أن أرى ما هو شر مما نزل فى السر الجهار قلنا لك ذلك على شرط ذكرك لنا تلك المهالك، فقال إن كان ولابد: فأحدثكم حديثًا ولا كل الأحاديث. قلنا ما أشوقنا إلى سماعه، ثم انتحينا ناحية وجلسنا، وبدأ ذلك البائس المهان يحدثنا، فقال: تزوجت بفلانة بنت فلان، وهى امرأة جميلة الوجه، معتدلة القوام، من بين الرابعة عشرة، ولها عينان سوداوان كحلاوان، وحاجبان كذلك، ولها أنف أقنى، وأسنان كالفضة، ويدان ناعمتان، وشعر مسدول شديد السواد، ورشاقة القد، ونحول الخصر، فريدة العصر، وكنت لها محبا، وبها كلفا قرير العين، طيب النفس، كثير المال.

ولما قل ما بيدى وعلم أبوها ما بى من سوء الحال وشر المآل أخذها منى وجحدنى وطردنى وأغلظ على، فأنبت إلى القاضى فلان راجيًا نصرته فلما أحضر أباها وسأله عن حالى! قال ما أعرفه قط، فقلت أصلح الله القاضى إن رأى أن يحضر المرأة ويسألها عن قول أبيها تبين الحق، فبعث خلفها وأحضرها، فلما وقفت بين يديه وأزالت النقاب عن وجهها وقعت منه موقع الإعجاب، فصار لى خصمًا، وعلى منكرًا، وأظهر لى الغضب، وهددنى

بالسجن، ثم قال لأبيها بمحضرى: هل لك أن تزوجها... بألف ريال وأنا ضامن خلاصها من هذا الظالم المتعدى، فأحابه أبوها إلى ذلك. ثم تلعثم لسانى بين يديه من شدة هذا الحال النازل بى حتى غشى على، فأمر القاضى بإخراجى من بين يديه.

فقال له الشيخ عبد الهادى وما كان بعد هذا؟ قال إن القاضى أحضرنى مرة ثانية ونظر إلى كالأسد الغضبان، وقال طلق فلانة وإلا أوجعتك ضربًا وعذابًا متنوعًا ولا مناص لك من هذا، فوجدت فسحة فى الحركة، فقمت من بين يديه مستخفيًا، وها أنا كذلك ومتحير فى القضية وإلى أين ينتهى ما لها؟.

فقال عبد الهادى: إن للنكبات نهايات، ولابد لكل أحد إذا نكب من أن ينتهى إليها، فينبغى للعاقل إذا أصابته نكبة أن ينام لها حتى تنقضى مدتها، فان فى دفعها قبل انقضاء مدتها زيادة فى مكروها.

وعليك يا أخى بالاستخفاء والصبر [فان مع العسر يسرا].

ثم ذهبنا فإذا بجماعة يتذاكرون فى أسرار النساء ومحاسنهن ومساويهن فسمعنا بعضهم يقول: لا ألوم النساء من أجل حبهن للملابس الأنيقة، فإنهن يعلمن أن ذلك فعال تؤثر المحبة فى القلوب.

وقال آخر: إن حرب الرجل مع المرأة لا ينتهى حتى تدرك هى كيف تحتال فتؤسره، وتستطيع أن تفعل لو أنها أرادت.

وقال آخر: إن المرأة تريد الاستئثار بأفكار الرجل والتصريف لعقله وإرادته لتأخذ لنفسها العدة فى حربه إذا ثارت بينهما ثائرة حرب، والرجل

يريد أن يكون حـرًا فى كل تصرفـاته، ولكن لا يستطيع الـوصول إليه الـيوم لفساد الزمان.

وقال آخر: إن الرجل اليـوم آلة فى يد المرأة تحركها كيف شـاءت، فهو النائب عنها يتكلم بلسانها، وليس فى مقدور الرجل سواء كان فى جده أو فى مزحـه أن يرفع عن كاهله تأثير المرأة التى يكون له مـعها شأن وتكون بينهـما صداقة متينة أنهـا لتشكل حياته بما تشاؤه، فإما أن تجعلها حيـاة طيبة أو حياة خبيثة، ثم أنشد قول العباس بن الأحنف:

ولقـد قلت والـهـمـوم ركـود ودمـوعى علـى الرداء تجـود

يـا بنـى آدم تعـالـوا ننـادى إنما نحـن للنسـاء عـبـيـد

وقال آخر: إن المرأة أركزت فى قلب الرجل حب الجمـال، فهو شغوف به يراه فيهـا قبل كل صفات أخـرى، وإنك لتراه يقدر الجمـال ويحس بوقعه على قلبه ويتركه يتحكم فيه ويرتاح إلى كل صنيع له.

وقال آخر: كانت المرأة والعهد غير بعيد أمة يسرقها الرجل ويتصرف فى رقيتـها بما شاء، ويتـفنن فى طرق إذلالها، وكان لا يسمح لهـا وهو صاحب أمرها أن يجلسـها بجواره على مـائدة الطعام، فإذا راقـته يومًا ما رمى إليـها ببعض الفتـاة كما يصنع مع كلب له. أما هى فـتتقبل ما يرمى به إليـها وتعد نفسها فى نعمة كبرى إذ ذاك وقد ظلت، شأنها فى كثير من البلاد.

وقال آخر: إن فلانة طلقت مرتين، وزوجـها تزوج خمس مرات، فقد فى اثنين منها زوجتين.

وقال آخر: أما تعـدد الزوجات فشائع، غير أنه يقف فى سـبيلها المال،

وكثرة الإنفاق، لأن أربع زوجات مثلا تحتاج إلى مال لو عشن معًا، فكيف بهن إذا عاشت كل واحدة منهن منفردة فى بيت خاص بها.

ولقد زرت مرة بيتًا والتقيت فيه بثلاث زوجات، كن يعشن معًا فى صداقة واحدة، وعرفت سيدة تزوج زوجها من غيرها، وكان لها منه ولدان فرحلت عنه إلى بيت أهلها، وهناك عاشت فى ظل خالها سنتين ذاقت فيهما المر، ولم يرتح زوجها إلى زوجته الجديدة فطلقها وفكر فى زوجته الأولى وأرجعها إليه وعاشت سعيدة جدًا معه لا تخالفه فى شىء، ومرت بهما سنين أخرى فكر بعدها زوجها فى الزواج من ثالثة فلم تتأثر بذلك لأجل ما حل بها سابقًا من مقاساة الشدائد مع خالها وبقيت فى بيت زوجها سعيدة فرحة مرحة كأنها لم تقع فى تلك الهوة العميقة هوة الضرائر.

وقال آخر: لقد أباح الرجال للنساء ما لا يمكن أن يبيحوه لهن، أباحوا لهن الخروج لغير ضرورة شرعية فى تلك الأصناف الرفيعة من اللباس والمرور فى وسط الطرقات، بين وطنيات وأجنبيات، وربما رأيت من غالبهم أذرعًا وصدورًا عارية. أرأيت تلك الحالة التعسة التى تسير عليها النساء فى الشوارع اليوم، وهل يستطيع أحد من هؤلاء الرجال أن يقمع امرأته عن ذلك.

وقال آخر: وزد على هذا لبس تلك الأحذية ذات الكعب العالى التى مسخت أقدام النساء مسخًا وستفسد تركيب الساق أيضًا، وانظر المرأة تمشى لها كما يمشى البهلوان.

وقل ما أصبر المرأة وأكثر تجلدها على ما تعتقد أنه يزيدها جمالا، ولا إخال عاقلا يرى امرأة تعذب نفسها بهذا الشكل إلا ويرثى لحالها ويندب سوء حظها، وإذا صعدت قليلا بنظرك فوق الحذاء رأيت ما تحمر له الوجوه

خجـلا. رأيت سوق النساء والبنات الأبكـار تروح وتجيء فى السوق، وزادها خجلا أن كثـيراً منها لا يحجبهـا عن الأبصار سوى غشاء شفـاف من قماش بعضـه من حرير وبعضه من قطن، تسـتهوى ذوى الشهـوات البهيمـية، وإذا ارتقيت إلى أعلى من ذلك رأيت الصـدور وقد فضحت وأصبحت مع بعض الشهود نهبًا لخائنات الأعين، يشترك فى اغتيالها أنظار الناس من ك الطبقات، ويحدقن بها السوقة، وكذلك الذراعان والبعض يسترها بما شبه ثوب الرياء.

والأغرب مـن هذا كله أن الحيـاء أصبح طريداً شـريداً لا يجسـر على الظهـور، وأن الآباء والأزواج والأبناء إدركهـم الخنوع والذل، فرضـوا بما لم يرضه الرجل الأبى. زد على ذلك أن أكثر النساء أصبحن لا يطيب لهن عيش إلا إذا عرضن بضاعتهن فى الشوارع والأسواق والمحلات العمومية.

فلينهض المفكرون والمصلحـون والكتاب والصحف، وكل ذى مـقام فى مراكش، فـإن الخطب جلل، والمصاب عظيم، إن لم يعـالج أفسـد الأخلاق وعم الخراب. نسأل الله الإصلاح آمين.

وقـال آخر: إن هذا التـيار لابد أن يقف مـرة واحدة، لأن العـالم الآن أصبح عرضة للمفاجآت.

وقال آخر: لا مـراء عند كل مسلم أن الشارع الحكيم عـز شأنه أوجب الحجاب على المرأة حـفظًا لعرضها، وصونًـا لعفافها من خـائنة أعين الرجال درءًا للفتنة كما أنه حدد الحجاب بما به يـتم جمال المرأة وإخفاء زينتها وبديهى أن مصل هذا الحـجاب يلزم أن يكون كافـيًا فى الستر بسـيطًا خاليًا من سـمة الزينة، مجردًا من الزخـرفة التى حدثت فى هذه الأيام، بعيـدًا كل البعد عن التأنق ما أمكن، فـهل فى حجاب نساء اليـوم ما أوبه الشارع وأوصى به، إذا

سرحت طرفك قليلا فى حجاب نساء اليوم تراه أضحى زينة من أبهى الزينات وأفخرها حيث حوى من الزخرف والتنميق ما جعله يفوق زينة المرأة ليلة زفافها حتى صار أقوى من المغناطيس فى جذب لمحات الرجال، واستلفات نظراتهم، واستهواء قلوبهم.

إن الشارع الحكيم جلت عظمته لم يصادر حرية المرأة التى هى أعظم الحقوق الإنسانية بتكليفها الحجاب الذى أثقل كاهلها وجعلها ترضخ تحت سيطرته إلا لحكمة جليلة وأمر مهم، ولا شك أن ذلك هو صون خدر العفاف عن المساس حفظًا لشرف المرأة، وناموس الرجل ونسله وشرف الأسر، فهل يليق بالمرأة بعد هذا أن تخلع ثوب حيائها، وتطأ شرفها، وتلطخ عرضها بدم العفاف ومجزرة الخلاعة والمدنية الكاذبة.

سبحانك لا طاقة لنا أن نرى بأعيننا ذلك المنظر المريع وتلك الصورة الشوهاء التى ترمى إليها النساء المتبرجات إلى حد يخشى معه تمزيق أثواب العفة، ومحو رسوم الشرف والقضاء على البقية الباقية من أخلاق بعض سيدات فضليات، وأن أبيت إلا مثالا أوضح من هذا فسر قليلا فى المتنزهات، وانظر ماذا ترى: ترى أسراب العذارى يترنحن كأنهن سكارى، وسهام حواجبهن على قلوب الرجال تترى، وسيوف لواحظهن يبترن الفؤاد بترًا، وهناك تمتزج الغزلان بالأسود الصوائل، ويختلط الحابل بالنابل، وما هى إلا غمزات أرق، من الأثير، وإشارات كأنها التلغراف اللاسلكى تمر وتسير، وترى مغناطيس الجمال جذب القلوب، واتفق المحب مع المحبوب، وتم اللقاء بالاحتكاك، ووقع الصيد فى الأشباك وقضى الشيطان وطه، ويالله ما أقدره! وقد وصف ذلك أمير الشعراء المرحوم أحمد بك شوقى بقوله:

تجول نهاراً فى أسواق الملبوسات وارمق بطرفك ما أحدثته المتهتكات: ترى أكف الباعة على معاصم النساء دائرة، وكؤوس المداعبة والمنادمة سائرة، وترى من أنواع التهتك فى الخلاعة ما تشمئز منه النفس وتنفر منه الطبيعة، وترى هناك الأغرار واقفين لهن بالمرصاد، ناصبين لهن حبائل الاصطياد، منتهزين الفرصة الثمينة لسقوط تلك المسكينة، وما أسرع سريان جراثيم الفساد إذا استحكم الاختلاط! وهل وقف التهتك عند هذا الحد يا هل ترى؟ كلا! بل ترقى إلى حد لم يدع صغيرة من أنواع البهرجة إلا أحصاها: من الترنح فى المشية والضحك والقهقهة، وإظهار المعاصم، والأكف المخضبة، والبراقع الشفافة، والتمامة، وترك الزندين عاريين، وتقوير الصدور، وغير ذلك مما يستهوى، ويذهل الأبصار، ويكسر الأفكار، ويوقع فى الدمار: كل المصائب تهون وطأتها، وكل النكبات يخف رزؤها، ولا كمصابنا فى هذه البيئة التى أثكلت الأفئدة وأدمت العيون، وجاءت طعنة فى كبد الفضيلة، وأدت للسقوط فى مهاوى العار الشنار، ولا حول ولا قوة إلا بالله وهذا هو الحديث الذى جاهر به هؤلاء، وكنا لا نستطيع المجاهرة به من قبل وإن كنا أفصحنا به بعض إفصاح.

وقد أثاروا منا الفكر عند سماع هذا القول، وعلمنا أن غيرتهم تملى عليهم القول ووظنيتهم المراكشية تحقق لهم رفع هذه الأدناس، ولسنا نتأسف فقط على وجود هذه الحالة السيئة، بل نبكيها ونؤمل من صميم قلوبنا فى هذه الساعة المحزنة أن يتحقق تحرير هذه البلاد منها، وكذا كل البلاد المغربية والمشرقية.

ثم مـرنا فإذا بجـماعة أخـرى واقفـين وسط الطريق فـدنونا منهم علنًا نستفيـد منهم فائدة فريدة أو مستمحلة جديدة، فـإذا بأحدهم يقول إن رؤساء الوقت أعلنوا الليـلة بالخروج رجـالا ونسـاء زوال غـده للقى ببـعض كبـراء الوقت، فرأينا بعـضهم حال لونه واسود، ثم حوقل وترجع وتـنفس الصعداء وانقـبض وقـال: إيه يادين ما أغـربك، فـتكلمناه وقلنا مـا هذا الحـال الذى أوصلك لهذه الأوحال؟ فقـال: من العبث أن أكرر على سمعكم شيـئًا وقفتم عليه وألفتموه وذقتم مرارته مرارًا عديدة، وسئمتم الحياة من أجله، فقلنا ليس لنا علم بهذا، وإنما نحن قـوم غرباء عدا هذا الرجل الذى فينا، فـالتفت إلينا عبد الباسط المراكشى وقال:

لقـد بلغ منا الغـيظ من هذه الحـركـة مبلغـه وأثار عـواطف السـخط والغضب، وامتـلأت قلوب المسلمين بسببـها حقدًا، وقلنا صف لنا بشاعـتها وشناعتها وفظاعتها وخستها وما تخشاه من خطرها، فقال أما بيان وجه الخطر فى هيمنـة أمثال هذا الاحـتفال الجـامع لكل مكروه وحرام وسيء الأفـعال، فشيء لا تسمح فإفشائه النفس اليوم.

وغاية مـا أقول لكم: إن هذا الاحـتفـال قد جـمع وجوه المخـالفات، والمناكرات والموبقـات والأوصاف الذميـمة، والنعوت الشـائنة، المضرة بالدين والدنيا، ومن أعظمـها وجود آلات المناكـر بأسرها، وتبرج النسـاء فى حللها وحليها إلى غـير ذلك من التهتك الذى لا ترضـى به كل أمة من الأمم، وقد أطفـأ مصـابيح المروءة من هذه الأرض. ولكن المسـئوليـة على علمـاء المدينة وقضاتها ومشرعيها ومشاهير أساتذتها، وعليهم أن يقولوا لنا هل وجدوا نظير هذا الاحتـفال المسنون اليـوم على هذا الوصف لدخول كـبير مـن الكبراء فى

تاريخ من التواريخ الماضية أو القوانين الأوروبية، أو هل وجدت شريعة فى زمن من الأزمنة الغابرة العريقة فى الهمجية سنت ما سنه هؤلاء فى وطننا السىء الحظ الذى كان فى سالف الأعصار مهد النور والعرفان، وعلى الخصوص مهد العدالة فاستقبلنا كلامه بكل ذهول وعرض لنا دهش عظيم كأنه لم يكن يدور بالخلد.

فوقتئذٍ قالت تلك الجماعة بصوت محزن ولغة صحيحة وسرعة مدهشة إنه ليس لنا إلا أن نرفع شكايتنا لجلالة سلطاننا الأعظم أيد الله ملكه ولنا كبير الأمل فى إقدامه النادر، وثباته الباهر، وعزمه وحزمه فى خدمة الأوطان المغربية أن يرفع عنا هذه الداهية ويزيد بها فى بطون التواريخ شكرًا جميلا وثناء عاطرًا، ولا ينبغى لنا السكوت عن هذا أو نكون فى هذا العالم من أقوام لا هم لهم إلا بطن يملأ وجيب يحفل بالمال، ومظهر يرفعهم فى عين من لا يعرف معدن نفوسهم، بل الأولى بنا وبكل عاقل أن يخدم الحقيقة وينصر الحق ويعرض عن هؤلاء الذين لا اهتمام لهم بشىء من المصالح الدينية والدنيوية.

فعند هذا التفت إليهم الشيخ عبد الهادى وقال: لا تظنوا أنكم بهذا استوفيتم ما عليكم من تلك الحقوق لوطنكم المقدس أو أديتم ما على بلدكم من الدين الكبير، فالمؤمل منكم أن لا يهدأ لكم روع ولا يهنأ لكم بال إلا إذا رفعتم الشكاية بذلك لأمير المسلمين.

ثم قال: ولو كنت مراكشيًا لرأيتمونى حركة مستمرة فى سبيل الإصلاح فتارة أدافع، وتارة أهاجم، وتارة أكاتب، وتارة أحادث، وتارة أجادل، وتارة أقاتل، وتارة أكشف الستار عن دسائس الوقت وكائدها بما فيه عبرة لمن اعتبر،

وتارة أردف الحـديث بخطبة وأتبع الخطبـة بمناقشـة، وتارة أذكر من المصـائب الوقتية ما تدهش لسماعها العـقول وتحير الألباب وتنبو منه الطباع، وتنفر من سمـاعه الآذان والأسمـاع، وتارة أذكر من ألوان العبـر وأنواع العظات ما يود سامعوه لو كان كل حرف منه كلمة وكل كلـمة جملة وكل جملة خطبة قائمة برأسـها ليـسـتـزيدوا من ذلك السحـر الذى اجتـذب أعنة القلوب واستـرعى الأسماع واسـترقى الطباع التى لو تليت على جمـاد لذاب من هول الإفصاح بأبلغ عـبارة وأجمـل إشارة، ولو كنت مـراكشيًـا لتجـشمت المشـاق التى لا توصف فى نصر أمة مقـهورة، ولو كنت مراكشيًا لاجتـهدت فى تبديل الحالة الحاضـرة بحالة زاهيـة زاهرة، ولو كنت مراكشـيًا لحركت تلـك النخوة التى أصبحت فى النسيان ودخلت من زمان فى خبر كان، ولو كنت مراكشيًا لملأت النفوس بؤسًا والجسوم خشونة والأنوف عزة.

فالتفت إليه عبد الباسط وقال: حسبك حسبك وقد كاد أن يلحقنا الكلل والملل عمـا نحن بصدده، على أنك لو كنت مراكـشيًا لما اسـتطعت أن تعمل عملا يـذكر لخدمة بلادك وبلاد آبائك وأجـدادك وذاك لقوة السيطرة الوقتـية، والزمان زمـان الرقة لا زمـان الحرية، ولعلك تسـتطيع ذلك فى المستـقبل إن طالت بك الأيام وتنتهز فرصته، ولعل الله سـبحانه بمحض فضله كما أعانك فى المبدأ يعـينك فى النهاية، والمخرج عندى هو أن تـتوجه هذه الجمـاعة إلى هذه الأغراض العاليـة ففيها لهم الشفـاء ويتلمسوا العظمة الصادقـة فى القيام بالواجب دائمًا.

ثم تركناهم وذهبنا فإذا برجلين يقول أحدهمـا للآخر إن الشاب الفلانى كان رأى فتـاة طويلة القامة، حلوة المنظر والحديث فـأحبها وسأل عن اسـمها

وأهلها فأخب بذلك، ثم انصرف وفى قلبه من حبها لهب لا يطفأ، ولما اشتد به الوجد أطلع أباه على سره وسأله أن يزوجه منها فأبى وقال: يا بنى عليك بإحدى بنات عمك فهن أحق بك فحزن وكاد قلبه ينخلع لما سمع قول أبيه، ثم ذهب إلى أمه وشكا لها ما يجد من حب معشوقته واستعان بها على أبيه لتحوله عن رأيه فساعدته بعد مشقة، ثم أنها صارت ترغب والده فى ذلك إلى أن أجابها لما طلبت فتكلم مع أبى البنت فى تزويج ابنه بها فرحب به أبوها وأكرم وفادته وأجابه إلى ما طلب، وبعد أيام زفت البنت للابن فأقاما مدة لا ينكر أحدهما من صاحبه شيئًا ولا يسمع عنهما إلا ما يسر الأحباب ويحزن الأعداء، وكان الابن قبل زواجه بارًا بأمه يلقاها كل يوم ويتودد إليها فألهته زوجته عن بعض ما كان له مع أمه فوجدت الأم فى نفسها وأوغرت صدر أبيه على الزوجة ليحمل ابنه على طلاقها ففعل فلما سمع الابن بذلك من أبيه. قال الموت أسهل على من ذلك. فغضب والده وأبى أن يعاشره ما لم يطلق زوجته وأقسم بالله على ذلك فاضطر الابن إلى أن يطلقها وهو كئيب الحال دامع العين موجع القلب.

فالتفت إليه صاحبه وقال: هذه عادة الأبوين فى هذا الزمان حتى لقد صار بعضهم على أولادهم من أعدى الأعادى المضرة بالدين والدنيا خصوصًا الأمهات، وكم لهم فى هذا الموضوع من فتن وموبقات طالما قاسى الرجال بهذا الشدائد والأهوال وذاقوا كل مرارة الحياة ولم تترك لهم حلوها وهذا أمر محقق محسوس لا يكاد يجهل.

وسبب هذا: الجهل بأمور الدين والخروج عن سنن المتقين، ثم قال لكن المتعين فى هذا الموضوع هو الصبر على أى وجه كان، وبه يحصل الفوز فى السر والإعلان فتركناهما ومضينا.

وقال الآخر: إن من أعظم الحوادث الوقتية تسلط الغربيين على أهل الدين الإسلامى، خصوصًا شبان هذا العصر بتعليمهم تلك اللغات والعوائد الفرنجية، فأنسوهم بذلك دينهم، وعوائدهم، ولغتهم، وتاريخ حياتهم ومجدهم، واستبدلوهم بذلك مثالب كاتب سبب مصائب ومحن نزلت بالعالم الإسلامى، فقصمت منه الظهر، وفككت منه الأوصال، وأنقصت من أطراف الدولة الإسلامية البقية الباقية، وكادت تقضى بتقلص ظل الإسلام السياسى من هذا العالم، لو لا أن أتاح الله له عصبة ذات قوة وبطش قامت فى وجه المهاجمين له من كل طرف، وبذلت المهج فى المحافظة على تلك البقية الباقية.

ثم قال ومعلوم أنهم إذا نسوا تاريخ حياتهم ولغتهم، وأشربوا فى قلوبهم تاريخ حياة غيرهم، ذهب كب فريق منهم بما اشتهى، وشبت النفوس على ما سيقت إليه، وبدت على الأمة أخلاق منكرة مبتكرة بعوائد غريبة لا تنسب بالمرة لسوابق عوائدها، وتقربوا من تلك الأمم الطارئين بكل طريقة وابتعدوا عن ذلك الأصل الشريف الذى هم فيه ثم تناهوا فى الفجور وتفانوا فى البغى والضلال كما هو الحال الآن، والأمر لله الذى لا تخفى عليه خافية، إنه كبير متعال.

وبينما نحن فى الطريق: إذ واجهنا النادى، وهو مأوى الأمراء وآبائهم، والرائح منهم والغادى، وأخبرنا بأنه موضع جلوسهم واجتماعهم ومحل ألسهم واستمتاعهم. فقصدناه مع أحد أصحابنا من أعضائه وجملته، ليتسنى لنا الدخول فى صحبته، فانتهينا إلى قاعة فسيحة الجوانب، مزينة بمصابيح كالكواكب، تدخل منها إلى عدة غرف، مزخرفة بأبهى التحف والطرف،

فرأيناها مـزدحمة بأجـناس من الناس، يروقون النظر بحـسن الزى واللباس، ويبهـرون العيـون بحلى الياقـوت والألماس، وهم كلهم فى لغط وضـوضاء، كأنهم فى سوق بيع وشراء.

فأخذ صاحبنا يرشدنا عن إجـراء المكان، ويعرفنا بفلان وفلان، ويخبرنا عن الغرفة الأولى أنها للمنادمة والمعاقرة، والثـانية للمراهنة والمقامرة، والثالثة للمحاضرة والمسامرة. فبدأنا بالدخول فى الغرفة الأخيرة، فوجدنا فى وسطها منضدة كبيرة، عليها كتب منتشـرة، وجرائد مصورة، تعبث بها أيدى جماعة من الأمراء، دون انتباه أو اعتناء، وأعينهم شـاخصة نحو المرآة، للتمتع بالمنظر والمرآة، وألسنتهم منطلقة بالأعجمية، دون اللغة العربية، فأخذنا مجلسنا منهم ناحيـة، وأعرناهم أذنًا واعـية، وإذا أحدهم يـقول لكبيـر من كبـراء أسرته، والغضب باد فـى تقطيب أسرته: أنا لا أبالى بهـذا اللوم والتفنيـد، ولا أقبل منك مشورة ولا نصيحة، والله يعلم بما وراء هـذه النصيحة مما تكنه الضمائر وتخفيه السرائر، فان كنت تريد بى خـيرًا كما تزعم وتدعى فاتركنى وشأنى، فأنا أدرى بوجوه المصلحة لنفسى، ولا عليك من ذلك الدين لذى تعيرنى به، فندى من المتاع والعقار مما يسدده ويوفيه.

وكمـا أنى لا أتداخل فى شئونك، فليس لك أن تشـاركنى فى أمرى، وتكدر على عيشى، والأولى لك أن تصـرف جملة عنايتك فى تدبير ثروتك، فإنك أحوج إلى ذلك منى، حتى لا يأتى عليها أمناؤك ووكلاؤك نهبًا وسلبًا، وأنت مقيم فى غفلة عنهم، وأقسم لـك بقبر والدى: إننى لأفضل حالتى عن حالتك، فان تدبير ثروتى وتبـذيرها فى سبيل ما تشتهـيه نفسى وتلذه عينى، خير من أن أعيش محرومًا وغيرى يختلس ثروتى ويتمتع بأموالى.

فقال له وأنا لا ألتفت إلى هذا الكلام الفارغ، بل أنذرك منذ اليوم أنك إذا لم ترجع عن سوء سيرتك وتبديد أموالك وتسلم إلى عقود ثروتك لتسديد ديونك وترتيب أمورك، طلبت فى الحال توقيع الحجر عليك.

فقال مثلى لا يؤثر عليه هذا الوعيد، ولا يعمل فيه التهديد، ولا يمكن لك أن تجد فى أعمالى ما يوجب توقيع الحجر غير الدين، والدين أمر مستفيض بين الناس لا يكاد يخلو منه ذو ثروة، والحكومة نفسها من أكثر الناس دينًا، ولا يوجد فيها من يعتبر الدين حجة مقبولة لتوقيع الحجر.

ومع ذلك فأنا أقسم لك بكل شىء أحبه وأعزه إنكم إن لم تنتهوا عن السعى وراء الحجر على تنازلت فى الحال عن جميع أموالى إلى أحد الأجانب ليستثمرها لى فى حياتى ولا ينالكم منها شىء بعد مماتى.

فقال له الآخر: سترى من يكون الغالب منا والفائز فينا؟.

فالتفت بعضهم وقال: والله يا إخوانى لقد كرهت الثروة وأبغضت الغنى من طمع الأهل والأقارب، وقد آليت على نفسى أن لا أبقى منها درهمًا واحد لأحد من بعدى.

فقال الآخر: الحمد لله على ضياع الثروة وانقضاء مشاغلها، وأنا اليوم أبيع ما بقى من الأملاك لأتمتع بها فى معرض باريس قبل أن يتمتع بها سواى.

فقال الآخر: وأنا أسأل الله أن يعجل بربح القضية التى رفعتها على والدتى قبل حلول أيام المعرض لأكون معك.

فقال الآخر: وما يدريك أنها تبقى معلقة فى المحاكم زمنًا طويلا ينتهى

فيه معرض بعد معرض، فقال صاحب القضية: أنا لا بد لى من زيارة المعرض على كل حال، فان لم تته القضية ففى يدى رسوم الأملاك فى نصيب أختى، وعثرت عليها بكيفية غريبة، وقد قدرت لها قيمة تكفى لسفرى، وأخبرتها أنها إذا لم تسرع فى دفع قدر من المال إلى تسببت فى نسبتها لى.

فالتفت إليه أحدهم وقال: إنى لأغبطك على هذه اللقطة النفيسة وأسأل الله أن يوفقنى إلى مثلها مع عمتى، وأطالوا المذاكرة فى مثل هذه الأوهام والأحلام، وبقينا نشاهد ما يجرى من بقية أفعالهم إلى أن دخلوا إلى غرفة المدام، فتعاطوا من أقداح الراح ما شاءوا، ولم يتعد حديث المنادمة بينهم حد المناضلة والمفاخرة أو المراهنة والمسابقة! هذا يراهن صاحبه أن يشرب من الخمر زجاجة بأكملها، وذاك يفاخر بقوة أعضائه، فيدعى أنه يرفع المائدة بيد واحدة، والآخر يزعم أن يضغط على قطعة الريال فتلين بين أصابعه، والثالث: يقسم أنه ركب الناقة يومًا، فوثب من فوق ظهرها فنزل عنها إلى الأرض واقفًا على رجل واحدة، والرابع يحلف أنه يكلم حصانه فيفهم عنه كلامه، والخامس: يكرر القول بأن خليلته أعلنت له بأنها لم تر فى باريس راقصًا يحسن الرقص مثله إلى غير ذلك من هذا القبيل.

ولما انتهى أربهم من غرفة الشراب انصرفوا منها إلى غرفة القمار فاستداروا بمائدة اللعب وأغرقوا فيه، ثم لم تمض ساعة من الزمن إلا وقد جرى لهم فى هذا المجلس ما يجرى من فراغ الجيوب، واقتراض القروض، ورهن الحلى، وطلب الإسعاف من اللاعبين أولا، ومن الخدم ثانيا، ثم لم يلبثوا أن تولد بينهم من الشقاق والنزاع ما خشينا عنه سوء العاقبة، وقبح الخاتمة، فأسرعتا بالخروج نطلب النجاة ونضحك القهقهاء.

فبينما نحن على هذا إذا واجهتنا ساحة كأنها مدينة تبرجت فى يوم الزينة، فوقفنا هنيهة فى وسط المزدحم لا نجد موضعًا للقدم، فإذا هو محل وليمة عرس من أكبر الأعراس والخلق تأتى إليه أفواجًا ممن دعى وممن تطفل عليه من الناس، فوقفنا فى حالهم نتبصر، وفى أمرهم نتدبر، وصرفنا نتفكه بمخالطتهم، ونتروح بمباسطتهم، ثم أخذنا نلتمس بأعيننا صاحب الدار، فلا نهتدى له على قرار، كأنما صنعت الوليمة فى غيبته، وأقيم الاحتفال انتظارًا لأوبته، فقصدنا جمعًا منهم فأفسحوا لنا بينهم مكانًا رحبًا، وجلسنا معهم نجتنى ثمر الحديث ورطبًا، أو علمنا منهم أن رب البيت فى ذهول لا يدرك ما يذره يأتيه، ولا يدرى حال الليلة بسبب الذى هو فيه.

فبينما نحن جلوس إذ رأينا المغنين وأصحاب الطرب يدخلون وبيدهم أنواع الآلات من تلك المزامير، فشاهدنا عند ذلك من الشيخ عبد الهادى انقباضًا، ووجدنا فيه انحرافًا وإعراضًا.

فالتفت إلى عبد الباسط وصار يعاتبه عتابًا شديدًا، ويوسعه عذلا وتفنيدا، ويقول له: ما عهدت منك منذ صاحبتك إلا الخير لى تريده، والنفع تبدؤه وتعيده، وما زلت أشكر لك تلك اليد البيضاء فى العزلة عن الناس، والتخلص من مواقف القضاء، فما بالك تستنهضنى إلى مثل هذه المجامع والمجالس، التى جمعت جموع الشر والمناحس، ويغضب لها أهل الإسلام من المشرق إلى المغرب، ولا يرضى بها صاحب العرش فى السماء، ولا صاحب المقام بيثرب. وقد شاهدتنى يكاد يصيبنى التلف من شدة الحزن والأسف.

فقال عبد الباسط: أشهد الله ما أبغى لك إلا الخير والتوفيق فى كل

مذهب وطريق، وما أحب لك أن ترى فى أمـور الناس إلا مشهدًا يسلى عن الكرب، وملعـبًا يفـرج عن القلب، ولكن أحـب لك أن تشاهد أمـور الناس على ما هى عليه: ما أن تبكى لأجلها وتتحسر أو تضحك منها وتسخر، ومن صواب الرأى: أن لا تذهـب نفسك عليـهم حسرات، ولا تذرف عـينك من أجلهم العبرات.

فقال عبد الهادى: قد وجب علينـا إذن الاعتزال، والتبعد عن مثل هذا الاختلاط والابتذال؟ قال ولماذا.. قال لأجل كراهتى لحضور مجلس الغناء.

فقـال عبد الباسـط: إنى أريد أن أهتدى بهديتك فى باب سـماع الغناء وتقرير كراهته أو إباحته أو حرمته، فلا تبخل علينا بفضلك وعلمك، والوقت وقت مسامـرة، فان أردت أن تقضى جانبـا منه فى ما ينفع ويفيـد فقد أديت عليك واجبا فى الدين، وجعلتنا لك من الشاكرين فقال نعم.

ما قيل فى تحريم الغناء وإباحته

ذكر المحقق العلامة ابن حجر المكى الهيتمى رحمه الله فى كتابه

[كف الرعاع: عن محرمات اللهو والسماع ما نصه]

وجاء عن الصادق المصدوق الذى لا - ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى - فليحذر الذين يخـالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصـيبهم عذاب أليم -

عن أبى أمامـة (رضى الله عنه) قال: قال رسـول الله ﷺ "إن الله عز وجل بعثنى هدى ورحمة للمؤمنـين، وأمرنى بمحق المعازف والمزامير والأوتار والصليب وأمر الجاهلية" الحديث.

وفيه عن ابن عباس (رضى الله عنهما) "قال الكوبة حرام، والدن حرام، والمعازف حرام، والمزامير حرام" رواه مسدد والبيهقى فى سننه الكبرى.

وعن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال "يمسخ قوم من أمتى فى آخر الزمان قردة وخنازير. قالوا يا رسول الله أمسلمون هم؟ قال نعم يشهدون أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، ويصومون. قالوا فما بالهم يا رسول الله؟ قال اتخذوا المعازف والقينات والدفوف، وشربوا هذه الأشربة؟ فباتوا على شرابهم ولهوهم فأصبحوا وقد مسخوا" رواه مسدد وابن حبان.

وعن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ "يكون فى هذه الأمة خسف ومسخ وقذف قيل ومتى ذلك يا رسول الله؟ قال إذا ظهرت القينات والمعازف واستحلت الخمر".

قال وصح من طرق بأسانيد صحيحة لا مطعن فيها أنه ﷺ قال "ليكونن فى أمتى أقوام يستحلون الخز والحرير والخمر والمعازف" وهذا صريح ظاهر فى تحريم جميع آلات اللهو المطربة.

وعن على (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال "إذا فعلت أمتى خمس عشرة خصلة حل بها البلاء إذا كان المغنم دولا، والأمانة مغنمًا، والزكاة مغرمًا، وأطاع الرجل زوجته، وعق أمه، وبر صديقه، وجفا أباه، وارتفعت الأصوات فى المساجد، وكان زعيم القوم أرذلهم، وأكرم الرجل مخافة شره، وشربت الخمر، ولبس الحرير، واتخذت القينات والمعازف، ولعن آخر هذه الأمة أولها فليرتقبوا عند ذلك ريحًا حمراء أو خسفًا أو مسخًا" رواه الترمذى.

وعن ابن عباس (رضى الله عنهما) أن النبى ﷺ قال "أمرت بهدم الطبل والمزمار" أخرجه الديلمى.

وعن على كرم الله وجهه أن رسول الله ﷺ "نهى عن ضرب الدف، ولعب الصنج وضرب الزمارة" أخرجه الخطاب.

قال وفى فتاوى الشيخ أبى عمرو بن الصلاح أن اجتماع الدف بالشبابة حرام عند أئمة المذاهب، ولم يثبت عن أحد ممن يعتد بقوله فى الإجماع والخلاف أنه أباح هذا السماع، والخلاف المنقول عن بعض أصحاب الشافعى إنما نقل فى الشبابة منفردة والدف منفردًا، وربما اعتقد من لا تحصيل له ولا تأمل عنده خلافًا فى هذا السماع، وهذا وهم من الصائر إليه.

ثم قال وهذا السماع حرام بإجماع أهل الحل والعقد من المسلمين.

ثم قال بعد كلام ولا منكر أقبح ممن يريد أن يحلل ما أجمع العلماء على تحريمه، ويوقع العامة وغيرهم فى العمل به وسماعه غافلا عما يترتب عليه من الإثم والعقاب، عافانا الله من ذلك بمنه وكرمه آمين ا هـ المراد منه، وانظر تجد المنتصرين لحل ما حرم الله على لسان نبيه ﷺ ووارثيه أنهم يكتفون فى تحليل سماع آلات اللهو بمجرد حكاية يجدونها فى كتاب من غير بحث منهم عمن رواها ولا عن مدلولها ومعناها لما أن حب الهوى أعماهم، وعن طريق الهدى أضلهم وأغواهم نظير ما سوده الشيخ الرباطى فى رسالة تسلية الاتباع ببعض ما يتعلق بحكم مسألة الطرب والسماع.

وليس كما زعم بل كذب وافترى وجازف واجترأ، بل هو من جملة كذباته وفرياته وضلالته وخرافاته، ومثله لا يحتج به ولا يعول عليه إذ هو كلام لغو لا يفيد شيئا إلا فى غرضه الفاسد، وهو ترويج أفعاله وأقواله

الباطلة الكاذبة على من لا يفرقون بين ضعيف وقوى وموضوع وصحيح، وهو أحد التمويهات والترهات التى ظهرت فى هذا القرن.

ونرى كثيرا من الأغنياء الذين غلب عليهم الخسران والهوان عكفوا عليه واتخذوه لسماع تلك المحرمات أعظم الأسباب وظنوا أنه الحق الواضح، وأن مؤلفه المرشد الناصح جهلا منهم بالحقائق وإصغاء لكل ناعق وناهق فتجاهروا بها بين الملا فضل عن السر والخلا، وغاب عنهم أنهم وقعوا بتلك الشبكة فى أعظم الزلل وأقبح الخطأ والخطل - ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا -. وكنا نشاهد فى أثناء هذا الحديث رجلا واقفًا على رأسنا يتلقف ما يخرج من شفتى الشيخ، ولما فرغ من كلامه بادر إلى تقبيل يديه وقال: جزاك الله عن الإسلام والمسلمين خير جزاء ولا يزال من عرفك يهتدى لمسالك الحق ووجوه الصدق، وذلك بما اتسع لك من سبل الهداية والحكمة، والآن قد انحل ما كان علينا مشكلا وانكشف ما كان غامضًا، ثم التفت إلينا وقال: إنكم لفى نعمة وغبطة بما تنالونه من صحبة هذا الرجل ثم ودعنا وانصرف وانصرفنا نحن بانصرافه.

فبينما نحن فى الطريق إذ سمعنا تاجرًا يقول لآخرين: وهل بقى فى التجارة التى زاحمكم عليها الأجانب ربح يذكر أو رزق يطلب فاتركوا هذه السفاسف وعليكم بالسمسرة فهى الربح المضاعف والرزق الحضر يأتيكم رغدًا بلا كد ولا تعب، وكم رأينا من فقير ولج فى هذه الحرفة فخرج بفضل المعاملات غنيًا كبيرًا، وهذا صاحبنا الخواجه فلان اليهودى وفيكم من أدرك والدته ترقع الثياب بالأزقة وقد مارس تلك الأشغال فأصبح أكثر الناس مالا وأرفعهم حالا ونحن لا نزال على ما تركه لنا الآباء والأجداد ورحمة الله عليهم.

فأجابه بعضهم بقوله: ولكن فاتك أيها السيد أن صاحبنا هذا الذى تعنيه لم يصل إلى ذلك إلا بأشغال السمسرة وفيها من الحطة ما لا يخفى عليكم وهل تريدون أن ينزل أحد منا بنفسه إلى هذه الأشغال بعد أن عشنا مثل هذا العمر؟ فالتفت إليهم آخر وقال: الثروة اليوم التى ما فوقها ثروة هى المصارفة مع البنوك الوقتية وصرف ذلك فى شراء الأملاك وتشييد القصور، وقد دخلها من لا يمتلك مالا فأصبح من كبار الأغنياء، فما بالك بمن يدخلها وهو صاحب ثروة كالقائد الفلانى والرئيس الفلانى والفقيه شيخ الجماعة، فلا شك أن من يدخلها مثل هؤلاء يخرج منها بعد مدة قصيرة قارون زمانه.

فقال آخر: ما وراء الربح الكثير إلا الخسران الكبير، وقد شاهدنا بأعيننا ما أنتجته هذه المصارفة والمعاملة من تخريب البيوت العامرة، وتبديد الغنى الواسع، وانحطاط العماد الرفيع، وحسبكم فيها حال كبراء الوقت فقد سلبت أموالهم، ومزقت أعراضهم، وتملكت أوطانهم، وأصبحوا فى حالة يرثيها الراثون. فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم قال: ورأى أن الإقدام على هذه المهالك من الجنون المحض - فالله خير حافظا -

فقال آخر: أما أنا فلا يلدغ المؤمن من حجر مرتين، وكفانى تأديبًا ما تكبدته من الخسائر فى تلك المعاملات، ولولا فضل الله وبركة دعاء الوالدين لما نجوت من الخراب، فانصرفنا عنهم وتركناهم يموج بعضهم فى بعض كأنهم فى موقف الحشر ويوم العرض.

فبينما نحن فى الطريق إذ سمعنا رجلا يقول للآخر لقد مل سمعى وضاق ذرعى من ترهات القاضى وتلويناته وإعراضه عن وجوه الحق

وتلبيساته، وها أنت ترى طول اعتكافى ببابه وتعلقى فى انفصال قضيتى بأحبابه، ولكن رأيت الخبيث يصعب فى الأمور والأحوال لنسترضيه بالعطاء والنوال، ولم ينفعنى معه إلا أن قيدته بقيود الترغيب والتأميل، وأعطيته ما حضرنى من كثير وقليل

وما زال الخبيث يصعب على الطرقات لاختلاس ما بقى بيدى من الدريهمات، ولكن نسأل الله أن ينقذنى مما أصابنى من حكم الدهر وأن يعجل بانقضاء القضية قبل انقضاء العمر، وإن كانت لا زالت بيننا تلك المودة القديمة والإخوة الجسمية فانظر فى أمرى كيف الخلاص من هذه القضية، والسبيل لانسلاخى من هذه البلية، فقال له لقد أخرتنى حالتك وأشفقت عليك غاية الإشفاق وأنظرنى قليلا لعلى أجد لك حللا للعقد وفرجًا للكرب، وها أنا أدبر لك الساعة كيف المسلك، ثم أطرق ينظر إلى الأرض مليا، فرفع رأسه وقال: تفكرت فى طريقة نتوصل بها لحقوقك وكلما خطر لى فى ذلك خاطر خاب رجائى فيه حتى كدت أيأس لك من الحيلة ورأيت الأجدر بك أن تترك الوقوف بنفسك فى هذه القضية وتتخذ أحد هؤلاء المحامين بالأحكام الشرعية، ولقد وقعت قبلك فى هذا البلاء، وكان هو الدواء الداء.

قال فقلت أرشدنى لانتخاب محام عالمًا بالقضايا والأحكام يكون مشهودًا بعدالته مشهورًا بطهارته بعيدًا عن خلف الوعد بريئًا من خلق الوغد لا يتفق مع الخصم ولا يسرق من الرسم، قال اطلب من أنواع المحال أن يحمل الذر الجبال ولا تطلب فى محام اجتماع هذه الشروط فينتهى بك الأمر إلى اليأس والقنوط، والمحامون الشرعيون حماك الله يستوون لدى الاختيار

كأسنان المشط وأسنان الحمار، بل هم جميعًا كحمارى العبادى، قيل له أى حمار لك شر؟ قال هذا ثم هذا، وأقسم لك بخالص الود أنى لا أثق منهم بأحد، وكيف تكلفنى أن أنتقى لك ذئبًا من الذئاب وأحمل على كاهلى عبء اللؤم والعتاب فاعفنى من هذا الاختيار والانتقاء عافاك الله من جميع الأسواء، ثم ما لبث أن خلفنى ومضى وتركنى على مثل جمر الغضى فسرت كئيبًا حزينًا أبغى سواه مرشدًا ومعينًا، ولما لم أجد من أصحابى من يأخذ على عهدته اختيار محام يوثق بذمته: قصدت أحد المعلومين عندى بكثرة الخصومات وطول المحاكمات فكاشفته بطلبتى ليكشف من مصيبتى، فقال اعلم أن المحامين الشرعيين أجناس وصنوف: فمنهم المبصر ومنهم المكفوف وفيهم كتب الله لك السلامة، صاحب الطربوش وصاحب العمامة، وأنا أدلك على أهونهم شرًا وأقلهم ضرًا وأخفهم رزية وبلية وأكثرهم علمًا بالحيل الشرعية فعليك بفلان وبيته معلوم وعجل بقضيتك إليه فكم أخذ بيد مظلوم، وهنا انتهى بنا السير وراء الرجل فى تفصيل قضيته وسئمنا ورجعنا لما نحن بصدده.

فبينما نحن مارون إذ وجدنا مزدحمً بجملة أناس مختلفى الأشكال والأجناس يتسابون ويتشاتمون ويتلاكون ويتلاطمون ويبرقون ويرعدون ويتهددون ويتوعدون وأكثرهم آخذ بعضهم بتلابيب بعض يتصادمون بالحيطان ويتساقطون على الأرض، وما زلنا نزاحم على السبب فى هذا الهرج والعمائم تتساقط فوقنا وتتدحرج حتى التصقنا بهذا الجمع المتلاصق والمسلك المتضايق فوجدنا سكيرًا يتقلب على الأرض كالثعبان يضرب امرأة من الجيران وأهلها نادبات باكيات وصارخات شاكيات كأنهن قائمات فى مأتم على مدافن

الأموات، وبعلها حاضر فى تلك المفظعات ولم يقدر أحد أن يخلصها من تلك البليات، لأنهم يظنون أن السكران كالشيطان لم يقدر عليه إنسان ووصل بهم الجبن لهذا الحد حتى حضر البوليس وساقهم جميعًا سوق الأغنام.

وسمعنا من أفظع ما سمعناه امراة تنتحب وتقول، ونقابها بماء العين مطلول: لو كان للنساء قضاة من النساء لما وصلنا إلى هذه الحالة التعساء فإن الرجال يميلون لجنس الرجال، وينتصرون لبعضهم على ذوات الحجال فحاولنا أن نخطو خطوة إلى أمام، فلم نستطع من شدة الزحام، كأن الناس تتموج كبيوت النمل، أو خلايا النحل، وبعد مشقة عظيمة، انسلخنا من تلك الداهية الجسيمة، وانتهينا منها إلى قاعة ممتلئة بصنوف الباعة.

فإذا برجل يقول إن هذه الضرائب الأرضية وسعت دائرة الظلم فى الوقت فتجد بائع الخبز والخضار والعطار وغيرهم بكثرة قد سدوا مسالك الطريق، فإذا قيل لهم فى ذلك احتجوا بإعطاء الضريبة حتى إن منهم من يزاحم صاحب الملك فى ملكه، وهذه إحدى المضرات والمفاسد التى عم ضررها وشاع شررها.

وبينما نحن فى الطريق إذ وقف رجل بين أيدينا فسلم وصافح عبد الباسط: فقال عبد الباسط: ما هذا العبوس والقطوب الذى يظهر على وجهك الساعة وما كنت أعلمك هكذا. فقال لكثرة ما تراكم على من الهموم والأحزان، خصوصًا فى هذه الأزمان التى لا يكاد فيها أحد أن يخرج من هم إلا إلى هم، ولا من كدر إلى كدر، وكنت كما تعلم ذا ثروة جسيمة، ونعمة عظيمة، فإذا ببعض الفجرة ادعى على أننى بعت له البستان الفلانى الذى هو أشرف ما بيدى من الأملاك وأنه اشتراه بكذا من المال وأتى بحجة على ذلك

مثبتة وطلب منى أن أوصله له والحالة أننى ما رأيته ولا بعته له بواسطة ولا دفعته للسماسرة وها أنا حائر فى القضية، وقد رفع شكايته بى على القاضى فلان وألزمنى تسليم الستان وها أنا فى ذهول تام من هذه القضية التى كانت لى من أعظم رزية.

وتركنا هذا العصفور قد وقع فى يد الصائد المحتال، والفتنا إلى ذات الشمال لسماع ما يدور من الجدال من عدة رجال فى قضية رجل ادعى عليه جيرانه أنه فض خاتم بنت لهم، وأثبتوا ذلك ببينة ورفعوها للقاضى وأثبت المدعى عليه عداوة المذكورين له وأنهم يبغضونه لكونه يميل إلى العمل بالكتاب والسنة، واشتد بينهم الجدال والخصام فحملقت العيون، وعبست الوجوه، وتحركت الضغائن، وثارت الأحقاد، ورأينا كل واحد منهم يضمر لأخيه من الشر والأذى ما لا يضمره القرن لقرنه فى ساحة الوغى، فانصرفنا عنهم وتركناهم يموج بعضهم فى بعض كأنهم فى موقف الحشر ويوم العرض.

وبينما نحن ماردن إذ سمعنا رجلا يقول لآخر: كيف حالك اليوم بعد موت أبيك مع الأشقاء؟، فقال لا تسأل وما هم إلا رزايا متساقطة، أو بلايا متلاحقة، فكلما انتهيت معهم من بلاء دخلت فى بلاء، وانصرفت من شقاء إلى شقاء، وقد أحرمونى من ميراث أبى وسدوا خروق السور والأبواب فى وجهى وأنكروا أخوتى لهم مع أننا من بطن واحد وأثبتوا على ذلك حجة، ولم يكن عندى ما أقاومهم به فى المنازعة، والمحامون وأصحاب القاضى يروحون بينى وبينهم ويغدون، فيمكرون بى وبهم ويكيدون، ويتقلبون بينى وبينهم ويحتالون، فيخدعون ويغتالون، وإلا شقاءهم فيما بينهم يتفاكهون

ويتسامرون، هذا يلت فى يده أفيونة، وذاك يكور بين أصابعه معجونة، وبعضهم غارق فى غفلته، وبعضهم غائب فى سكرته، على حكم عادته، وجعلهم بين الناس شائع، وعملهم فى الوقت ضائع، والله يكفينى شرهم وشر ما فى هذه الدار، من الأقضية والأقدار، وكثرة اللموم والأكدار.

حكم السلام بدءا وردًا

وبينما نحن ماروں إذ واجهنا رجل كان يعرفنا سابقًا فقال: ليلكم سعيد، فالتفت إليه الشيخ عبد الهادى وقال: ما سبب عدولك عن: السلام عليكم إلى ليلكم سعيد وأنت ممن ينسب إلى الدين، ألم يكن فى ذهنك ما رواه الإمام الأعمش عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن الحرث قال: "إذا سلم الرجل على القوم كان له فضل درجة، فإن لم يردوا عليه ردت عليه الملائكة ولعنتهم"، ألم تسمع قوله ﷺ "ألا أدركم على أمر إذا أنتم فعلتموه تحاببتم؟ قالوا بلى يا رسول الله، قال أفشوا السلام بينكم" وقال عطاء: يسلم الماشى على القاعد والصغير على الكبير والراكب على الماشى، ويسلم الذى يأتيك من خلفك وإذا التقى الرجلان فأفضلهما الذى ابتدأ بالسلام.

وقال الحسن البصرى فى قوم يستقبلون قوما يبدأ الأقل الأكثر. وروى زيد بن وهب أن النبى ﷺ قال "يسلم الراكب على الماشى والماشى على القاعد والقليل على الكثير".

وقال أبو الليث إذا دخل جماعة على قوم فإن تركوا السلام فكلهم آثمون فى ذلك، وإن سلم واحد منهم أجزأ عنهم جميعًا، وإن سلم كلهم فهو أفضل، وإن تركوا الجواب فكلهم آثمون، وإن رد واحد منهم أجزأ عنهم، وإن أجابوا كلهم فهو أفضل.

وقال بعضهم يجب الرد عليهم جميعًا، وهذا القول أصح، وروى عن أبى يوسف أن الرد فريضة وقد وجب الرد عليهم جميعًا.

وقال بعضهم يجوز إذا رد الواحد عنهم جميعًا، وبه تأخذ، وروى الأعمش عن زيد بن وهب أن النبى ﷺ قال "إذا مر قوم بقوم فسلم عليهم واحد منهم أجزأ وإذا رد واحد منهم أجزأ عنهم".

وقال بعضهم أجر الرد أفضل لأن الرد فريضة والتسليم سنة، وأجر الفرض أكثر من أجر السنة، وإنما قيل أن الرد فريضة لأن الله تعالى قال (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) فأمر سبحانه برد السلام، والأمر من الله تعالى فرض.

التهاون فى رد السلام والنهى عنه

فالتفت عبد الباسط إلى الشيخ وقال: لقد أدى الحال السيء بأهل الوقت إلى أن تركوا كوادر السلام، وقلما تجد أحدًا يرده كما أمر الله والرسول ﷺ بل قصار أمرهم فيه أن يقولوا فى رده: السلام، أو يزيدون، ورحمة الله وقد تركوا روح الجواب وهو لفظه عليكم، ولا شك أن إسقاطها ليس برد: وقد سرى هذا الداء حتى فى العلماء، فقال الشيخ: نعم ليس هذا برد ولكنه من الدسائس الشيطانية، بل ينبغى للمجيب إذا أراد رد السلام أن يقول وعليكم السلام ويسمع جوابه لأنه إذا أجاب بجواب لم يسمعه المسلم لم يكن ذلك جوابًا ألا ترى أن المسلم إذا سلم بسلام ولم يسمع منه لم يكن ذلك سلامًا، فكذلك إذا أجاب بجواب ولم يسمع منه فليس بجواب، وروى معاوية بن قرة أن النبى ﷺ قال "إذا سلمتم فأسلموا وإذا رددتم فأسمعوا، وإذا قعدتم فاقعدوا بالأمانة ولا يرفعن بعضكم حديث بعض" يعنى به

النميمة، وينبغى للرجل إذا سلم على واحد أن يسلم بلفظ الجماعة، وكذلك فى الجواب لأن المسلم عليه لا يكون وحده، وروى الأعمش عن إبراهيم النخعى أنه قال: "إذا سلمت على الواحد فقل: السلام عليكم فإن معه الملائكة"، وروى أبو مسعود الأنصارى "أن امرأة جاءت إلى النبى ﷺ فقالت عليك السلام، فقال النبى ﷺ هذا السلام على المؤنث ولكن قولى السلام علكيم" ثم الأفضل أن يقول السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وكذلك المجيب يقول هكذا فإن أجره أكثر، ولا ينبغى أن يزيد على البركات شيئًا وروى أبو أمامة عن سهل بن حنيف عن أبيه أن النبى ﷺ قال: "من قال السلام عليكم كتب الله له عشر حسنات، ومن قال السلام عليكم ورحمة الله كتب له عشرون حسنة، ومن قال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته كتب له ثلاثون حسنة".

وروى عن ابن عباس (رضى الله عنهما) أنه قال: لكل شىء منتهى ومنتهى السلام البركات.

فقال عبد الباسط: وأخبث مما واجهنا به هذا العالم من قوله: ليلكم سعيد قول غالب أهل الوقت اليوم أن يعدلون عن السلام عليكم إلى صباح الخير، أو مساء سعيد، أو لفظه بنجور، أو جدمور، وربما أشار بعضهم بإصبع واحد من غير تلفظ، ومنهم من يضع يده اليمنى على رأسه وهذا كثير جدًا تشبهًا بأعداء الدين، ومن العجب صدوره ممن ينسب إلى العلم، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

وفى الحديث الصحيح "ليس منا من تشبه بغيرنا لا تشبهوا باليهود ولا النصارى، فإن تسليم اليهود الإشارة بالأصابع، وتسليم النصارى الإشارة بالكف" رواه الترمذى فى سننه.

وبينما نحن فى الطريق، إذ رأينا جارية تعلو وجهها قترة، ترهقها غبرة، وهى تبكى وتنتحب وتصرخ وتصطخب، فتفرسنا فى هيأتها وأردنا أن نسألها عن حاجتها فإذا هى تكلم عجوزًا وتقول: إن الرجل الغدار طلقنى وتزوج بابنة صغيرة، وها أنا اليوم أقاسى الشدائد من أبى وأمى وانسدت مسالك الخير فى وجهى، وصار من كان يعظمنى ويحترمنى يهجرنى ويسبنى ويلعننى كأننى ما فعلت الخير معهم، وتحقق عندى أننى كنت فى الجنة وأخرجت منها كما أخرج الشيطان الرجيم من دار النعيم المقيم، وها أنا مجتهدة كل الاجتهاد فى إرجاعه إياى على الرغم منه، ووعدنى الطالب الفلانى أن يسحره حتى لا يجد عنى صبرًا ليلا ونهارًا، ويأتى إلى حاملا سكينًا بأسنانه متضرعًا بأعتاب منزلى، وطلب منى أن آتيه بقطعة من عمامته أو لباسه إلا أنه أكثر على فى الأجرة فقد أخذ دماليجى الذهبية ولا زال يطلب الزيادة، وكانت أرشدتنى له حارتى العياطة، وبشرتنى بأنه رجل سحار، لا يدين الله بدين فى السر والجهار، وما حصل لها هى مع زوجها إلا بسببه. ثم قالت الجارية للعجوز: فاطلبى يا أماه التيسير لى والفرج، فقد كل صبرى، وضاق صدرى، وطالت المدة التى وعدنى الساحر أن يتم فيا غرضى، وكلما ذهبت إليه يتعلل بأنه لا زال ينتظر إبان الطالع، وأدرى ما هو الطالع، والفضيحة يا أماه كل الفضيحة أن تذهب تلك الدماليج كما ذهب الرجل. فقالت العجوز: نعم يا بنيتى فهذا هو الذى أتوقع لك، وقد كان وقع لى فى حال شبابى مثل ما وقع لك مع زوجك، وكنت أحبه محبة شديدة لوجوده وكان لا يحبنى، وأداه الحال إلى أن طلقنى، فكنت لا أسمع بساحر فى حومة من أحوام مراكش إلا قصدته، فمنهم من طلب منى ذلك كسوة كاملة، ومنم من طلب الدماليج، ومنم من طلب قدرًا من المال وكل

منهم يقابلنى بترهات عديدة، ويقرب على المسافة البعيدة إلى أن نفد ما بيدى من تلك الأموال التى ورثتها من أبى ولم أحصل على طائل، وها أنا يا ابنتى من تلك المدة فى مشاق عظيمة من أجل المعيشة، فتارة تجدينى غسالة، وتارة دلالة، وتارة سياقة، وتارة سكاية، وتارة خبازة، وتارة طرازة، وتارة نقاشة، وتارة قواده، وتارة كماشة، وتارة نواحة وتارة طلاية، وتارة سحارة، وتارة شيطانة، وتارة حضارة، وتارة مداحة وتارة عياطة، وتارة رشاشة، وتارة عوادة، وتارة قصابة، وتارة خياطةن وتارة رقاعة، وتارة غزالة، وتارة فتالة، وتارة حركاصة، وتارة قبالة، وتارة حمالة، وتارة طرارة، وتارة خرافة، وتارة غدارة، وتارة حوالة، وتارة حجامة، وتارة وعاظة، وتارة قمازة، وتارة سرامة، وتارة غرازة، وتارة وشامة.

ثم قالت العجوز بعد هذا: ولابد لك يا ابنة زيد من ارتكاب هذه الأحوال، والتقلب فى أطوارها على ممر الأيام والليالى، ومقاساة هذه الصفات الذميمة والمسالك اللئيمة فى الحال والمآل، فريضى نفسك على اقتحام هاتيك المهالك، واستعدى لارتكاب تلك المسالك، ولا يصونك عنها إلا اقتراب الأجل، أو إرجاعك لزوجك الأول، والغالب على ظنى يا ابنة زيد أنه لم يبق لك إلا التداخل فى أسباب الشقاء، والبلاء فى أثر البلاء واحتمال الهوان فى السراء والضراء، فاصبرى فقد رأيت خاتمة أمرك محض ضيق وخسران، ونصب وهجران، وذل وهوان، وذهول فى عقل وطغيان، فجوف الأرض اليوم أفضل من ظهرها، ودرج من بطنها أحسن لك من حجرها، فالويل لك ثم الويل لك يا ابنة زيد، فمصيبات اليوم أعظم من مصيبتى وأخبث من فضيحتى، لأن أيامى كادت أن تنقضى بخيرها وشرها وحلوها

ومرها، وأيامك لا زالت قريبة العهـد من حرارة تلك الأشواق، ومرارة البعد والفراق، سيـما وكان زوجك شابًا ذا لطف وجمـال، وقوة فى العقل والمال، وكنت عنده من ربات الخدور فى تلك القصور، ولكن الذنب كل الذنب على والدك وأمك حيث تركـوك جاهلة بأحوال الرجال، حـتى أدراك الجهل بذلك لارتكاب الأوحال، فلو كنت له كأمة كان لك عبـدًا، ولو كنت سميعة مطيعة كان لك رقًا، ولكن لما صـرت تعصين له الأمر، وتفشين له السـر، وتسببت فى ضيق صدره، وقعت فى غدره، فالخسارة ما لحقتك إلا من سوء رأيك مع زوجك، وشـدة جهلك بما يراه منك فى حـقه، ولولا ذلك لما وصلت لـهذا الهوان.

ولكن انتظرينى الساعـة لعلى أجد لك قابلية الرضى، فذهبت مـسرعة إلى بيته ونحن فى أثرها، فإذا هو جالس أمام البيت يلمع فى ثيابه وأنه شاب صغير السن وأنه وأنه، فمالت العجوز عليه وألقت فى أذنه بعض القول، فقام وقـعد وأبرق وأرعـد، وقـال هذا شىء لا يكون على طول السنين والأعـوام وانصرام الليالى والأيام، وكيف يطيب خـاطرك باجتماعى بهذه المرأة التى هى كالجيفة أو قطعة من طريفة. قالت ما ذاك؟ قال إنها لا تعرف نظافة ولا طهارة ولا أمانة ولا عفـة ولا صيانة، وطالما قابلتنى بألفاظ الفحش والـفجر وأقوال البذاءة والنكر، والآن بشريها منى باليأس والقنوط والخـيبة والحبوط، وهذا ما عندى لها فى الصعود والهبوط، فرجعت إليها ونحن على الأثر إلى أن وقفت العجوز بين يديها، فسهلت البنية بهـا ورجعت وبالغت فى التحية وأسهبت، وقالت يا أماه ما الخبر؟

فقـالت العجـوز: تعسًا لك! لقـد ضاع شرفـك وذهبت آمالك وازداد

فقرك، واندثر بيتك، وعفت آثارك، وتكدر عيشك، وتهدم قصرك، وخاب سعيك بسبب سور سريرتك مع زوجك.

فقالت ابنة زيد: ليتنى كنت شوهت خلقته، ومسخت سحنته، فنتفت شاربه، وحلقت حاجبه، ويشهد الله أننى خرجت من شدة إلى شدة وانتهيت من خطب إلى خطب، فسلمت وصبرت ولكن لا صبر لى على هذه الخارقة فما أعظم الفاجعة وأشق النازلة، لقد فنى منى الصبر ومن لى بفناء القبر، فمثلنا من هذه القصة طربًا وقضينا عجبًا، وقلنا ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ما أكفر النساء بالعشير!.

وقد انتهى بنا السير إلى زنقة باب الفتوح، فإذا برجل قصير القامة كبير العمامة، ذو وجه مقنع بالاصفرار، وعين مكتحلة بالاحمرار يستنجد رجلا ويستغيث به ليدله على من يبين له سرقة، فقال عليك بالعراف الفلانى الذى بالحومة الفلانية فإنه يخبرك بالواقع وقد جربته مرارًا كثرة فما أخطأ فى واحدة منها، وإياك أن تذهب إلى غيره، من هؤلاء العرافين الذين اعتكفوا على شرب الخمر ليلا ونهارا، وارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن سرًا وعلانية.

وها أنت ترى أجسامهم مسمومة، وأبدانهم مهزولة، وشفاهم متقلصة وعيونهم غائرة، ووجوههم مغبرة، وأناملهم مصفرة. إذا رأيتهم حسبتهم فى حال المصابين بالفعل، فإياك أن تقف بين يدى غيره من عينت لك، فقال نعم، ثم إنه أراد الذهاب وإذا برجل أخذ بيده وقال: ألم تعلم حال هذا العراف الذى أرشدك له الرجل؟ قال لا، قال إنه شيطان محض فى زى إنسان. قال وما ذاك؟ قال: إنه يذهب لحمامات هذه المدينة فى الثلث الأخير

من الليل ويبول فى حياضها، وربما تغوط فيها، وهذا حاله فى كل الحمامات، فتجده يومًا بحمام المواسين، ويومًا بحمام حومة القصور، ويومًا بحمام الذهب وهكذا، وربما بال بداخل المساجد العظام يوم الجمعة ويلطخ حصرها، وربما تغوط بها، ومنهم من لا تزال يده ملطخة ببول أو عذرة، وما قرب من شخص إلا أصابه من ذلك خصوصًا الأتقياء، ولا تسأل عما يقع منهم فى حالة الازدحام، ولا مفهوم لما ذكرت، بل لهم منكرات أفظع من هذا، وفى الإشارة ما يغنى عن العبارة، ولأجل هذا ساعدهم شيطانهم على الاطلاع على أحوال الناس مع كثرتها، وقد كثر هذا النوع بمراكش ذكوراً وإناثًا، وإذا كست على يقين بهذه الأضاليل والكفريات الصادرة منهم، فكيف يجمل بك أن تذهب لمواقع الفسوق والخذلان؟. أما بلغك من علماء عصرك ما أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال "من أتى عرافًا فسأله عن شىء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يومًا". وما أخرجه الإمام الترمذى وابن ماجه والنسائى وأبو داود والحاكم أن النبى ﷺ قال "من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدق بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ. وما أخرجه البزار وأبو يعلى أن رسول الله ﷺ قال: "من أتى عرافًا أو كاهنًا أو ساحر فسأله فصدق بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ". وقد علمت أن العراف هو الذى يدعى معرفة الأمور بمقدمات أسباب يستدل بها على مواقعها: كالمسروق من الذى سرقه، ومعرفة مكان الضالة ونحو ذلك، ومنهم من يسمى المنجم كاهنًا. فقال الرجل: وحيث ذكرتنى فإنى لا أخوض عباب هذا البحر المؤدى إلى الفسوق والكفر، ولا يخفاك أننا اليوم فى حركة لا شرقية ولا غربية. قد اشتغل بعضنا ببعض واكتفينا من دهرنا هذا بحوادث

يومية، فتعطلت بيننا مجالس العلم، واندرست مجامع الأدب، واقتصرنا على مطالعة الجرائد على ما فيها من الخرافات والأكاذيب، فكيف نهتدى لما أرشدت إليه؟ وكلامك هذا معى قليل التداول، بعيد التداول، وقد أصبح أمثال هذه الأقوال المحمدية منبوذة، وثقل على الناس سماعها فضلا عن العمل بها. ثم تركناهما وذهبنا. فإذا برجل يقول لآخر: أخبرك بخبر غريب وقع لى بالأمس. قال ما هو؟ قال: قصدت الرحبة لأكيل رزعًا، فلما أراد العبار أن يعبر ورآها كادت أن تملأ أخذها بيده كأنه أخذ حية تسعى، فتلطف حتى أقعدها على الأرض بهيئة عجيبة وأكمل باقيها بلطافة غريبة، وفى ظرف هذه الحالة أتاه شاب أسمر اللون أصلع الرأس كأنه شيطان بشر به ماء فى قزديرة طويلة الجسم بعيدة القعر، فمص منها مصة أو ثلاثًا. ثم أهرق الباقى بالأرض وأخذ تلك الآنية وملأها قمحًا كأنه رب الزرع يتصرف فيه كيف شاء ودفعها للشاب، وصاحب الزرع ساكت لا يقدر على التكلم خوفًا من سيطرة العبار، وفى الحال أتت صبية كأنها فى حركاتها جنية، وجلست العبار تأخذ من القمح ما شاءت بعد المرة، فنظرها رب الزرع ونهرها وسها ومع ذلك لم تلتفت لقوله ولم تخف من ضربته، فالتفتت إليه العبار وقال: لا يأس، وإنما هذه البنية الفقيرة تلتقط من القمح ما هو خارج عن ملكك وليس لك، وإنما هو لأحد البياعين قبلك فلا تحرمها رزقها ودعها تعيش، سيما وهذه الفقيرة من القوم الذين لا يتجرون ولا يطحنون ولا يعجبون ولا يخبزون ولا يسألون، وإنما حركة رزقهم فيما رأيت، وبهؤلاء يتضاعف لكم الربح، ويكثر لديكم الكسب، وترجعون لبلادكم بسلامة وعافية ونعم وافية، فلا تتعب جسمك وتضيع وقتك فى انتهاز هؤلاء، فأين أنت ممن يأتي يحمل من القمح، ويقدر فى نظره أنه يتحصل له فيه كذا وكذا، فإذا هو ربما حصل له

ربع ذلك لأجل كثرة النهب من بين يديه ومن خلفه، وربما زاد صدقة على هذا، ومع هذا يخرج من البلد فرحًا مسرورًا.

فالتفت لنا عبد الباسط يعد كلام هذا الرجل وقال: كان لى جار عبار وسألته يومًا عن حاله فى تلك الحركة، فقال لا تسأل وإنما نحن لصوص وفجار وفساق وغدار لا دين لنا كما أنه دنيا لنا، وقلما تجد فينا من يفرق بين الرشد والغواية والضلالة من الهداية. وما دام هذا الخراب فينا، وسخط الناس، ولصوق العار، ووقوع الفضيحة وسوء المصير، فمحال أن ينقلب الحال إلى أحسن حال فى المقام والمسير، وحسبك من مصيبتنا وظلمنا للعباد أن كل ما رأيته من هؤلاء الكماشة ذكورًا وإناثًا الذين يأخذون الزرع من بين الأرجل والتلاليس ويأتون فى بعض الأحيان بأوان من الماء فكلهم معنا وفروع منا، وجدناهم خير معين فيما نحن بصدده من أكل تلك الزروع بالباطل، ولولا مدافعتنا عنهم ما يحل بهم فى بعض الأوقات من بطش بعض أخلاف البادية من الضرب والشتم لما رأيت واحدًا منهم بالرحبة. وها أنا قد أوقفك على حقيقة أحوالنا، وجبلة أمرنا، فادع الله لى يا أخى أن ينقذنى من القوم الظالمين، ويتوب على إنه ثواب رحيم.

فبينما نحن مارون إذ رأينا رجلين يتنازعان، واشتد الخصام وعظمت الفتية، فالتفتت إليهما رجل وقال: ما هكذا أمر الدين الإسلامى.

أوامر الدين الإسلامى وفوائدها

الدين الإسلام يمنع أصحابه من الأذى والعدوان، ويقول لهم "المسلم من سلم الناس من لسانه ويده". الدين الإسلامى يحتقر الأنانية ويؤكد روابط المودة ويأمر أصحابه بقوله "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب

لنفسه" . الدين الإسلامى يأمر أهله بالصدق والوفاء والرفق والحنان، ويقول لهم "الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء" . الدين الإسلامى: دين عطف ورحمة وإنسانية، دين محبة وتعاضد ووئام، دين أنفة وعزة وإباء. الدين الإسلامى: يتضمن سعادة البشرية وهناءنا ويهب إلى حياة الرفعة والمجد والعظمة والإجلال.

لقد فتح دين الإسلام أبواب الكمال فى وجه البشرية وأماط لها الستار عن سبيل السعادة، وقرر حقوق البشرية على وجه الشركة وأتى على بنيان لاستبداد من أساسه، ولا تكاد تجد دينا يجمع ذلك النظام وينادى باحترام العقل والحرية والعدالة والمساواة كالدين الإسلامى، فهو الدين الذى تفرد بالهيمنة والمحافظة على حقوق الأفراد والمجتمعات، حتى فى الخلوة والجلوة، فالعقل والربوبية والذمة والضمير والطهارة يقضى كل ذلك بعدم الجناية عليه.

ثم قال: ولقد تراكمت العادات، وساءت الحالات، وصار الناس عبيد الأوهام، كثيرى الخصام ولو على الأمور الحقيرة، ما ذاك إلا من جهلهم بدينهم، ومتابعتهم لأهوائهم وشيطانهم. والأم لله. ثم قال لهما: ومن الواجب عليكما أن تعملا سلطان الحق بينكما، ومن كان له حق على الآخر أخذه بإنصاف، ولكن سوء الحظ أبعدكما عن هذا المكان، على أن الثورة قد انقضت أيامها، وتبدلت تلك الأحوال - أحوال الجاهلية - وتغيرت تلك المعالم، وصارت البلاد بلاد أمن وعافية، لا بلاد انتقام وظلم وعدوان وفجور وخسران. وقد تأثرا لحكايته، وأخذت الدموع تنهمر من عينيهما، ثم إننا تركناهم وذهبنا.

وبينما نحن كـذلك إذ سمعـنا قائلا يقول: لقـد أصبح كثـير من الآباء يدفعون ببناتهم إلى أول خاطب مـخافة أن لا يكون وراءه خاطب آخر، وفى ذلك من نذير الشقاء، وتهدم الأسرة ما فيه، وكأنما هؤلاء الشبان لا يرون فى بلادهم فـتاة واحدة تصلـح لواحد منهم. ثم قـال: كما أن الـطلاق الآن قد أصبح فى المغرب، ولا سيـما فى الطبقات الحقيرة من العامـة نعمة الخلاص، وأمان الخائف، وغـياث الملهوف، وفرجة المكروب، ومـتنفس المختنق، وكأنه لذة المستلذ، ولهو المتلهى، وكأنه نعمـة ومسرة فى حد ذاته. وما يدريك لعلنا سنرى عما قليل أزاهر حفلات الـعرس، وباقات أيام الزفاف، وطرائف مآدب المهرجان، منـقولة متحولة منهـا إلى حفلات الطلاق ومآدبه وولائـمه الحافلة الشائقة الرشيقة الرائعة.

بل لعلنا سنشـهد قريـبًا القوم وقـد أعدوا لمأدبة الطلاق تلك الكـعكعة المثلجة الفـخمـة التى كنا نراها تقدم للمدعـوين فى حفـلات العرس، وهذه إحدى الأسباب التى أورثت فى القلب دهشة، وأرسلت فى النفس حيرة.

فينما نحن كذلك إذ سمـعنا رجلا يقول: نعوذ بالله من حسن الظن فى هذا الوقت، نعـوذ بالله من حسن الظن، فـتقدمـنا إليه وقلنا مـا بالك؟ قال اشتـريت خنشة من الدقـيق وأعطيتـها لحـمال، فلما دخل فـى الزحام هرب بالدقيق.

فالتـفت إليه رجل وقال له: هلا أخـذت بيده أو جعلتـه قدامك وأنت وراءه جاعلا قدمك على موضع قـدمه إلى أن تصل لمحلك، ولكن الأمر كما قلت، لقد غرك حسن الظن وأوصلك إلى دائرة الغبن.

فضل الصحة على المال

وبينما نحن فى الطريق إذ سمعنا قائلا يقول لآخر: هل لك رغبة فى حضور مجلس الليلة؟ قال وما ذاك؟ قال مجلس حضر فيه سادات أعلام من علماء الإسلام، نصراء الحق، وحلفاء الصدق، وهداة كل ضال مارق، ودعاة الخلق إلى معرفة الخالق. فقال لا إكراه أن أتشرف بمكانهم وأتبرك بنور إيمانهم. وأى لذة أشرف وأصفى وأفضل وأنقى من لذة الاجتماع بهم، والتمتع بمشاهدة طلعتهم، فانهض بى على بركة الله.

فأخذ بيده وتوجها، فلم يسعنا إلا السير وراءها إلى أن انتهينا جميعًا إلى باب دار، فشممنا إذن ريحان الأبرار، فاستأذنا فى الدخول واستأذنا، وسلمنا وسلمنا، وجلسنا وجلسنا، وتكلمنا وتكلمنا، واستأنسا واستأنسنا. فرأينا مجلسًا جمع كل أغر منهم محجل، وكل معظم فيهم مبجل، ووجدناهم قد تبوءوا المقاعد، وتوسدوا الوسائد، ثم أدركنا نستجمع قوى الإدراك والعقل، لنلتقط ما ينتشر من أفواههم من درر العلم والفضل، وإذا بهم يخوضون منذ البداية إلى النهاية، فى حديث غريب الرواية، لطيف الحكاية، فسمعنا أحدهم يقول: أيها السادة صحة الفرد هى ثمرة حياته، وأساس بقائه وعمله، وصحة الأمة وسلامتها هى رأس ما لها وأساس نجاحها وفلاحها، ولا يتحقق للمرء طمأنينة ولا رجاء ولا أمل حتى يعيش سليم الجسم من الأمراض والآفات والعلل. إنك ترى كثيرًا من الناس يعيشون وهم فى قلة من المال، لكنهم مغبطون بما من الله به عليهم من صحة وعافية، وكذلك تجد أكثر سكان الأرض من الفقراء ولكنهم لا يتألمون لقلة المال كما يتألمون لضعف الصحة، ولولا أنهم يعلمون أن المال وسيلة للصحة التى ينشأ

عنها الهناء وطول البقاء ما أتعبوا أنفسهم فى تحصيله ولا أضنوا أجسامهم فى اقتنائه، على أنك ترى فى كثير من الأحوال أنه تتوفر أسباب الثروة والرخاء لدى شخص، فيسكن القصور العالية، تحف بها الحدائق الزاهية، والنعم الفاخرة بين أتباع وحشم، وأعوان وخدم، ولكنه غير قرير العين، ولا هنىء النفس بسبب ما هو فيه من علة ومرض، آخذًا عليه مسلك الراحة فى ليله ونهاره، وكدرا عليه صفو العيش فى عشية وإبكاره، إنه يتضجر وحق له أن يتضجر. فالإنسان إذا خسر صحته فماذا بقى له من دواعى الغبطة والسرور والهناء والحبور، وإذا عاش شقيًا فى بدنه فكيف يكون سعيدًا بماله.

يتمنى المثرى المريض وهو فى علياء قصره أن لو كان كأحد خدمه، بل يود لو يشترى صحة عبيده بكل ما يملك من ذهب ونضار، وقصور وعقار، بل ربما سمعته وهو من العظماء وكبار الأغنياء، يئن أنين الثكلى، ويتأوه تأوه الحزين لا لأنه فقد مالا، بل لأنه فقد صحة وعافية.

ولقد تعلم أنه يحسد جاره الفقير أو يحسد أبناء السبيل، لأنهم أصحاء وهو عليل.

أيها السادة إذا وجد المال بلا صحة كان غصة على صاحبه لأنه يحب أن يتمتع بما أوتى، فلا يجد إلى ذلك التمتع سبيلا.

وهل يستطيع أن نتصور سعادة ومسرة مع اختلال فى الصحة إلا إذا كنا نغفل العقل، ونهمل حكمه، ونغمض العين عن تجاريب الحياة، يكدح الزارع طول يومه، ويكد العامل طول نهاره، ثم يعود كل منهما فى آخر يومه إلى بيته فرحًا مستبشرًا، شاكرًا لله على ما أنعم به عليه من عافية ولنعمه ذاكرًا، وكأن كلا منهما على قمة هرم المجد والغبطة يعيش.

أمـا ذو المال السقـيم، وصـاحب القناطر المقنطرة من الـذهب والفضـة العليل، فهو يتقلب علـى جمر الضجر والسخط والتبرم بالحـياة وعدم الرضا بها يطول عليه الليل فيقـضيه سهادًا، ويمل النهار فيقضـيه صيامًا. لا يلذ له شراب ولا طعام، ولا يهنأ براحة ولا منام. مبيـته سهر، وتفكيره ضجر، يود الفرار من القدر ولكن أين المفر؟

سادتى: خير لنا أن نسأل الناس فردًا فـردًا، وأن نسأل الممالك المتحضرة مملكة مملكة: بأى الأشياء يهتمـون ويعتنون قبل كل شىء وما هو الذى يشغل بالهم أكثر من غيره فى الحياة، وهل ابتـدأ الممالك بمعالجة البطالة قبل أن تبدأ بمعالجـة الأمراض الفـتاكة بالـرعايا؟ وهل يبدأ الفـرد من الناس بتنمـية ثروته وتكثير ماله قبل أن يبدأ بتطييب نفسه ومعالجة جسمه.

لقد أنبـأنا التاريخ وهو المحدث الـصادق أن هارون الرشيـد ضل طريقه يومًا وهو فى صـيده وقنصه مع بعض بطـانته، فعطش ثم اشـتد به العطش، فقال لو أن إنسـانًا باعنى الآن شربة ماء بكل ما أملك مـا تأخرت. ثم مرض مرة فاحـتبس ماؤه، فقال لـو أن طبيبًا عالجنى بكل مـا أملك حتى أبرأ لكان الأجر قليلا.

فانـظر إلى ملك يدفع بدلا من شربة مـاء أو فى إخراجـها. هـذا قول الخليفة العباسى، وقد جـرب الغنى ولذة الصحة. ومثله ينبغى أن يكون قولا فصلا فى هذا الموضوع، فقد قيل:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصـــبابة إلا من يعانيـها

على أن المال قد يكون سببا فى هلاك صاحبه كما أن الطاووس قد يذبح من أجل ريشة، ولا يمكن أن تكون الصحة سببًـا فى هلاك صاحبها، لا أحد

فى العالم ينكر أن المال يستهان به ويبذل فى سبيل استرجاع الصحة والمعافاة من المرض، وهو مع ذلك يعد ضحية رخيصة وثمنًا بخسًا. أما الصحة: فلا يضحى بها من أجل المال ولا يرضى مخلوق أن يجعلها ثمنًا للفضة والذهب. إن الغنى بدون الصحة فقر، والمرء بدونها ضعيف، وذو الجاه إذا فقدها كان ذليلا، ولولاها ما استطاع أحد فى هذه الحياة الدنيا أن يسير على قدميه، أو يعمل بيديه، أو ينظر بعينيه أو يسمع بأذنيه، وإذا ذهب المال استطعنا أن نجد عنه بديلا، وإذا ذهبت الصحة لم نجد إلى الحياة سبيلا. والعقلاء جميعًا يحتقرون فى سبيل الحياة جواهر البحر ومعادن الأرض وزينة القصر، وزخارف الدنيا جميعها لأنهم يعلمون أن القرحة فى إصبع القدم يتألم لها سائر الجسد وتبكى منها العين ويتوجع الفؤاد، وإن العقل السليم فى الجسم السليم، ولا شىء فى الدنيا أعز من سلامة العقل.

إن الأمم غنية برجالها قبل أن تكون غنية بأموالها، وعزيزة بقوتها قبل أن تكون عزيزة بثرواتها، فالمال خادم الصحة التى بها تستقيم الحياة، فإن لم يكن خادمًا صادقًا فعليه العفاء، وللصحة الدوام والبقاء.

وبعد فالمال فى هذا العالم سبب من أسباب الطغيان والعصيان، وعامل من عوامل الحقد والبغضاء والحسد بين الناس فى كل زمان، والمال يشترك فى إعطائه خالق الأرض والسموات والغنى من المخلوقات. أما الصحة: فلا يقدر على إعطائها إلا الله وليس للمخلوقات فيها من فضل، والشىء يشرف بشرف معطيه.

نعم إن المال وسيلة من وسائل الحياة، لكن قد يكون جالبًا للسعادة إذا صحبته الصحة والتوفيق، وقد يكون جالبً للشقاوة مقصدًا لصاحبه، ولو

كان لـلمال فى هذه الحـياة الفـضل الكبيـر، والشأن الخطيـر، لكان الأنبـياء والمرسلون والمرشدون والمصلحـون فى مقدمة الأغنياء وأهـل الثراء، ولكن ما كان من ذلك شـيء، ولن يكون، ولعل هذا كاف فى تفـضيل الصـحة على المال إن كنا ممن يسمعون وينصفون، الناس جميعًا يحيون الحياة ويحبون كل ما يوصل إلى الحياة وكل ما يحفظها عليهم، ويكرهون الموت وكل ما يوصل إلى الموت وكل مـا يجلبه عليـهم، فالجـندى الذى يذهب إلى ميـدان القتـال إنما يذهب فى الحقيقة ليحفظ الحياة على نفسه وعلى وطنه وليدفع الموت عن نفسه وعن أهل وطنه، والعامل الذى يركب البحر ويخاطر بحياته فى السفينة ويشق عبـاب المحيط إنما يفعل ذلك للوصـول إلى الحياة وحفظ الحـياة بجلب الرزق والأجر الذى يحصل عليه، ومن هذين المثلين يظهر لنا جميعًا أن الذى يشغل الناس كلهم علـى اختـلاف طبـقـاتهم إنما هو الحـياة والصـحـة، لا الدرهم ولدنانير، فهم إن طلبـوا المال وتكبدوا المشقات فى الحصـول عليه لا يفعلون ذلك إلا لأنه وسيلة إلى حـفظ الصحـة وبقائها وحـفظ الحياة ودوامـها، ولا يوجـد فى الدنيا عـاقل يسوى بين الوسـيلة والغـاية، ولا بين المقصـود لذاته والمقصود لغيره، فـالمال مقصود لغيره وهو الصحة، والصحـة مقصودة لذاتها لأنها هى الحياة ولأنها هى السعادة فى هذا العالم، نسأل الله تعالى أن يحفظ علينا صحتنا ما حيينا وأن يمن علينا بالمال الذى يكفى لخدمة الصحة ولا يضل ولا يطغى إنه على كل شىء قدير.

المساواة بين الرجل والمرأة

ثم إن بعضـهم انتفض جالسًا وقـال: خبرونى ناشتكم الله عن مـسألة المساواة بين الرجل والمرأة، فإن الوقت اقتضى الكلام عليـها. فأجابه فقيه من

بينهم وقال: أنا لها بحول الله وقوته، فأقول: ليس لأحد من المخلوقات اختيار فى وجوده فى هذا العالم، والإنسان والحيوان والنبات والجماد فى هذا سواء فوجود الكائنات جميعًا فى هذا الوجود إنما هو بفضل الله، وقد أوجدهم على مقتضى علمه وحكمته وأودع فى كل نوع منهم أسرارًا وبدائع تدل على قدره المبدع وعلى وحدانيته وعلى علمه بكل شىء وعلى حكمته التامة، ومن تفكر فى شأن الإنسان والحيوان علم أن أساس الحياة فيهما قائم على الذكورة والأنوثة، وقد شاركهما فى هذا الأساس النبات، وإن خفى فى بعض أنواعه، ولعل الجماد يشترك فيه أيضًا، ولم لا يكون الجماد خاضعًا لها القانون؟ ونحن نسمع أن فى الكهرباء التى هى نوع منه الموجب والسالب. وهل علينا من حرج لو سميناهما المذكر والمؤنث ولو من غير تمييز بينهما، فقد يكون الموج هو المذكر والسالب هو المؤنث، وقد يكون العكس، وكذلك نسمع أن بين الذرات التى يتكون منها كل شىء نوعًا من التأليف والتماسك وربما كان هذا ناشئًا عن الذكورة والأنوثة وسواء كان أو لم يكن فالذى إليه هو أن عالم المخلوقات متوقف على الارتباط والتأليف بين أنواعه سواء سميناهما ذكرًا وأنثى أو أليفين أو زوجين، وفى القرآن (ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون).

بعد هذا أستطيع أن أدعى أنه لا غنى للرجل عن المرأة، ولا غنى للمرأة عن الرجل ولا بقاء للنوع الإناسنى إلا بهم معًا، فكلاهما شريك لصاحبه، وربما كانت الشركة بينهما تجمع كل أنواع الشركة: أعنى فى الأبدان وفى الأموال وفى الأعمال وفى الذمم. وأظن أن منكر هذه الشركة مكابر أو متجاهل بسبب تشيع أو تعصب، أما الجهلة فلا محل لها هنا لأن ذلك من

بداهة العقول، إذن قد علمنا أن حياة النوع الإنسانى فى الدنيا لابد فيها من الرجل والمرأة، ولا مانع من أن تكون فى الآخرة كذلك، فقد حدثت الكتب السماوية إن حواء كانت شريكة آدم فى جنته كما كانت شريكته فى دار التكليف والعمل والكد. هذا شىء لا يحتاج إلى بحث ولا تفكير. أما الذى يحتاج إليهما فهو وظيفة كل من الرجل والمرأة فى هذه الحياة، أنا لا أشك فى أن كلا من الرجل والمرأة ويجب أن يبقى ولا يهلك لكنه رأى أنه لا مفر له من الهلاك ومن الموت فرضى من البقاء بقاء نوعه بأن يبقى بقاء ضمنيًا فى ذريته، ولذلك ترى الرجل حريصًا على أن يكون له نسل وأولاد، وكذلك تسعى المرأة إلى أن تكون أما وإلى أن يكون لها أولاد، وهى تبذل فى هذا السبيل كل ما تملك وتبكى إذا لم تمنح هذه الهبة. وأعتذر عن الجهر بهذا السر النسائى إنها من أجل النسل ترضى بأن تترك بيت أبيها وما كانت فيه من نعيم إلى بيت لا علم لها بما فيه، وقد يكون أحقر من بيت أبيها، وقد تكون بعيدة من أهلها وأحبابها وجيرانها، ولولا ذلك الدافع الفطرى الذى شاءه الله المدبر الحكيم ما اتخذت دارًا غير دارها التى وجدت فيها وقضت فى جنباتها ريعان شبابها ولا عرضت نفسها لحوادث الدهر وتقلب قلوب الأزواج. ولقد قضى الله جلت قدرته وعظمت حكمته أن يكون ميل الرجل إلى المرأة أكثر من ميله إلى أمثاله من الرجال، وأن يكون ميل المرأة إلى الرجل أكثرمن ميلها إلى مثيلاتها من النساء.

ومن العجب أن ترى الأنس يتم باختلاف الأنواع، والحب يجرى بين الضدين، ولم يقتصر الأمر بين الرجل والمرأة على مجرد الحب بل إن كلا منهما فتنة لصاحبه ولا يسلم من ذلك إلا الشاذة فى الفطرة، ويكفيكم قوله

تعالى (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون)

هذا هو الذى يمكن أن يقال فى الوظيفة الطبيعية. أما الوظائف الأخرى من اكتساب الرزق وجلب القوت وإعداد الطعام وتهيئته وتجهيز الثياب وبناء المسكن وتربية الأطفال وخدمتهم والذود عن النفس والعرض والمال وسواها من شئون الحياة، فكلها مما نظمته العادات والبيئات. ونص على ما لابد للنص عليه منه الشريعة الإسلامية الغراء الصالحة لكل زمان ولكل مكان، وبينت ما هو خير للناس لو كانوا مؤمنين ومنصفين. بعد هذا أجترئ على أن أعلن كما أبطن: أنه ليس من وظيفة المرأة أن تعمل عملا خارج منزلها لكسب القوت أو لشراء السرابيل والثياب ما دام زوجها حيًا وقادرًا على الكسب أو ذا مال، وما دام أبوها أو أخوها أو نحوهما كذلك إن كانت غير متزوجة وفقيرة، وليس من وظيفتها أن تكون مهندسة، ولا بناءة، ولا نجارة، ولا حدادة، ولا زراعة، ولا حاصدة، ولا قاصية، ولا محامية، ولا ضابطة فى جيش، ولا جندية، ولا شرطية، ولا رئيسة قلم فى ديوان، ولا وزيرة فى مملكة ما دام فى الرجل من يصلح ويكفى لهذه الأعمال. أما عند الضروريات فتباح المحظورات. وإنى لأعجب لهؤلاء اللائى يرفعن أصواتهن فى هذه الأيام مطالبات بالمساواة بين الرجل والمرأة، وعجبى لهن شديد، ذلك لأنى أتوجس فى هذا الطلب شرًا وألمح من بين خلاله بلاء يلحق النوع الضعيف قبل أن يكون النوع اللطيف. وما أرى مثل هؤلاء الصارخات ألا كمثل الباحث عن حتفه بظلفه و الجادع مارن أنفه بكفه، وأى عاقلة من المسلمات تسعى بنفسها إلى شقائها؟ أتريد المرأة أن تكون عاملة فى الحياة، وهل شعرت يومًا أنها غير عاملة، وهل رأت يدها فارغة من عمل؟

أليس لها بيت؟ ألم يكن لـها إخوة أو زوج أو أبناء تجاهد فى شـئونهم وما أكثر شئون هؤلاء! وما أحسن المجاهدة فى هذا السبيل تحت ظل العروش وداخل الأسوار. ليت أخواتى يعلمن كما علمت حديثًا أن الشريعة الإسلامية حافظت عـلى سلامة المرأة المسلـمة وعلى كرامـتهـا وعلى راحتهـا، فكلفت زوجها الإنفـاق عليها فى كل ضرورات الحياة، وكلف أقـاربها من الرجال أن ينفق عليها منهم الأقرب فالأقرب إذا لم تكن ذات بعل وكانت فى حاجة إلى النفقـة. كل هذا قد كان لتكون المرأة ريحانة زوجـها، وزهرة بيتهـا، وكهف أولادها. لا لتكون قـهرمـانة، ولتكون مكرمـة لا مهـانة، ولتكون مـحبـوبة ومرغوبًا فيها، لا بغيضة ولا مرغوبًا عنها، ولتكون حصينة لا مبتذلة.

يزعم النساء أنهن قـديرات على عمل كل ما يقوم به الرجـال ويضربن الأمثـال لذلك بمن اشـتهـرت بذلك منهن فى الأمم وفى العصـور الماضـية، وكذلك يزعمن أنه إن كان فيهن الخامل والضعيف ففى الرجال أمثال ذلك.

وبسبـبهم هلكت أسر وخربت بيـوت، والمنصفون من الرجـال يسلمون لهم الزعم الـثـانى ولا يسلمـون لهم الزعم الأول. فلـيس فى وسع المرأة أن تكافح فى الحـيـاة كـما يكافـح الرجل لأنها لـم تخلق لذلك. ولا يسـتطيع المنصف من النساء أن ينكر أن لكل من الرجل والمرأة مواهب واستعدادا خاصة به، فـقد خلقت المرأة لتكون حـرثًا، ولتكون أمًـا، ولتكون معـوانًا لزوجهـا وأولادها على الحياة، ومـا تطلبه الحياة من عمل فى الدائـرة التى تدبر عملها فيها على مقتضى ناموس الفطرة وسنة الحياة الطيبة القيمة. ولا يشك أحد فى أن الاختلاف فى المواهب والاستعداد يسـتلزم الاختلاف فى الوظيفة والعمل. إذن لكل من المرأة والرجل عمل خصتـه الفطرة به، وليس أحد العملين بأقل قدرًا من الآخر فبهما الحياة وبدونهما يكون الموت والفناء.

إن الطبيعة تأبى على الرجل أن يكون كالمرأة، وتأبى على المرأة أن تكون كالرجل، فعلام هذا الصياح، وعلام هذا البكاء والعويل، وما الذى تريده المرأة حين ترفع صوتها، وتقول أنها تطلب المساواة بالرجل؟ إنه ليس فى مقدورها أن تحول نفسها فتصير رجلا، وليس فى مصلحتها أن تطلب إعدادها للكد والكدح فى الحياة، ولا أن تطلب تربيتها على الوجه الذى يجعلها إنسانًا خارج البيت وفى الشوارع وفى محلات الأعمال وأمكنة الوظائف بدلا من أن تكون إنسانة مكرمة فى بيتها، مصونه فى عقر دارها، عاملة على إصلاح حال زوجها، وإنبات نسل صالح يتمتع بالحياة، ويهنأ بالقوة واليسار، ويلتذ بنعيم الحرية والعزة. إلا أن المرأة لو فكرت كما يليق بها أن تفكر لرأت أن عدم مساواتها بالرجل فى الأعمال الخارجة عن المنزل دليل على حب الرجال لها وتفضيلهم إياها على أنفسهم ولكان هذا مما تفخر به على العانسات فى عالمها.

لذلك أنصح لها أن ترضى بما قدر لها، وأن تقنع بما نالته من متاع الحياة الدنيا، وأن تلزم بيتها فتدبر شئونه كما ينبغى، وتعتنى بأولادها وأطفالها، وكفاها بهذا شرفًا ونبلا وأنعم به من عمل.

فالتفت إليه بعضهم وقال: لقد أكثرت علينا فى شأن قوم لهن قلوب لا يفقهن بها، وانظر إلى أين وصلت بهن الجراءة والوقاحة، والكلام معهن ليس بنافع فى الواقع ونفس الأمر، وما هن إلا مدرجة للزيغ، ومزلقة عن الصراط، يستدرجهن الشيطان بتلك الدعاوى الباطلة من حيث لا يشعرن بها. ولكن اذكر لنا كيف ينبغى للإنسان أن يكون مع إخوته المؤمنين، قال نعم.

كيف يكون الإنسان مع إخوانه

إن الله ميز الإنسان عن غيره من الخلائق التى تعيش على وجه المسكونة، وإن الله اختار له العقل ميزانًا يميز به بين وجوه الخير والشر ونبراسًا يتبين به المسالك والغايات، فإذا وجدت من الناس من همه فى الحياة طعام وشراب وملبس ومنام، ولا يعنيه من الدنيا ما يتعلق بنفسه وما يعود بتكوين شقاوتها الذاتية فحسب. فخليق بهذا الإنسان أن يكون أدنى إلى مراتب الحيوانية الخرساء من الإنسانية الناطقة، قضى الله أن تكون المجموعة البشرية متماسكة العناصر، متوحدة القوى، وألا تستقيم لها حياة إلا فى ظل هذا الاتحاد الجامع، والأخوة الصادقة، فسعادة الفرد مقترنة بسعادة المجموع فى جميع الوسائل والغايات.

فالأمم التى رقت واستباحت لنفسها مكانة المجد على عرش الحياة، ودوخت الأرض وأقطارها بما أوتيت من عز وسلطان إنما تم لها ذلك كله بانتظام ألفتها والتئام شملها وجهاد أفرادها فى كسب مغانم الخير للجماعة.

وينشأ عن هذا ترك حب النفس جانبًا، والأخذ بنصرة الضعفاء، ومساعدة المحتاجين على قدر حاجتهم، إنك قد تمر بين مختلف الطبقات والهيئات فلا تكاد تجد الفرد الذى يهتم لمصائب إخوانه وأبناء نوعه ويحن عليهم ولو بمجرد العاطفة والإشفاق، فحب الذات قد ملك كل ذات، وهوى النفس قد غطى على كل نفس، وبذلك انحلت الأواصر، وتفككت العناصر، وتبدد شمل المحبين، وساءت الظنون بين الخلائق أجمعين، وأصبح كل إنسان يلقى فداحة المسئولية على من سواه كأنه ليس من المكلفين، إنه يهم الفرد الآن أن يكون له بيت عامر، وأن يهنأ بمتاع الحياة الدنيا وزينتها وسواء

عليه بعد ذلك أخسر الناس أم ربحوا، فهو ضاحك مأنوس مستبشر ولو رأى الخلق أمام عينيه أشلاء مبعثرة فى الفضاء وجياعًا عراة يتخبطون على تراب الغبراء ما دام هو متأنقًا فى الملابس ومجملا فى الوجه رشيق القوام لو أشار السائل إلى ثيابه لغسلها، ولو مشى فى ظله ليئس منه كما يئس الكفار من أصحاب القبور: لو كان للإنسان مخالب الطير وأجنحتها وبراثن الوحوش وأنيابها لكان له فى الحياة الفردية أمل ومعذرة، ولكنه مخلوق لا عدة له إلا بإخوانه وعشيرته، فإذا فاتته معونتهم فقد فاته نعيم الدارين وسعادة الحياتين، والتعاون لا يكون من جهة واحدة، فإذا انتظر الفرد معونة من الجماعة وجب أن يعرف أن أفراد الجماعة مثله يحتاجون إلى معاونته ومؤازته، وقد وزع الله المواهب والقوى على خلقه وفضل بعضهم على بعض فى الرزق، فيذكر الإنسان واجبه نحو إخوانه، فذلك هو السبيل الأقوم لسلامة الأرض وسلامها، وذلك هو النهج المؤدى إلى رضا الله فى الدنيا ورضوانه يوم الدين.

ذكر ما حل بأئمة المساجد من الإهانة الوقتية

فالتفت بعضهم وقال: اذكر لنا ما حل بأئمة المساجد من الإهانة الوقتية حتى أداهم ذلك إلى الإعراض عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فقال أئمة المساجد هم ممثلو رسول الله ﷺ فى جميع الأقطار الإسلامية، وهم فى مقام عال لأنهم القادة المختارون لقيادة الشعوب فى سبيل السعادة والهداية، ولهم حقوق، وعليهم واجبات، فحقوقهم توقيرهم وتعظيمهم والإقبال على مواعظهم والقيام بما يستحقونه من إكرام وحفاوة وإكبار وإظهار الأنس بلقائهم، واختصاصهم بصدور المجالس وحسن الاستماع منهم، والواجب

عليهم هداية الناس إلى الحق وإرشادهم إلى الصواب وإمامتهم فى الصلوات ومداواتهم الناس من الأمراض الخلقية المنتشرة فيهم، والصدع بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وعدم مسايرة العامة فى البدع والخرافات التى رانت على قلوبهم، فإذا أدى الأئمة واجباتهم ونالوا حقوقهم سعدت الأمة بهم وسارت بخطوات ثابتة فى سبيل التقدم والرقى، ولكن المتفكر فى حالة الأمة يراها منحدرة فى طريق التأخر المعنوى والمادى، وشىء كبير من التبعية فى هذا الأمر واقع على الأئمة والأمة. فالأمة لاهية لاعبة شغلتها شهواتها وألهتها لذاتها، وهدمت قوتها غفلاتها، فلم تعد تنظر إلى الأئمة إلا نظرها إلى موظفين عاديين يتناولون من الأوقاف الإسلامية ويؤدون عملهم الدينى بدون عاطفة ولا إحساس عميق بالمهمة الدينية التى نيطت بهم، وينتج من نظر الأمة إلى الأئمة هذه النظرة أن صارت تقسيهم بالثياب والأزياء لا بالعلم والأخلاق والدفاع عن الدين الحنيف، فقابل الأئمة الأمة بجنس عملها: ففهموا أن وظيفتم هى أن يؤدوا الصلوات أو ينيبوا عنهم من يؤديها على أية حال، فلا تكاد تجد إمامًا يجلس إلى العامة فيفهمهم دينهم بعبارة سهلة تسيغها عقولهم الساذجة، ويندر أن يصحح واحد منهم قراءة المصلين وهى مشحونة باللحن الذى لا يجوز السكوت عليه، ويجىء يوم الجمعة، فيخطب بعض الخطباء من ديوان عتيق لا يوافق العصر أو ينشئ خطبة عامة يتكرر معناها كل جمعة وإن تغيرت ألفاظها، وبذلك ساءت أحوال العامة وانحطت قواها المعنوية أو ضاعت، وصارت الخطب عديمة الجدوى قليلة الغنى، وإذا استمرت الحال على هذا فلن ترتقى كأمة تطلب المجد وتنشد الرفعة، وإنى أخاطب إخوانى الأئمة قائلا لكل منهم: أيها الإمام أنت عقل الأمة ودماغها المفكر ومصباحها المضىء إذا احتلك الظلام، ومرشدها الأمين إذا اختلفت الطرق، وقائدها

المدرب فى ميادين العمل الصالح فى الدنيا والآخرة، وأنت المرجى لإصلاح أخلاقها بعملك وعلمك، والمؤمل لتحسين حالها بوعظك وإرشادك فلا تقل أنا أصلى الوقت والسلام، فإن الصلاة يقوم بها كل مسلم متفقه، فلا حاجة إذن للإمام ولا تهمل مركزك الكبير، بل استخدمه لهداية الناس وجذبهم إلى الحق والعمل الصالح، فإن قصرت ولا إخالك فأنت المسئول عن ذنوب الأمة، وإن لم يكن لك يد فيها.

ويا أيتها الأمة إنك إذا احترمت الأئمة واستمعت إليهم واستنصحت بنصائحهم فإنك لا بد راقية وواصلة إلى ما تريدين من عز ومنعة وقوة سلطان وحرية واستقلال، وإذا سرت معهم كما أنت الآن فأنت الجالية على نفسك، والساعية إلى حتفك، والسائرة فى طريق التقهقر والانحلال. أسأل الله أن يوفق الجميع إلى أداة ما عليهم حتى يزول عنا الحزن وتنزاح عنا المحن، ويرد إلينا سؤددنا ومجدنا السالف، ويرجع إلينا شرفنا وسلطاننا واحترام الأمم لنا، والله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين.

ثم إن بعضهم التفت إلى أستاذ هناك وقال: نحب من سيادتك أن تشنف أسماعنا بتلك الخطبة التى بلغنا أنك أنشأتها، فقال على الرأس والعين، ثم استوى قاعدًا وقال: أيها المسلمون لقد أرسل الله سبحانه وتعالى الرسل مبشرين ومنذرين لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل حتى آلت ولاية عهده إلى خاتمهم محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه. حينما بلغت الإنسانية رشدها، واستكملت مواهبها وأصبحت لديها الصلاحية لتقبل خير دين شذ مع العقل فى قرن وجرى وإياه فى سنن، فلا جفوة بينهما ولا نبوة، ولكن صداقة ومودة، ولذا لم يخاطب الدين من أصناف البشر إلا

أولى الألباب، فحملهم الأمانة ووجه إليهم الخطاب. المسلمون أيام الرسول ﷺ دخلوا فى دين الله أفواجًا مأخوذين بجمال آدابه ومسحورين ببلاغة كتابه، فخالط تعليمه وهديه لحومهم ودماءهم فباعوا أرواحهم رخيصة فى سبيل نشره وإعلاء كلمته اكتسابًا للصفقة الرابحة فى وعده القائل (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) فتمت لهذا الدين وأهله الغلبة على أهل الأديان المعروفة إذ ذاك وانتقلت المسألة من الفتح بالسيف إلى الفتح بمكارم الأخلاق، وحفظ العهود، وحسن المعاملة، وبسط الرحمة، والتواصى بالحق، والتواصى بالصبر، وما حدثنا التاريخ عن أمم أحيت الفاتحين لها ورحبت بالغالبين عليها كالأمم التى أراد الله بها سعادة الدارين، فخفق على ربوعها علم الإسلام، فقد استحالت شقوتها إلى هناءة، وذلها إلى عز، وتفرقها إلى اتحاد وعرفت أنها تحيا كما يحيا الإنسان بعد أن عاملها سادتها بأقل مما يعامل به الحيوان: هذه النظم أو القوانين السماوية التى قلبت العالم رأسًا على عقب، وسلطت عليه من نورها الباهر ما أضاء دياجيه كان لها السلطان الأكبر فى قلوب معتنقيها، ففهموها حق فهمها واستنبطوا أسرارها، فأمدوها بالحفظ والصون وأمدتهم بالظفر والسيادة.

ما وجهوا عزمهم يومًا إلى بلد يفيض بالكفر إلا فاض إيمانًا

فخلف من بعدهم خلف طال عليهم الأمد، فقست قلوبهم وأخرجوا الصلاة عن حقيقتها حتى صارت هيكلا بلا روح ولفظًا خلا من المعنى. هذه هى الصلاة التى تعد من أمتن الأبراج فى صرح ديننا الحنيف، يقول الله (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وهو تقرير منه تعالى لوظيفة الصلاة، وها نحن نرى كثيرًا من المصلين إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس

ليأكلوا أموالهم بالباطل فى تصيد قوامه على يتيم، أو اغتيال مال يودعه صاحبه لديهم اغترارًا بظاهر حالهم وجهلا بحقيقتهم. وما أبلغ قول الله فى أمثالهم (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون). فأنت ترى أن الأداة التى فرضت تطهيرًا للنفس وغسلا لأدرانها قد استعملت فى عكس الغرض الذى جاءت لأجله، وكفى بذلك ضلالا، وهكذا لو استقرأنا هذا القانون مادة مادة ما عثرنا فيه على واحدة تطبق الآن أو يطبقها الناس على أنفسهم كما أراد الشرع الحكيم، بل رأينا المسلمين اليوم قد مسخوها مسخًا وسلخوها عن حقيقتها سلخًا حتى فى الطهارة.

ولقد قال بعض حكماء الإسلام إن الوضوء فى الأوقات الخمس والمحافظة على النظافة فى هذا الدين تنبذ جميع الأمراض بالكلية وتستأصلها منهم، ولكن عدم المحافظة على ذلك هو الذى أوجب الأمراض.

ومن العجيب أن الله يأمر بالنظافة لأجل الصلاة، وقد أراد أن تكون صحة لنا، فجهلنا من جهلها وعرفها من عرفها فضلا ومنة.

ثم قال: وبالجملة فالمحافظة على نظام الدين الإسلامى توجب عدم ارتكاب الذنوب بالكلية، كما أن النظافة سبب للصحة الجسمية.

ثم قال الأستاذ المذكور: وإن لنا فى الصوم لعبرة أراد الشارع من فريضة الصوم أن يحول بين النفس وبين طغيان المادة عليها بغلظ الأغذية والارتكاس فى حمأة الشهوات، فحرم عليها ما تعودت تعاطيه فى نهارها ليصفو جوهرها وتكون بالملائكة أشبه، فتسهل عليها العبادة وتلين طباعها، فضلا عما فى الصوم من تقوية الإرادة، والشعور بحرقة الجوع فتعطف على الفقير الذى

جربت: كيف يجوع وكيف يذل بسبب الجوع حينًا من الدهر إلى غير ذلك من باهر الحكم التى يضيق باستيعابها هذا المقام وإن طال، تعال معى لأضحكك على حسب استعداد مزاجك ما هو الصوم الذى يقول الله فيه (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون)، وأين هو عندنا معشر المدعين للإسلام؟ يبتدئ رمضان فيقضى الصائم أو المتظاهر بالصوم معظم يومه نائمًا حتى إذا استيقظ خاف أهل المنزل أن يكلموه لأنه صائم، وإذا رأى شيئًا لم يوافق مزاجه قامت قيامته وكال لأمرأته السباب بغير حساب، وربما ارتفعت حرارة صومه الشريف فكسر الماعون وأراق ما فيه، وهو يظن أنه معذور لأنه صائم، ويا لشقاء من يصادفه من السائلين فيسأله، فيثير غضبه، ويكيل له من أفحش أنواع السب، ويطفف المكيال، كل ذلك يفعله على حساب رمضان البرىء، ناسيًا ما يفعل من منكر، كأنه جواز يلج به كل شىء، ويقتحم به كل مفسدة، وأنت تعلم أن رمضان فرض صومه ليجنب الناس أمثال هذه المعايب، ويصونوا أنفسهم من عادات وخيمة وأفعال ذميمة، فإذا وصل إلى شاطئ الغروب بعد عواصف يومه، وزعازع صومه، فهناك تصف أمامه أنواع الأطعمة ليأخذ منها ما أراد، وهو يريد كل شىء فتذهب ثمرته المرجوة هباء، ويضيع فى لحظة ما كابده فى يومه الطويل، ثم يأخذ فى زيارة إخوانه أو يلبث فى انتظار زيارتهم إياه، فإذا اجتمعوا مدوا بينهم موائد الغيبة، فيتنالون من أعراض الناس ما شاءت لهم أهواؤهم، فلا يتركون منهم أديمًا صحيحًا، وإذا كان من عادة أحدهم استئجار القراء لقراءة القرآن فى بيته أجلسهم فى أخس مكان وأبعده، يجيبهم الصدى وتؤنسهم الحيطان، وفى خلال ذلك تمر الأوقات وهم ساهون لاهون، يصرفون الليل إلا قليلا على هذا النمط، حتى إذا انتصف الليل أعادوا رواية

المغرب تمثيلا، وقتلوا أنواع الأطعمة تقتيلا، ثم ناموا نومة من لا يفكر في أن عليه فرضًا يجب أن يؤدى ولو على التخفيف، وهكذا دواليك أيامهم ولياليهم حلقة مفرغة، وسلسلة متشابهة، فرمضان عندهم شهر نوم وسباب، وليله أكل وشراب وكذلك شأنهم فيما اصطلحوا على تسميته بالمواسم. فالشهر الذى نحن بصدده ليس فيه من الأعمال إلا ما مر ذكره. أما عيدك: فكعك ونقل وسمك، والأضحية لحوم يحرم منا الفقراء ويأكلها الأغنياء، وفى نصف رمضان صنف من الحلواء يفسد المعدة ويجلب التخمة فيها بأشياء معلومة. وفى مولد النبى ﷺ تضييق فجاج الأرض بالمواسم والتصاوير التى هى كالأصنام، وهكذا كل موسم له صنف من المأكل غير الذى لأخيه تفننًا فى اللذات، واستجلابًا للتمتع بالشهوات. أما تقوى الله وتحرى مرضاته بالبحث عن حقائق ما ورد بشأن تلك المواسم عن الشارع الحكيم ليقفوا عندما وقف عنده، فكل ذلك لا يدور لهم بخلد ولا يعمل له حساب، فإذا لمتهم أو نصحت لهم حاجوك بما حاج به المشركون أنبياء الله من قبل، فقالوا (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون).

العوائد الوقتية وما فيها من المساوئ

ثم إن بعضهم التفت إلى فقيه منهم وقال: نحب منك أن تشرح لنا بعض العوائد الوقتية وما فيها من المساوئ المردية: فقال نعم:

ثم قال وقد رأيت من عجيب انقلاب المدارك فى هذه الأمة الإسلامية اليائسة أنها تحرص على العادات الضارة وتحافظ عليها بدرجة التهالك. أما الأخلاق الكريمة التى يخرج ينبوعها من معين الشرع الصحيح، فهى لا تحافظ عليها إلا كما يحافظ الغربال على الماء، وقد صار شأنها كذلك فيما

تنقله عن الأمم الغربية من العادات، تراها فى سفساف الأمور مما تلده المدنية الكاذبة أسرع التقاطًا من آلة التصوير، فإذا حملت على تقليد النافع من العادات مشت إليه مشى السلحفاة. وبعد فلا يفوتنى أن أنبهك إلى شىء لعلك لاحظته معى ولفت نظرك ودهشت له كما دهشت، ذلك الشىء هو عادات بعض علمائنا وفقهم الله فى تدريس العلم، إنما يلقون الدروس على التلامذة إلقاء كيف حفظوها من الكتاب الذى بين أيدى الجميع، أو من الشروح والحواشى عليه أو على مثله، فتراهم يتابعون الدرس مسألة غير مبالغين بفهم التلامذة، وهذا أمر ليس بالمستحسن وإنما المستحسن فى التدريس هو صنيع إلقاء الدرس كأنه مطالعة ومذاكرة مع التلامذة، وسؤال الواحد بعد الآخر عن تصوير المسألة ثم الحكم عليها كما هو صنيع علماء المشرق فترى التلامذة أمام الشيخ هذا يسأل وهذا يجيب، أو هذا يستشكل والشيخ يجيب، حتى لا يبقى تلميذ غير مدرك للدرس كما ينبغى.

ومن عادات بعض علمائنا أيضًا مطالعة غير كتاب القراءة وإلقاؤه أمام التلامذة الذى لم يكونوا قد طالعوه فهذه عادة غير حسنة مع ما فيها من التطويل الغير المفيد، واللائق الاقتصار على كتاب القراءة وليكن مع التفهيم التام كما سبق.

ومن عاداتهم أيضًا عدم الاتفاق فى اختيار كتب التدريس، فترى هذا يقرأ خلاصة ابن مالك لشرح المكودى، وهذا بشرح ابن عقيل، وهذا يقرأ مختصر خليل بشرح الخرشى، وهذا بشرح الزرقانى، وهذا بشرح الدردير، وغالب التلامذة لا يمكنهم إتمام قراءة المتن جميعه بشرح واحد للزوم تعدد الأساتذة فيه. وكان اللائق الاتفاق على الاختيار حتى يحصل مقصود الطالب بسهولة.

ومن عادات بعض علمائنا أيضًا التعمق فى مخالفة العامة فى أمور ليست من أصل الدين والتشويش على أفكارهم بذلك حتى يظنوا أنهم ليسوا على الدين، والله تعالى يقول (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) والنبى ﷺ يقول فيما أخرجه البخارى ومسلم "يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا".

ومن عادات البعض أيضًا: الترفع عن العامة ترفعًا يجعلهم كأنهم وإياهم ليسوا من سلالة واحدة. واللائق بهدى الإسلام وسنة نبينا ﷺ: إنما هو التواضع، والتآلف دون التكبر، والتأفف، وإرشاد الشارد لطريق الخير والفضل بما يحتمله بما عنده من ذكاء وعقل.

ومن عادات بعض متعلمى العلم درسهم العلم كما يشاءون، فهذا يقرأ الألفية قبل ختم الآجرومية، وهذا يقرأ المختصر قبل المرشد المعين، وهذا يقدم الفن الانتهائى على الفن الابتدائى، وهكذا.

ومن عادات بعض خطبائنا أن يخطبوا فى كل جمعة من كل شهر من كل عام بما خطب به غيرهم منذ مائتين من الأعوام، لأنهم إنما يحفظون أو يلحظون دفتر خطب فلان، فينظرون الخطبة الأولى لشهر كذا، أو الخطبة الثانية لشهر كذا، مع أن هذا السيد الذى كان قد خط بهذه الخطبة إنما كان قد خطب بها مراعيًا لأحوال وقته والوسط الذى هو فيه، فإن الخطيب كالطبيب، فكما أن الطبيب يضع لكل داء دواء، فكذلك الخطيب ينبغى له أن يخطب فى كل وقت بما يناسب حال من يخطب عليهم كما كانت خطبه عليه الصلاة والسلام.

وقد صرنا لا نسمع من كثير من خطبائنا ذم الكذب، والعجب،

والرياء، والحسد، والانغماس فى الربويات، وأكل أموال اليتامى ظلمًا، وأكل أموال الناس بالباطل، والحكم بين الناس بغير الحق، وغيرها مما فشا أمره فى هذا الزمان.

وكان ينبغى قرع أسماع الناس اليوم بما ورد فى ذلك من الكتاب والسنة مرة بعد أخرى، وكذلك فى بعض المساجد بما يشاهده الخطباء وهم يخطبون من تخطى الداخلين لرقاب الجالسين، ومن دوام الاشتغال بالذكر وقراءة القرآن والحال ما ذكر، ومن عدم استقبال الخطيب من أول الخطبتين لآخرهما، فإن كل ذلك من الواجبات حيث إنه فى حال الخطبة ليس إلا الإنصات التام مع مقابلة الخطيب، ثم لا على الخطيب فى تكلف الحفظ ولا فى تكلف السجع إلا ما ورد عفوًا كما كانت خطبه ﷺ وخطب السلف الصالح من بعده.

ومن عادات بعض خطبائنا أيضًا التطويل الكثير فى الخطبة حتى ينام بعض الناس ويمر وقت كثير، وفى الناس الشيخ، والمريض، وذو الحاجة. وقد أخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن عمار بن ياسر (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ قال "إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته منبئة عن فقهه، فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطبة". وأخرج أبو داود والحاكم فى المستدرك بسند صحيح عن جابر بن سمرة (رضى الله عنه) أنه ﷺ كان لا يطيل الخطبة يوم الجمعة.

ومن عادات بعضهم أيضًا سرد أحاديث ضعيفة أو موضوعة بالكلية، مع أن فى الصحيح غنية من غيره، بل ربما أتوا بتلك الأحاديث فى فضل بعض الليالى أو الأيام مما لا ثبوت له أصلا لدى العلماء الأعلام!

وبعض الخطباء يكون غير جهورى الصوت، فربما لا يسمعه إلا أهل الصف الأول، وهذا كان الأليق به عدم توليه للخطابة أصلا، وبعضهم أيضًا يكون غير محسن للعربية فيلحن فى الحديث النبوى فيشمله وعيد الحديث المتواتر "من كذب على متعمدًا فيتبوأ مقعده من النار" فإن الجاهل كالمتعمد، فهذا يجب أن لا يكون خطيبًا أيضًا. هذا والوعظ مثل الخطابة فى كل ما سبق، فإنهما من واد واحد، ومالنا وللوعظ بأحاديث الصفورى ونزهة المجالس ونحوهما، وعندنا مثل الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى، والعهود المحمدية للشعرانى وغيرهما.

ومن عادات بعض أئمتنا عدم ضبط وقت الصلاة، فتراه يصلى الظهر مثلا تارة فى وقت، وتارة فى وقت، فيفوت فضل الجماعة على راغبه أو يضيع له من وقت فى ضروراته وضرورات عياله، واللائق ضبط الوقت لكل صلاة.

ومن عادات بعض المنتسبين إلى طريق سيدى فلان أو طريق سيدى فلان الاعتناء بالورد أكثر وأعظم من الاعتناء بالصلاة التى هى فرض، بل هى عماد الدين، فتراه وقد أقيمت صلاة الصبح مثلا وهو فى ورده فلا يبادر بالقيام كما هو واجب، بل ربما تفوته الركعة وهو فى إتمام ورده، وما ذاك إلا من الجهل المركب.

ومن عادات بعضهم أيضًا الاهتمام بالورد من غير القرآن على تلاوة القرآن الذى هو كلام الله المفضل على كل كلام.

ومن عادات بعضهم أيضا لزوم السبحة لليد وإدارة حباتها حتى فى وقت حديثه الدنيوى مع غيره، فهل هو يعد كلماته أيضًا، وقد ذكرت قول العلامة ابن الوردى رحمه الله.

قـــد بـلينـا بأمـــيـــر ظلـم النـاس وســـبح

فـهـــو كـالجـــزار فـيـــهم يـذكـــــر الله ويذبـح

أما ما اعـتاده بعض المنتسبـين لشيخ من الطعن على غيره من المنتـسبين لغير شيخه حتى كـأن ذاك على دين، وهذا على دين، فهو خروج بالمرة عما يأمـره به الدين (إنما المؤمنون إخوة) "والمؤمـن للمؤمن كـالبنيان يشـد بعضـه بعضًا"، وما النسبة إلا بقصد تصفيـة الباطن من أمراض الحقد والحسد والغيبة والنميمة وغيرها، وتحليته بأضدادها من محاسن الصفات.

ومن عادات بعض قضاتنا عدم ضـبط وقت الأحكام مع أن فيه راحتهم وراحة المساكين والأرامل والأيتام، ومنهم من يضبط الوقت إلا أنه مهما خرج للمحكمة اشتغل مع جلسائه بـكثرة القيل والقال والمساكين والأرامل والأيامى بالباب فى أسوأ حال، فتراه لاهيًا، وبغيـرهم معتنيًا لا اهتمام له بمصالح أهل البلد وأبناء الوطن، قد ألف التهاون والتـراخى حتى فى ضروريات دينه فضلا عن غيـرها، وهذا مما لا يصح للحكومة التـغاضى عنه على غـير ذلك مما لا يمكن حصره، وفيما ذكرناه لك كفاية، والله الموفق.

ذم تالى القرآن لمجرد الرزق

ثم إن بعضهم التفت إلى الحاضرين وقال: إنه والله ليحزننى ما أراه فى الوقت أن من أكبر أسباب إهمال الأعمال ما كثر وشاع من قراءة القرآن لمجرد مجيء الرزق وتكرار السـورة مرة أو مرارًا على مـا يفعله أهل العزائم لقـصد جلب الرزق، ولعمرى إن هذا من أشد الضربات على أمتنا، وذلك أن القرآن مبـدأ العلوم ومنشأ الحكم، وكان الـصحابة رضوان الـله عليهم يفهـمون منه الأحكام بمجـرد قـــراءته، ثم دونت المذاهب الأربعـة فى القـــرن الثـانى من

الهجـرة، واشتغل أغلـب الناس بالفروع المتفـرعة من تلك المذاهب، فـقامت طائفة ممن يدعى إلى الإصلاح أخـذتهم الحمية على القرآن ووضـعوا أحاديث فى فضائل السور ليصـرفوا الناس عن الخلاف فى المذاهب إلى القرآن وحفظه فذكروا له فضائل، ذكره الشيخ السيوطى فى كتاب الإتقان فى علوم القرآن.

وحكى أن رجلا وجد أحاديث كثـيرة رواها أحد الرواة عن عكرمة عن ابن عباس: فسـأله قائلا إن أصحاب عكرمة لم ينقل أحد منهـم شيئًا عنه فى فضائل السور مما تذكره أنت، فقال وضعته لينصرف الناس عن فقه أبى حنيفة إلى القـرآن، وهكذا حكى عن أحـد الصوفـية فـى ذلك الزمان مـثل ذلك، فهؤلاء قصـدوا خيراً فجاء شراً، فإن الناس انصرفـوا إلى القرآن لمجرد التلاوة بلا فهـم إذا أكثر الأحـاديث جاءت للتـرغيب فى ثواب عـاجل أو آجل على مجرد التلاوة ولم يرجع فيها للمعنى.

واتفق الحـفاظ على أن أغلب تلك الأحـاديث موضـوعة أو ضـعيـفة، ولذلك أصـبح القرآن يقـصد للفظه دون مـعناه مما جعل الإسـلام لفظًا بدون معنى إلا عند الخـاصة وقليل ما هم، وأصبـح كثير من القـراء يتكلمون على مجرد التـلاوة وهذا مخالف للعقـول ولما فى شريعتنا من وجوب الـسير على موجب النواميس الكونيـة فى الأعمال والجرى على مقتضى الطـريق المستقيم فى كل شىء، وعلى هذا فهذه كلها أعمال تخالف شرعنا، وهذا القرآن يجب أن يصرف الناس إليه بالتعقل والفهم ومعرفة ما فيه من الحكم والعلوم، هؤلاء الكذابون الوضـاعـون قد أفـسـدوا فى الدين ولم يصلحـوا، فهم وإن كـان وضعـهم لقصد شـريف ليسوا بأدرى من رسـول الله ﷺ فى وضع الناموس والعلوم، فيحق أن يقال لهم: نعم السير على بئس العير، (وأولئك هم وقود

النار) كما قال ﷺ "من كذب على متعمداً فليتبعوا مقعده من النار"، ثم قال: يا قوم أرى الأمم تنظر فى شئون الحياة حقيرها وجليلها كبيرها وصغيرها، وأهل وطننا قد ذهلوا عما يصيبهم فما أدرى أفى جسم الأمة شلل أصاب أعضاءها فلا تحس، أم وقر فى آذانها فلا تسمع، أم تخبط خبط عشواء فى ليل بهيم، وجود الحياة عدم، وصحتها مرض والداء عضال شقينا به أزمانًا طويلة، وأعصروا وحقبًا وكأنها دنت ساعة الرحيل وعذاب الهرم الشائن وتوديع أيام الدنيا وقيام ساعة الوعيد والإنذار بالويل الثبور، يرون كليات العالم تقدمت وطرق التعليم ارتقت وسبلها تزينت بالأنوار وابتهجت، والطرق فى كليتنا العظمى فى هرمها خالفت المعقول والمنقول والأوائل والأواخر (وترى الناس سكارى ما هم بسكارى) حيارى وما هم بحيارى، ولكن عذاب التقليد والجهل شديد.

الارتقاء سنة طبيعية فى الكائنات من أدناها إلى أعلاها حتى يشمل الأمكنة والأزمنة والجمادات والناميات والنواميس نفسها، نرى الأمم فى ارتقائها وتمدينها تكون آخرتها خيرًا من أولاها وشبابها خيرًا من طفوليتها فإذا ذعبت وخلفتها أخرى ارتقت عنها فى ظواهر الأحوال، عرج على شمال المسكونة وجنوبها فى قطبها فهل تجد هناك إلا أدنى الحيوان إذ لا تصلح للسكنى، فإن ارتقيت إلى أواسط المعمورة حيث لا تفرط البرودة رأيت الحيوان والنبات والإنسان على تمام النمو فههنا ارتقاء فى المكان وإذا نظرت إلى العناصر وجدت بعضها أرقى من بعض وهكذا عالم الحى الذى ينتهى بالإنسان.

وبالجملة فسنة الترقى هى سنة الله (ولن تجد لسنة الله تبديلا) وكلما

خمدت أمة وسكت حرارة شبابها وتدلت فى الحضيض أرسل الله لها من يوقظها من غفلتها فإن هبت للعمل ارتقت وإلا فلتنذرها بالزوال من الوجود، ها هى الأمم ارتقت حولنا فى جميع مواد الحياة من التجارة والزراعة والصناعة وغيرها من جميع العلوم، وها هم أغلب المسلمين فى بقاع الأرض ليس لهم نصيب من الترقى إلا كسراب بقيعة، فيا ليت شعرى ما الذى أصاب جسم هذه الأمة، وأى مكرب من مكروبات الاجتماع فتك بجسمها وما الذى دهى الإسلام؟ لعمرى أن الأسباب لكثيرة، ومن أهمها وأعملها الجهل بالحد الفاصل بين علوم الدين والدنيا حتى وقفت الآن فى حيرة لا يدرى عقلاؤنا ما قسم الدنيا وما قسم الدين؟ فكان هذا هو العائق الأعظم عن تحصيل مراد الحياة والترقى فيها، ولعمرى إن هذه الأمة محتاجة إلى رجال مجددين للنهضة مقررين ومشوقين إلى علوم القرآن فى قلوب الناشئة الحديثة ليشوقوهم إلى المعالى والشرف والاجتماع، ونحن الآن كما ذكر الله (ولا تكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) قست قلوبنا وما قسوتها إلا من عدم معرفة الحكمة فى المشروع لتعمل للغرض المطلوب. ثم إنه سكت، فقال له أحدهم أشبع لنا هذا الموضوع فإنه جدير بالبحث، فقال نظرت فى القرآن والأحكام فتأسفت على كتاب لا نقرؤه إلا أمانى ولا نفهمه إلا من وراء حجاب الجدل والوقوف على قول إمام واحد ذاهبين عن حكمه التشريع إلى ألفاظ الكتاب، أليس من العيب الفاضح أن نقرأ قصص القرآن فلا نكاد نفهم إلا حكايات ذهبت مع الزمان ومرت كأمس الدابر؟ وما لنا ولها إذن؟ تالله إن هذا لهو البوار. إن من أدهى المصائب التى حلت بأمتنا اثنين: الذهول عن اجتهاد غير واحد، وجمود القرائح على أمثلة الكتاب، فكأن الدين ما نزل إلا لفهم عالم واحد

ومثال معلوم، ولنوضح ما أجملته فنقول: يا قوم كنا خير أمة أخرجت للناس إذ نزل علينا كتاب من السماء نقرؤه وحديث نبيه ﷺ وأئمة اجتهدوا وما كان اجتهادهم إلا عقاقير وأدوية لأمراض الأمة زمانًا ومكانًا رحمة من الله ورأفة منه بعباده الضعفاء المتفرقين فى بلاده فلما علم أنه سيفرقهم على سطح الكرة الأرضية ألهم الأئمة المجتهدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم فرأى كل رأيه فيما علم حتى كثرت الأقوال ودونت فى بطون الدفاتر والكتب إلى وقت مسيس الحاجة إليها فيهب المصلحون للأمة ويقومون بعد سبلتها العميق ويشخصون أمراضها ويصفون من تلك الأدوية عقاقير يرفعون أسماءها إلى حكامهم وتصدر بذلك أوامرهم فيقوون الضعيف وتسير الأمة على سواء الصراط.

ذكر الإمام الشعرانى رحمه الله فى مقدمة الميزان أن أقوال الأئمة المجتهدين إنما كثرت لتكون نبراسًا يهتدى بها أمم وأجيال تحدث لهم وقائع وأحوال فى أزمنة وأمكنة مختلفة وهذه هى الحكمة فى إنزال السنة والقرآن بألفاظ مشتركة ليناسب الاختلاف فى الفهم الأمم المختلفة. العلماء فى الأمة أطباؤها ومتى قصر فهم الطبيب وجمدت قريحته فداوى المرضى كلهم بدواء واحد دل على سوء تصرفه وأمات المرضى أجمعين، هل ينفع الطبيب إذا نزل القضاء بالمرضى والمدنفين احتجاجه بأن ذلك وصية معلمة، كلا. وإنما هو احتجاج من حرم البصيرة وساء مصيره. ساء مثلا من يداوى المرضى جميعًا بدواء واحد، ويحكم الناس أجمعين بقول إمام واحد، ويضيق رحمة الله، والله رءوف بالعباد، وذلك وأيم الله من الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا. قصرت عقولنا عن التبصر فتقلص ظل

أحكام الشريعة الغراء عن إظلال هذه الأمة، فاستظلت بظل من يحموم لا بارد ولا كريم: من قوانين وضعية، وكأنها لما بعد عنها ماء العلم الشرعى بفقد المرشدين والهداة تيممت بالتراب. نزل الوحى وجاءت الشرائع واجتهد الأئمة لصالح الأمم وإقامة مدنيتهم فى هذه الحياة الدنيا. فالشارع والمجتهد يريدان رفع الأصر والأغلال عن أعناق هذه الأمة. فالويل ثم الويل لمن ينكسها ويجعل عاليها سافلها، ويرجع الكتاب كله ومصالح الأمة أجمعها لرأى واحد: كأن الله خلق الأمم وأنزل الشرائع لتكونا دائرتين مركزهما ذلك القول (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) يا قوم حرام علينا أن نرى الأمر خرج من أيدينا تدريجًا ولم يبق بأيدينا إلا القليل ثم ننام فى سباتنا العميق ولا ننظر لإخواننا الضعفاء بعين الشفقة والرحمة، وحرام على من أوتى علمًا أن يكتمه لا سيما فى هذه الأيام.

وبالإجمال يجب على كبار القوم أن يؤلفوا لجنة تنتخب من الأقوال ما يناسب الزمان والمكان فى جميع الأحكام، وليس هذا اجتهادًا جديدًا كما قد يظنه من يتمسك بمنعه، فيوقف دولاب الحركة الفلكية، والأعمال الإسلامية، والنهضة العلمية، وإنما هو استثمار تلك الأبحاث الشريفة.

ثم قال: مضى على الإسلام أمد طويل من الدهر، فشب فى الصدر الأول وزمن الأمويين، وصدر العباسيين إلى حوالى المائتين، ثم اعتراه الانقسام، وفترات تتخللها أويقات فيها يترقى العلم قليلا، ثم يرجع إلى الظلمات والتفور والأحن، كقوم أبرقت السماء عليهم ليلا، وكلما أضاء لهم

البرق مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا، ثم أتت جائحة التتار فاجتاحت الأمة واكتسحت جل المسلمين ثم تلتها الحروب الصليبية، وكان إذ ذاك مبدأ تنبه الغربيين فى أوائل القرن الحادى عشر، وتساوى الطائفتان فى القرن الرابع عشر، وسبقنا القوم أشواطًا فى خمسة قرون إلى الآن، ولقد اعترى علومنا وتآليفنا من الضعف ما اعترانا، حتى إنك لترى الكتب المؤلفة فى العربية وغيرها لا يخلص للأذهان منها إلا رشحات وفضلات من العلم لا تروى صاديًا ولا نبل غليلا. يدخل الرجل منا فى التعليم الدينى وسنة خمسة عشر سنة، ويبتدئ فى قواعد اللغة، فيدور فيها كما يدور الحيوان فى رحاه من كتاب إلى كتاب، من هذه التآليف التى قصرنا نظرنا عليها، حتى أصبحنا لا نلوى على كتاب ولا سنة إلا ما كان من فيض غيض تلك الكتب، وما أنقصه من فيض وما أضعفه من عمل.

يمضى الإنسان منا شبابه فى دلك التعليم ويأخذ منه مسكة، فإذا طلب منه خطاب أو خطابة أو تأليف عجز إلا عن تلك العبارة الأعجمية، ولو سئل عن القرآن وإعجازه لقال بلسانه: إنه معجز البشر، وإنما ينطق بهذا سترًا على الجهل وخوف العار. حرام علينا يا قوم أن يسبقنا الناس بطرق التعليم الحسنة، ونحرم أنفسنا وإخواننا من علوم الدين والتهذيب والعقل. يا قوم من لنا بهداة وعقلاء يقومون فينا بتغيير الطرق القديمة المائتة بطرق حية ليحيا الإسلام والمسلمون.

ثم قال طال الأمر على أمتنا فأهملت ما فى غضون كتابها من أساس التربية والحكمة، وكيف تنتقى الرجال الأكفاء فى مهام الأعمال؟. يا ليت شعرى ما الذى أصابها حتى غضت النظر عن القصص التى قصها وأهملت أمرها، وظن أهلها أنها أمور تاريخية لا تفيد إلا المؤرخين.

القصص فى كل أمة عليها مدار ارتقائها، سواء كانت وضعية أم حقيقة على ألسنة الحيوان أو الإنسان أو الجماد، على هذا تبحث الأمم قديمها وحديثها، وناهيك بكتاب كليلة ودمنة، وما والاه من القصص الناسخة على منواله فى الإسلام: كالكتاب فاكهة الخلفاء ومقامات الحريرى، وإن حاد بعضها عن سواء الطريق والجادة وطغى، فخلط الجد بالهزل: ككتاب ألف ليلة وليلة، الذى استخلص زبدته العربيون. كل يعلم ما صنعت الروايات فى عقول الغربيين من التأثير وأخذهم منها بالأحسن من الكلام والأجمل من الأفعال، وكيف يسمعون ويعلقون. فى القرآن قصص تسرد وقائع الأنبياء وفضائل الأولياء وعجائب أعمالهم وغرائب أحوالهم لنقيس المشاهد المنظور على الغائب المستور، والحاضر الظاهر على الغائب الفائت. غفل الناس عن ذلك كله، ونانوا على وساد الراحة ومهاد الغفلة حتى أصبح المسلمون فى أنحاء المعمورة يمتازون بأنهم مسبوقون فى المدنية والعمران، جاهلون بالمنافع المادية والمعنوية، خاضعون للظالمين مقلدون، والمقلد جاهل، والجاهل غافل، الغافلون هم الهالكون. ما عذب المسلمين ولا أزاحهم عن مكانهم السامى الذى خوله الله لهم من الشرف العميم، والفضل العظيم إلا القصاصون المخرفون وأدعياء العلم، وما أكثرهم وهم ضالون مضلون بما يفترونه على الله عز وجل باسم الدين، الدين برىء مما يقولون. ثم قال: كل أمة ضاقت نفوس أهلها، ولم يزج منهم فى النور أحد، ولم يرح رائحة جنة العلوم فبشرها بالتقهقر أمام صولة العلم وقوة الصنائع، وإذا لم يكن فى الأمة رجال يصولون بالعلم والحكمة، وقد خرجوا من جهنم الجهل وغباوة النار، فهى الخالدة فى عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأبقى. ثم قال وغاية ما أقول لكم: إن من اعوجت بصيرته، أو كسل عن العمل، أو عاشر

الجهلاء، أو كره العلماء، أو ترك النظر، أو عاش أبله أو اقتصر على المال أو الجاه، أو لم ينظر فى شئون أمته عند القدرة عليها فلا يلومن القضاء والقدر، بل يلوم نفسه. ثم قال: وإنى ليحزننى أن أرى أهل وطنى بعد أن غربت شمس حضارتهم بنبذهم عادات أسلافهم أخذوا يتهافتون على الاقتداء بالفرنجى فى مساوى مدنيته دون محاسنها، فالفرنجيون متضافرون متعاونون على ما فيه خير لهم، مجدون فى أعمالهم، بعيدوا النظر فى شئونهم، كثيرو التدبر فى عواقب أمورهم. حياتهم العملية سائرة على نظام متين أطلقوا لعقولهم عنان البحث فى ملكوت السموات والأرض ليقفوا على أسرار ما خلق الله من جماد وحيوان ونبات فينتفعوا بها فى حياتهم. والمسلمون متخاذلون متواكلون لا تعاون بينهم، متقاعدون عن جليل الأعمال، قصيرو النظر فى شئونهم، ولا سيما الاجتماعية. قليلو التدبر فى عواقب الأمور. يكاد نظر أحدهم لا يجاوز موطئ قدميه. يخطبون فى حياتهم العملية، فلا نظام لها، تركوا عقولهم ضالة فى فيافى الجهل، وإن تناولوا شيئًا من العلم قنعوا بقشوره دون لبابه. ويا ليتهم تركوا للقوم شرهم كما أهملوا خيرهم، ولكنهم اقتفوا آثارهم فى معايبهم، فكانوا جماعًا للعيوب فانهمك الرجال فى الشهوات واستهوتهم الملاهى، ووضعوا يد الإسراف فى أموالهم فخسروا الفضيلة والمال، وتبرج النساء ولا تبرج الجاهلية الأولى، وغاص ماء الحياء من وجوههن، وكادت العفة تطير من قلوب كثير منهن. حدث كل ذلك وما أشبهه باسم الحرية، والحرية الصحيحة بريئة منه، وقد التبس الأمر عليهم فى فهم معنى الحرية، وأساءوا فى العمل للانتفاع بها، وتذرعوا إلى هتك حرمة الآداب وتقويض دعائم الأخلاق الكريمة، ولو تيقظوا لعلموا أن الحرية حقًا من حقوق الرشيدين من عباد الله جل شأنه منحهم إياها ليستعينوا بها على

تنظيم أحوالهم وترقية شئونهم، واستعمال مواهبهم فيما خلقت لأجله، والتمتع بما أباحه الله لهم، فليس فى معنى الحرية الخروج عن حدود الآداب، وخرق سياج الفضائل، فإن ذلك سائق إلى مهاوى الهلاك: إن كلمة حرية كان يقصد بها أولا تخليص الإنسان من أطوار العبودية والرق، يوم كان القوى يتغلب على الضعيف، فيأخذه أخذ عزيز مقتدر، ويسخره فى مصالحه كحيوان أعجم مملوك له يصرفه كيف يشاء، فلما استنارت العقول رأت أن ليس لمخلوق حق السيادة على آخر، وأن كل استعباد من الإنسان لإنسان حطة ودناءة، وأن الإنسان سيد نفسه إلا أمام خالقه فهو عبد له دون غيره، ولا تفاضل بين بنى آدم إلا بمقدار ما لهم من المعارف، وفضائل الأخلاق ومحاسن الآداب. هذا هو معنى الحرية التى جعلها الحق جل شأنه من حقوق عباده، وهى بهذا المعنى أكبر أركان سعادة الإنسان، فبها يحيا العدل ويموت الظلم، وبها يتخلص الإنسان من قيود الذل إلى بحبوحة العز. بها تكون للحياة قيمة، وبدونها لا معنى للحياة، فإذا خرج الإنسان بالحرية عن هذه الدائرة إلى انتهاك الحرمات والانغماس فى الشهوات، وإطلاق العنان للنفس تلعب بها الأهواء، وتفعل بها كل ما تشاء، انقلبت إلى حرية العجماوات الهائمة فى بواديها، فهام فى ظلمات الضلال، وإذا كانت هذه الحرية المطلقة هى غاية المدنية الحديثة، فجدير بها أن تسمى همجية. والحرية على هذا هى مجمل الأسباب الداعية إلى انحطاط المشرقى والمغربى وضعفهما، وهذه هى علل تقهقرها ووقوعهما تحت سلطان غيرهما وحلولهما فى منازل الهون التى سيبقيان فيهما حتى يغيرا ما بأنفسهما (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم). وعلى هذا انفصل المجلس وذهب كل إلى حال سبيله. ثم إننا عزمنا على أن نعود على ما كنا فيه من الانفراد والاعتزال، والبعد عن مثل

هذا الاختلاط والابتذال، ونستملح العزلة مدة دوامنا بهذا القطر، ونستعذب عليها الصبر، ونعيش فيها عيش الحكماء. من حسن الرضا بحسن الاكتفاء ونستروح راحة البعد عن هذا العالم وأذاه وإغماض الجفون على قذاه. مؤتنسين كل الائتناس بالوحشة من التماس بعد الذى شهدنا من أعمالهم ورأينا، وسمعنا من أقوالهم ووعينا، وقاسينا من عشرتهم ما قاسينا، فإنهم إن سالمتهم حاربوك، وإن وادعتهم ناصبوك، وإن صادقتهم عادوك، وإن واثقتهم كادوك، وإذا خالطتهم لا تأمن الأعداء وإذا مازحتهم لا تعدم الافتراء، وإذا طالبتهم بحق فإنك لا تسمع الصم الدعاء، ولو أنك لم تخالطهم إلا فى مجالس أنسهم وصفوهم، ومعاهد لعبهم ولهوهم لم تجن منهم إلا كل ما يبعد وينفر وينغص ويكدر. تدخلها إذا دخلتها مستروحًا مستبشرًا، وتخرج عنها مستقبحًا مستنكرًا، فعيشتهم فى كلتا الحالتين قرارة معائب، ومجتمع نقائص ومثالب، ومنابت أكدار، وينابيع أضرار، ولا راحة فى الدنيا إلا لمن تنسك وتزهد، ولا سلامة من الخلق إلا لمن اعتزل وتوحد. قد عكفنا فى عزلتنا يذهب فيها كل مذهب، وننتقل من مطلب إلى مطلب فى مطالعة الأسفار والكتب: من تاريخ وأدب. ومن حكم متينة قويمة، وشتى علوم حديثة وقديمة، يهدى كل منا للآخر من أجمل طرف بطرفه، ويتحف بعضنا بعضًا من كل باب بتحفة. اجتنبنا ما يدعو إلى الضجر والملل، ويدنى من الكد والكلل، فتارة نخوض عباب البحار، وطورًا نجتاز الفيافى والقفار، فترى من يحرق فى البحار مراكبه ليحمل على اقتحام المنايا كتائبه، ونسمع الشاعر فى القفر يحدو بناقته، ويشبب بمعشوقته، ثم ننتقل إلى مشاهدة المعامع المشهورة، والوقائع المذكورة. فترى الدماء تجرى أنهارًا فى الوديان، والمهج تسيل انحدارًا من مسايل الأبدان، والموت واقفًا يحصد الرءوس، ويجنى

نفائس النفوس، ثم ندخل فى مطالعتنا إلى حلقة حكيم واعظ يسلب الألباب بقوة بيانه، ويخلب العقول بضوء برهـانه، ويسترق النفوس بطلاقة لسانه، ثم ننتهى إلى مجلس محاضرات بين الأدباء، ومـفاكهات بين الندماء، فنقرأ من لطيف بوادرهم، ورقيق نوادرهم، ما ينير ظلمة الفهوم، ويجلو صدأ الهموم. وها نحن على هذا إلى يوم الوقت المعلوم.

❊ ❊ ❊

كلمة ختامية، ودعاء للمؤلف

يقول جامعه محمد بن محمد بن عبد الله مؤقت الحضرة المراكشية وقته كان الله له ورضى عنه:

وكان الفراغ من تبييض هذا الجزء، وهو الجزء الثالث من الرحلة المركشية، أو مرآة المساوى الوقتية، أو السيف المسلول. على المعرض عن سنة الرسول ﷺ، قرب أذان عصر يوم الأحد ثالث وعشرين جمادى الأولى، من شهور سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة وألف. جعلها الله ناصرة للسنة. خاذلة للبدعة. آخذة بعضد الحق حيثما كان. دامغة للباطل فى السر والإعلان. داعية إلى الوحدة الصحيحة. مستهبة فى النصيحة: إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير. وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلاة تنجينا بها من جميع الأهوال والآفات، وتقضى لنا بها جميع الحاجات، وتطهرنا بها من جميع السيئات، وترفعنا بها أعلى الدرجات، وتبلغنا بها أقصى الغايات من جميع الخيرات فى الحياة وبعد الممات.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

فهرس الجزء الثالث من الرحلة المراكشية

الموضوع	الصفحة
مجالس الكبراء	٥
سمر العامة فى مجالسهم وخرافاتهم	٢٤
السمر الليلى غير الشرعى وقبحه وضرره	٣١
دلالة خلق النساء على خلقهن وعيوبهن وما يستحب وما يمدح فيهن	٣٢
ضرب أمثال لحال النساء فى ذلك	٣٤
نوادر وحكايات الشجعان	٣٧
ذكر الغرائب المشرقية	٤١
عجائب السودان	٥٤
تقبيح لغو العامة وزجرهم عنه وحثهم على طلب العلم	٥٨
الصبر على الشدائد والاقتداء بالنبى ﷺ	٦٥
حال الأمراء والحكام مع الناس اليوم	٦٨
التعامل بالربا وضرره بالمجتمع	٩٢
النهى عن التبذير ووصايا أخر	٩٨
ما قيل فى تحريم الغناء وإباحته	١٢٧
حكم السلام بدءا وردا	١٣٦
التهاون فى رد السلام والنهى عنه	١٣٧
أوامر الدين الإسامى وفوائدها	١٤٥
فضل الصحة على المال	١٤٨

الموضوع	الصفحة
المساواة بين الرجل والمرأة	١٥٢
كيف يكون الإنسان مع إخوانه	١٥٨
ذكر ما حل بأئمة المساجد من الإهانة الوقتية	١٥٩
العوائد الوقتية وما فيها من المساوئ	١٦٥
ذم تالى القرآن لمجرد الرزق	١٧٠
كلمة ختامية ودعاء للمؤلف	١٨٢